هادي العلوي

المستطرف الصيني

«من تراث الصين»

منشورات







المستطرف الصيني

منشورات



اسم المؤلف : هادي العلوي

اسم الكتاب : المستطرف الصيني

تاريخ الطبع : ١٩٩٤ / ٢٠٠٠

تصميم : محمد سعيد الصكار - باريس

اللوغو : صادق الصائغ

الطباعة : تكنو برس الحديثة

الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦ - ٣٣٠٣٩

تلفون : ٧٧٢٠١٩ - ٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366 - 33039
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut -

هادي العلوي

المستطرف الصيني

«من تراث الصين»

منشورات

١



تراث

ما أجمل السماء! لا تترك شيئاً غير مستور
ما أعمق الأرض! لا تترك شيئاً غير مسنود
ما أسطع الشمس والقمر! لا يتركان شيئاً غير مستضيء
ما أعظم البحار والأنهار! لا تفرّطان في الأرض من شيء
ما أسماها وما أرحبها تعجز الكلمات عن وصفها
هو هو سيدي! في تاوه تتأوّج الحكمة كلها
الذي ينشر أشعة الفضائل الساطعة تحت السماء
ويدفع الدنيا نحو الانسجام العظيم
هو مثال المعلمين لآلاف السنين
وتبقى إلى الأبد روحه التي لا تموت

(أغنية يرتلها الصينيون سنوياً في ميلاد كونفشيوس)

فاتحة

حظيت الصين من الغربيين باهتمام واسع فترجمت أدبياتها وانعقدت التآليف عنها في شتى لغات أوروبا ، وخُصّصت دوريات لشئونها أصولاً وفروعاً منذ أواسط القرن التاسع عشر . ويقبل القارىء الغرباوي على المواد الصينية إقبالاً يتيح للناشرين والمترجمين رواج ملموس لبضاعتهم الثقافية . لكن الغالب على المزاج الغرباوي هنا هو المنحى الغرائبي الذي تبدو فيه الصين لعيون قارىء أو سائح من الغرب . ولم تترك الحضارة الصينية وإرثها الغني تأثير يذكر في الوعي الغربي يمكن أن يعدّل من المزاج الموروث عن سبعة قرون صاغتها الرأسمالية وفق مبادئها وقيمها الاجتماعية .

قبل هذا العصر عرف الأوروبيون الصين عن طريق شخص واحد هو ماركو بولو الذي ساح في هذه البلاد في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر . ولم ينقل عن الصين ما يتعدى وضعها السياسي تحت الحكم المغولي ، وقد عاش في ظله ، وأوصاف لبعض المدن الكبرى .

في العصور الإسلامية كانت الصين موضوع علاقة تجارية تمثلت فيها أسس البناء السلمي للتجارة العالمية التي توزعت يوم ذاك بين العالمين الصيني والإسلامي ، وعرف المسلمون من خلال هذه العلاقة المديدة والمتواصلة لأكثر من ست قرون ، فنون الصين وصناعاتها ،ولم يتوغلوا أبعد ليعرفوا فلسفتها أو ليدرسوا سياسياتها كما فعلوا مع

فلسفة الإغريق وسياسيات الساسانيين . وقد اندمج العديد من المسلمين عرباً وتركاً وفرساً في المجتمع الصيني ودخلوا في خدمة الدولة في وقت مبكر من تدفقهم على الصين في العصر العباسي الأول . وشاركوا في الامتحانات الامبراطورية التي تسبق الدخول في هذه الخدمة ، وقد توظف الكثير منهم بعد نجاحهم في هذه الامتحانات . وكان موضوع الامتحانات في المقام الأول هو المأثورات الكونفوشية . ومع ذلك ، ويا للغرابة ، لم يحدث إلتفات إلى مذهب كونفشيوس ليتعرف عليه المسلمون عن طريق مداينيهم المتصينين إذ ذاك . ويتعذر عليّ تفسير هذا الوضع الغريب حيث بقي الفكر الإسلامي يتحدث عن فلسفة الإغريق وحكمة الهند وصنعة الصين وسياسيات فارس ، ولم يرد على بال مثقف مسلم أن يسأل عما قد يكون وراء فنون الصين وصناعاتها من معرفة عقلية .

مهما يكن ، فما عرفه المسلمون عن حضارة الصين يزيد على المعروف منها لدى الناس في الماضي . كما أن ما نقله ابن بطوطة عن الصين يتفوق على أوصاف ماركو بولو ، الذي استعسر عليه إلتقاط الأساسيات الحضارية لبلاد لم يكن يملك الاستعداد المسبق للتعامل معها على هذا المستوى بسبب قدومه من بيئة متخلفة ؛ مما تلمسه كراتشكوفسكي في «تاريخ الأدب الجغرافي العربي - فصل ابن بطوطة» .

وكان ابن بطوطة آخر مسلم يسيح في الصين إذ جاءها والحضارة الإسلامية تلج في سمّ الخياط .

حين تأهبت للرحيل إلى الصين بمعونة صديقي الشيخ جلال الحنفي البغدادي لم يكن في حسابات سفري أن أجدد ذكرى ابن بطوطة . إذ كان الغرض أن أغادر بلدي فراراً من الاضطهاد إلى بلد آمن . وحيث استقر بي المقام ، بدأت تتكشف لي معالم حضارة مجهولة عندي كما هي عند بقية الأحفاد المنقطعين عن ابن بطوطة ، ممن استهلكتهم معرفتهم للجار الأوروبي فذهلتهم عن أنفسهم . وكان اكتشافي حذراً متهجساً لأن الصين لا تفتح نفسها للأجنبي : شنشنة قديمة فاقمتها كليانية الشيوعية الماوية المستقاة في منحاها السياسي من السوفييت . . وكان اضطراري إلى الاشتغال لكسب الرزق يأخذ مني مواعيد اللقاء مع الصين ، فلا يبقى منها غير الهنيهات . وربما حسدتُ ابن بطوطة ، الذي جاء سفيراً من ملك الهند إلى ملك الصين بينما جئت هارباً من ملوكنا أحمل سفارة

الوطن والأمة التي ترفع الحصانة الدبلوماسية عن حاملها . وأحمد الله على أي حال انه لم يكن هروباً كهروب ابن هبّار من البصرة ساعة دخلها الزنج وأخرجوا منها التجار .

كان الأول الذي ملأ هنيهاتي بالمعنى هو المناضل الأممي اسرائيل ابشتاين ، وكان قد دخل الصين في السنة الثانية من عمره ولازمها حتى هذه السنة ، التي يكمل فيها عامه السادس والسبعين . وكان من فضله علي أن نبهني إلى الفلسفة الصينية وهداني إلى مصادرها المكتوبة بالإنجليزي فاقبلت عليها حتى استوفيت الإطلاع على الخطوط العامة للمدارس الفلسفية . ثم شرعت أتدخل في شؤون أهل الصين مخترقاً محرماتهم لكي أتعرفهم عن كثب ، بعد أن أمضيت بينهم حتى كتابة هذه الأسطر ست سنوات . وفي هذا الكتاب أودعت الخلاصة مما عرفته عن ماضي الصين ، وهو الذي يعنيني أولاً ما دامت الصين من البلدان التي ماضيها أعظم من حاضرها . . وقد سميته «المستطرف الصيني» إذ هو من نفس طراز «المستطرف الجديد» الذي تضمن الخلاصة مما عرفته عن ماضينا صادراً فيه عن نفس الاعتبار ، أعني عظمة ماضي العرب وتفاهة حاضرهم . والمستطرفان برغم ذلك مكرسان للحاضر . ففي «المستطرف الجديد» أردت مزاحمة حسين مروة – رائدي الأكبر – في سيرورة إنهاض تحتاجها أمة غافلة بتنبيهها إلى إرثها الحضاري ، الذي كان سيعصمها من الذل لو لم تنقطع عنه . وفي «المستطرف الصيني» أريد من العرب أن يعرفوا من ثقافة الشرق ما يعادل معرفتهم بثقافة الغرب محدواً بالأمل في أنهم سيعيدون إكتشاف أنفسهم ليس فقط من خلال تراثهم بل وأيضاً من خلال الثقافة الشرقية التي هي من نسيجهم نفسه . وليس في الكتاب ما يستهدف خدمة الصين لكونها أنعمت علي بالأمن والحياة بعد أن تعذرا في وطني العربي ، لأني لست من أهل الإعلام ، والغاية من المستطرف الصيني هو القارىء العربي ، المأخوذ غربياً ، والفاقد لجذوره الإنسانية لحساب إنسانوية نامية في تربة السمكرة الخالصة ، فهو أحوج ما يكون إلى ارتياد منابع حكمة تتجوهر فيها ماهيته المضطربة في هذا العالم الموحش .

سيجد القراء أن أوسم أبواب الكتاب هو باب الفلسفة . وليس هذا لأني ولجتها أكثر من أبواب الصين الأخرى بل لأني وجدت فيها حياة الحكمة الشرقية التي يتمناها بعض المنوّرين في الغرب وتستعصي عليهم . وقرائنا في حاجة إلى باب الرحمة والحنان

البشري مع حق الدفاع عن النفس في وجه الثروة والقوة بعدما عانوا ما يزيد عن الكفاية من قهر الحكام وتسلط الأقوياء . . والحكمة الصينية هي ما يؤلف مع التصوف القطباني في الإسلام فرعين متكاملين للحس الإنساني يستريح إليهما المتعوب فيما يجهدان به كلاً بوسائله الخاصة لرعرعة شخصية إنسانية حرة تتمسك بازدراء ما يتمتع به الأقوياء وحكامهم من وسائل التسلط . وهما في ذلك مسكونان بالهاجس البشري القديم ، هاجس إخراج الناس من ورطات الذل والفقر وتمليكهم ما يستغنون به عن التعب والكد ، مما لا يتم - وقد صادرا عليه - دون إخراج الذهب واليشب من قصور الأباطرة إلى بيوت الناس .

ويضم المستطرف الصيني عدا هذا ثلاث أبواب خصص أحدها لإضاءة جوانب من تاريخ الصين وحياتها الاجتماعية ولغتها وأديانها ومنجزاتها الكبرى في التكنولوجيا والصناعة ، والأخر للآداب ، والأخير لتاريخ التبادل الثقافي بين الحضارتين الصينية والإسلامية .

بَيْجينغ (خان بالق) ١٩٩٢ م ١٤١٢ هـ

هادي العلوي

الباب الأول

معطيات جغرفة وتارخة

١ - البلاد

مساحة الصين الحالية تناهز عشر ملايين كيلو متر مربع أي بقدر مساحة قارة أوروبا. وقد زادت ونقصت عبر التاريخ قبل أن تكتمل عناصرها الجغرافية في مستقرها الحديث. ويجري فيها قرابة خمسة آلاف نهر ونهير وقناة ينبع معظمها من داخل حدودها ويصب في داخل حدودها. وأنهارها تجري غالباً من الغرب إلى الشرق. وتتنوع مناخاتها جداً فتكون الحرارة الشتوية في كانتون عشرين فوق الصفر وفي هاربين عشرين تحت الصفر. وبينما يزدهر الربيع في كانتون تكون هاربين نائمة تحت الجليد. وتتميز الصين مثل سائر بلدان آسيا وأفريقيا بعدم انتظام أمطارها وتعاقب سنوات الهطول والجفاف بحيث تمنع من الاعتماد الكامل على الزراعة المطرية خلافاً لقارة أوروبا. وهذا هو المائز الضخم الذي حكم تطور آسيا بإخضاعه لحتمية الدولة المركزية التي تتولى شؤون الري ومعالجة مشكلات الجفاف والفيضان. وكانت هذه من المهام المبكرة التي نهض بها حكام الصين في الأزمنة الغابرة كما دار حولها الأدب الشعبي الذي إتخذ شخصياته من العظماء الذين

روضوا الفيضان وخزّنوا المياه وهم بين شخصيات خرافية وشبه خرافية وتأريخية.

٢ - الناس :

ينتمي الصينيون إلى الرس المونغولي، وهو أحد الرسوس الثلاثة الكبرى للنوع البشري. بالإضافة إلى: الأسود (الزنجي) والأوراسي. وقد سموا بإسم العرق الأصفر فتوَهم الناس أنهم صُفر الوجوه. وحقيقة الحال أن ارتباطهم بالصفرة يأتي من تقليد البلاط الصيني الذي كان اللون الأصفر غالب على أزيائه الرسمية. وهو ما عرفه العرب قديماً فقال كشاجم - القرن الرابع الهجري - يصف البطيخ:

وزائر زار وقد تعطرا أسرّ شهدا وأذاع عنبرا
ملتحفاً للصين ثوباً أصفرا

أما النهر الأصفر فسمي بذلك لكثرة ما يحمله من الغرين. وسألت عالم الاجتماع فَيْ شياو تونغ عن هذه التسمية فأنكرها وقال إن لون الصينيين يميل إلى السمرة، وهذا ما تأكد لي شخصياً من معايشتي للقوم.

ويتصف الصيني باستطالة العين وضيق الحدقة. وكثيراً ما تختفي عيناه إذا قهقه. لكن العين الصينية تتكشف عن بهاء إذا اتسعت قليلاً. والأنف صغير ليس أقنى ولا أفطس. والأسنان غير متراصة عند أغلبهم. ولا تتميز بالنضد الذي تغنى به الشعراء العرب. وشعر البدن خفيف يكون في الجسد أشبه بالزغب. ولحية الصيني عثنون مش لحية. لكن شعر الرأس كثيف ومسبوط. والصيني مش قصير خلافاً للإنطباع السائد.

نفوس الصين تجاوزت المليار نسمة. وكانوا في أسرة الهان ستين مليون منهم ست ملايين في المدن والباقي في الأرياف. وكانت نفوس العرب في ذلك الحين أقل من خمسة ملايين.

٣ - اللغة :

تنتمي اللغة الصينية إلى عائلة اللغات الصينو - تبتية التي تضم فرعين رائسين: صينو - سيامي وتبتو - بورمي. والفرع الأول يضم الصينية ولغة التاي. وتنتشر هذه اللغات في البقاع الممتدة ما بين شمال الصين وجنوب الهملايا وما بين بورما وفيتنام. وهي من اللغات المُعرقة. وقد تكون الصينية أعرقها إذ يرجع مكتوبها الى ثلاثة آلاف سنة. وبوجه عام تندرج هذه العائلة اللغوية في القائمة المثلثة للغات الثقافية، التي تشمل إلى جانبها كل من عائلة اللغات السامية - الحامية واللغات الهندوروبية.

تتألف اللغة الصينية من مقاطع قصيرة تدل على المعنى بنفسها أو تتحد مع غيرها لإيجاد معنى جديد. والغالب أن يتحد مقطعين والأقل من ثلاثة. وهي تركيبية خالصة ولا تقبل التصريف بتاتاً. وتتميز أزمنة الفعل بمقاطع تضاف إلى المضارع فتعطيه دلالة الماضي أو الأمر أو الدائم من دون أن يوقع ذلك تغيير في بنية الفعل كما هو الحال في اللغات السامية أو الهند - أوروبية. مثلاً الفعل الدال على الأكل: «تشي» يكون هكذا في صيغة المضارع، فإذا أُريد الماضي أُضيف إليه المقطع «لا» فيكون: «تشي لا» وإذا أُريد الأمر يضاف المقطع «با» فيكون «تشي با». وللفعل عدا ذلك لواحق أو بواديء كثيرة معقدة تجاري المعنى الدقيق المطلوب لكل حالة. أما الاسم فغالباً ما يكون مركب من مقطعين في المصطلحات ولغة السمكرة (التكنولوجيا)، كما هو الحال في اللغات التركيبية التي تستند إلى النحت والتركيب كاللغات الأوروبية، ولو ان هذه اللغات تعتمد أيضاً على الاشتقاق والصرف لإيجاد مثل هذه المفردات إلا أن الغالب عليها هو النحت والتركيب بخلاف اللغات السامية لا سيما العربية ذات الأساس الصرفي الاشتقاقي. أما الصينية فلا يصلح فيها غير النحت والتركيب. وقد توفرت للصينيين فائدة كبرى من هذه الميزة التي هي

بمثابة قيد لكنها أعطتهم فسحة في توليد المفردات الجديدة لا تتوفر لغير الصينية من اللغات التركيبية أو الاشتقاقية. ولو حسبنا إمكانات الاتحاد بين المقاطع على الطريقة التي حسب بها الخليل الفراهيدي إمكانات الصرف في الجذور العربية لتجاوزت المليون وحدة مركبة. وطريقة الفراهيدي تقوم على تقليب حروف الجذر الواحد على النحو التالي:

بحر، حبر، ربح، برح، رحب، حرب،

أو:

ذهب، هذب، بذه، هبذ، بهذ، ذبه.

ومن كل صيغة من هذه تشتق مفردات حسب نسق الصرف العربي فيكون الممكن من عدد مفردات العربية أزيد من مليون ونصف. لكن الحاصل يقل عن عشر هذا الرقم لأن الصيغ الناتجة عن هذه المتواليات ليست كلها ذات معنى مثل ذبه وبذه.

أما الصينية فإن المفردات المتولدة عن اتحاد المقاطع تستحمل المعنى من جهة أن كل مقطع له معنى في الأصل حيث يمكن توليد معنى جديد من معاني المقاطع المتركب منها المصطلح. وهذا بخلاف الصيغ الفراهيدية، ما لم يتوسع العرب فيلجأوا الى خلق مفردات من الصيغ العديمة المعنى بإكسابها معاني مرتجلة تلبي المطلوبات المستجدة في العصر الحاضر. وهذا لن يتم في الزمن القريب حيث العرب عاجزون، وممنوعون أيضاً، عن استثمار ثرواتهم الحاصلة فكيف باستثمار ما هو فوق - ثروة وفي مجال يتوسم بالجمود كالمجال اللغوي.

لم يمنع قدم اللغة الصينية أهل الصين من جعلها تستوعب مراحل متعاقبة من نموهم الثقافي. وفي وقت مبكر يرجع إلى أواسط الألف الأخير ق - م خدمت الصينية تطور الفكر الفلسفي حيث تمكن الفلاسفة الصينيون من إيجاد لغة فلسفية عالية الكفاءة عبّروا بها عن المعاني الدقيقة التي يشتغل البحث الفلسفي في مدارها. ولغة الفلسفة هي أشد مناحي اللغة تعقيداً وأكثرها بالتالي استعصاءً على اللغات. وعندما توفق لغة ما في الوفاء بمطالب الفكر العالية فهي تبرهن على

إمكانات التطور الكامنة فيها مع قدرة أهلها على استثمار هذه الإمكانات. وفي الوقت الحاضر تستوفي اللغة الصينية فروع المعرفة العصرية في جملتها الساحقة: حيث تدْرس العلوم وتدرَّس بها وحدها، وحيث ترجمت إليها جميع منجزات العصر الحديث في هذه الحقول. ويلاحظ هنا أن القاموس الصيني لا يضم الكثير من المفردات الدخيلة خلافاً للقواميس الأخرى. وذلك لأن اللغة الصينية لا تساعد على التصيين بسبب طبيعتها المقطعية. فمثلاً، نحن نتلفظ كلمة تلفزيون ونكتبها بحروفنا العربية دون اشكالات. بينما يتعذر ذلك على الصينيين، فيضعون لها مقابل صيني يتضمن معناها فيقولون: «ديان شي» يعني: الرؤية بالكهرباء. وإنما يمكن التصيين في مفردات قليلة تأتي في الأصل على نسق المقاطع الصينية. مثال ذلك SOFA – أريكة، كنبة (أو قنفة) أُخذت بحرفيتها لوجود مقطعين ملائمين للفظها وكتابتها وهما: «سو» و «فا». وقد بلغ القاموس الصيني الحديث قرابة ثلاثمائة وخمسين ألف مفردة ليس فيها من الدخيل إلا هذه الأمثلة القليلة.

في اللغة الصينية فعل كينونة (وجود رابطي كما يسميه مناطقتنا) هو «ش» يدخل على الجملة الإسمية في نفس النسق المعروف في اللغات الهندوربية (عدا الفارسية التي تضعه في آخر الجملة) أي أنه يتوسط المسند والمسند إليه. وفيها أدوات تعوض عن الصرف في صوغ المصطلحات، مثل «تجويي» للدلالة على المذهب فيقال: «شي خوي تجويي» أي اشتراكية. واللاحقة خوا لما يقوم مقام أفعلة وتفعيل عندنا فيقال: «تجونغ خوا» ويراد به: تصيين.

وتخلو الصينية من أداة التعريف. ولعل لذلك صلة بإيغالها في القدم إذ أن أداة التعريف تنضاف الى اللغة في تطور لاحق غالباً ما تحل فيه لغة مكان أخرى من نفس العائلة، بينما الصين لم تشهد مثل هذا الانتقال لعدم تعرضها للإستيطان. (سكان الصين اليوم هم نفسهم سكانها قبل ثلاثة آلاف سنة!).

كما أن الصينية فقيرة في صيغ الجموع، فهناك فقط اللاحقة «مين»

تنضاف إلى المفرد فتجمعه. مثلاً: خاي زه (طفل) إذا أرادوا جمعها قالوا خاي زه مين. ويختص ذلك بالعاقل. ويفهم المراد بالجمع في غيره من السياق.

وليس في الصينية تأنيث وتذكير إلا في الضمائر، وفي الكتابة فقط. فالضمير الدال على المؤنث هي وهن لا يظهر في اللفظ متميزاً عن هو وهم وإنما يتميز عند القراءة فقط.

وهذه من عناصر الضعف في اللغات وتكون في الغالب من نتائج الأصل البدائي للغة.

الصينية من اللغات الكبرى سواء من جهة عدد الناطقين بها: قرابة المليار إنسان أو من جهة مساحة انتشارها: قرابة العشرة ملايين كيلو متر مربع. وفي لغة كهذه لا بد أن تتعدد اللهجات وتتباين بدرجات متفاوتة. ومع هذا التعدد اللهجوي كان على الدوام تباين بين لغتي الكتابة والكلام. وترجع الصيغة الراهنة للغة الكتابة إلى القرن الثالث عشر حيث نشأت لغة البُوتُونخوا بالاستناد إلى لهجة نموذجية منطوقة في الشمال، ولو من دون أن تتطابق معها. على أننا نجد في جوار هذه اللهجة التي يسميها اللغويون لهجة بكين، بشيء من عدم الدقة، لهجات الجنوب وأميزها لهجة كوانتشو (كانتون). وتتقارب لغة الكتابة مع هذه اللهجات وتتباعد بقدر ما يختار الكاتب الابتعاد أو الاقتراب من الكلاسيكية الخالصة كما تبلورت في القرون الماضية، وقد جرى تهذيب البوتونخوا في غضون أواخر التاسع عشر وأوائل العشرين لتقترب أكثر من لهجة الشمال ولهجة بكين. وتضمّن هذا التهذيب تبديل المفردات الكلاسيكية الغريبة بمفردات متداولة، أو تبديل لفظ المفردة من الوزن الكلاسيكي إلى الوزن المتداول. ومن أمثلة الأول إهمال مفردات في قاموس القرون القبميلادية كما حدث لنا في إهمال مفردات من قاموس اللغة الجاهلية والعصر الإسلامي. ومن أمثلة الثاني أن يتغير نطق الكلمة فيستخدم النطق المتغير ويهمل النطق الأصلي. ويندرج ذلك في باب الأخطاء اللغوية التي يطاردها لغويونا وهي في الحقيقة باب تطور

طبيعي للغة. في الصيني مثلاً إذا كانت كلمة تلفظ في الكلاسيكي: شيونغ وفي المتداول: «شيانغ» فإن القاموس الحديث يأخذ اللفظ الأخير: شيانغ. ونظير هذا عندنا لفظ «تهمة» تكون في الفصحى القديمة مضمومة التاء مفتوحة الهاء وفي المتداول ساكنة الهاء. وقد تعودها الناس هكذا وصاروا يلفظونها ساكنة في الكلام والقراءة معاً. لكن اللغويين يصرّون على تخطئتها والعودة إلى اللفظ القديم مع ما فيه من سماجة وحذلقة.

لكن هذا الإصلاح اللغوي عند الصينيين يصطدم بعقبة اللهجات. إن البوتونخو سهلة على أهل الشمال عموماً ولكن في دائرة ضيقة. وكنت مرة في ضاحية من أعمال مدينة تيانجين التي تبعد عن بكين أقل من ميتين كيلو متر، وحضرت ندوة مع عدد من الأجانب وكان المتكلم من أهل تلك الضاحية فتعذر فهمه على مترجمنا من أهل بكين فأبدلوه بآخر يتقن البوتونخوا. والوضع يكون أعقد مع لهجات الجنوب. وقد تعامل لغويو العهد الاستعماري من الغربيين مع لهجة كانتون على أنها: لغة كانتونية يضعونها في مقابل اللغة الصينية، انسجاماً مع السياسة الاستعمارية الساعية إلى تجزئة الصين. وهم يستندون في ذلك إلى أساس متين. فالبون بين اللهجتين كبير جداً ويشمل البنية الأساسية للمفردات. مثلاً: اسم صون يات صن كما نلفظه نحن لا يلفظ هكذا في البوتونخوا لأن هذا هو لفظه في لهجة كانتون. أما في البوتونخوا فهو: سون كي شين. وهكذا: تشيانغ كاي شيك. يلفظ في البوتونخوا: جيانغ جيه شي.. واسم هونغ كونغ يكون في البوتونخوا: شيانغ كانغ. ومن أمثلة التفاوت الكبير في المفردات لفظ الشاي. هو في البوتونخوا: تشا وفي الجنوب: تيه. ومن الأولى أخذنا لفظنا للشاي. ومن الثانية أخذ الغربيون Tea. والشاي صيني المنبت واللغة. ويلاحظ من الأمثلة التي سقتها الآن اختلاف جوهري في بنية المفردة. ففي البوتونخوا تنتهي الكلمات بحرف علة دائماً ولا تقف إلا على حرف صائت واحد هو النون.

قارن: شيك – شي يات – كي. وهو السبب في أن الصينية لا تستوعب المفردة الأجنبية كما بيّنا إلا إذا كانت مقطعة على مقاطع معتلة الآخر. وكما قلت فقد أتاحت هذه الفروق الكبرى مع لهجة كانتون فرصة للغويين الاستعماريين لتسميتها لغة كانتون. والحقيقة أنها لا ترقى إلى أن تكون لغة لأنها متطورة في الدائرة العامة للغة الهان مثلما أن اللهجات العربية متطورة في الدائرة العامة للغة العرب. ولا يجد الكانتوني والجنوبي مشقة استثنائية في إتقان البوتونخوا كما يجدها في إتقان لغة أجنبية. والبوتونخوا الآن شائعة في جميع أنحاء الصين بعد أن جعلتها الثورة الصينية لغة الدواوين والثقافة والإعلام ومنعت استعمال اللهجات المحلية في هذه الأغراض. وبالطبع فالازدواج قائم مثلما هو عندنا. فالجنوبي يستمع إلى إذاعة بكين المركزية ويفهمها لكنه يتكلم مع أبناء مقاطعته بلهجته الخاصة به. وتصدر تعليمات مشددة عن وجوب استعمال البوتونخوا في التخاطب مع الطلاب في المدارس حيث النصوص مكتوبة بالبوتونخوا، لكن المدرسين يلجأون عفوياً إلى لهجاتهم عند الشرح والتعليق، كما هو الحال عندنا تماماً. والصراع بين المكتوب والمنطوق وكذلك بين اللهجات في اللغات الكبرى قد لا يتوقف وهو في الحقيقة يكون مصدر إغناء للغة بتعدد مصادر مفرداتها إذا أمكن حصره في نطاق معقول.

للغة الصينية كتابة خاصة بها بدأت تصويرية في غضون الألف الثاني ق – م ثم تطورت إلى رموز. ويختص كل لفظ برمز واحد كما تختص كل كلمة بصورة في الكتابة التصويرية. وقد نشأت مستقلة وتطورت مستقلة شأن الحضارة الصينية في العموم. وهي متأخرة عن الخط المسماري بأكثر من ألف عام. وكذلك عن الخط المصري الذي يسميه الغربيون «هيروغليفي» وتطورها من التصويرية الى الرموز يشبه تطور المسماري الذي تحول قبلها إلى مقاطع يختص كل مقطع بلفظة أو كلمة. وفشل الصينيون في إيجاد أبجدية كالتي أوجدها الساميون فيما

بعد فاستمروا يكتبون حتى اليوم بالرموز. وهذه من مفارقات التاريخ: أن تعجز مدنية عملاقة عن أبجدة كتابتها بينما يفعل ذلك من هم أدنى تمدناً. والمدنية الصينية لا تقارن بالمدنيات السامية فهي أرقى منها بما لا يقاس. على أني أعتقد أن سبب هام في هذا الفشل يرجع إلى طبيعة اللغة الصينية. إن كون الرموز الصينية متطابقة مع كل لفظة في اللغة يقتضي استمرار هذا التطابق في حالة الأبجدة. وهو غير متيسر إلى القدر المطلوب من الضبط والدقة. ذلك أن المفردات الصينية تتوزع على مجموعات متماثلة في اللفظ وإنما تتمايز بالحركات أو النغمات. والنغمات أربعة. لكن اللفظ الواحد من النغمة الواحدة يتوزع بدوره على عدة معاني. وفي حالة كتابتها بالحروف سيجد القارىء مشقة في تمييز معانيها إلا من السياق، لأنها تكتب عندئذ بنفس الحروف. بينما يكتب اللفظ في حالة الرموز برمز مستقل الدلالة عليه. مثلاً: شياو تعني: صغير، يضحك، يزيل، يبيع. لكن لكل من هذه المعاني رمز خاص به وضع ليس للّفظ وإنما لمعناه. أي أن الصينية تكتب المعنى كما تكتب اللفظ. وتساعد هذه الطريقة على انتظام التفكير والفهم في حين تؤدي الأبجدة في لغة كهذه إلى التباس وصعوبات استذهانية لا يستهان بها. ولا يُتوقع بالتالي أن تنجح محاولات لتننة الكتابة التي يختلف عليها الصينيون. ويحث عليها في الغالب دعاة الغربنة جرياً على الموضة الشائعة في عالم ملقوح بالحضارة الغربية. والمقدر أن يتوصل الصينيون إلى أبجدية مستقاة من نفس الرموز، كما فعل الكوريون. وقد قدمت مشروعات من هذا القبيل لم يتم تبني واحد منها بعد. وكانت قد وضعت خطة في عهد الجمهورية الشيوعية لتبسيط المقاطع باختزال ضربات المقطع إلى أدنى حد ممكن. وتم حتى الآن تبسيط الفين مقطع. وتأتي هذه الخطة كمقدمة للأبجدة المنشودة بالاستناد إلى المقاطع نفسها. وينبغي أن يوضع في الاعتبار أن أي مشكلة من مشاكل اللغات لا يمكن أن تجد لها حل مثالي يحسمها بالتمام ولكل لغة إشكالياتها والحل المثالي هو الحل الممكن ضمن أوضاع اللغة نفسها.

كيف يكتب الصينيون الأسماء الأجنبية ؟

كما بيّنا فإن كون المقاطع الصينية معتلة الآخر في أغلبيتها المطلقة يجعل تطبيقها على اللفظ الأجنبي، المؤبجد، عسير وغير ممكن على الأكثر. وهكذا لو أردنا كتابة اسم كارل ماركس بالصينية ليلفظ كما هو في الأصل لما وجدنا المقاطع التي تصلح لذلك ولا بد بالتالي من تقطيع الاسم إلى مقاطع معتلة يتطابق كل واحد منها مع مقطع صيني مناسب لأدائه. فيقال عندئذ:كا – إر – لا – ما – كو – سا .وقد اختزلوه فراراً من التطويل إلى:

ما – كو – سا مكتفين باللقب دون الاسم.

نادرة : حكى لي الأستاذ اسرائيل ابشتاين أن بعض الصينيين لما سمعوا بالاسم الذي يبدأ بالمقطع «ما» ونظروا إلى صورة ماركس تصوروه النبي محمد. وصاروا يسمونه بما يعني: محمد الكث اللحية. وهذا لأن «ما» هو أيضاً المقطع الأول من اسم محمد عندهم. وصورة ماركس بوجهه الأسمر المدور ولحيته الضخمة تشبه صورة حكيم عربي. ومن الجدير بالذكر أن تقطيع الاسم الأجنبي إلى مقطعين أو ثلاثة يحوله في نظر الصينيين إلى اسم محلي. والاسم الصيني، وهو ثلاثي في الغالب، يبدأ باللقب الذي يؤديه المقطع الأول كما في ماوتسي تونغ. فالمقطع ماو لقبه. وتسي تونغ هو اسمه. وهكذا يكون ما من ماكوسه هو اللقب. والاسم هو كوسه. وعلى هذا النحو استقر عندهم المقطع ما كإسم للنبي محمد ولذلك نجده شائع بين المسلمين الصينيين.

ويلجأ الصينيون في كتابة أسماء البلدان إلى طريقتين: الأولى تقطيعها على طريقتهم في الأسماء الشخصية. ففي سوريا يقولون: شو – لي – يا. وفي العراق: أي – لا – كو وفي المغرب: مو – لو – كو. والعرب عندهم: آ – لا – بو. وهكذا..

والثانية اختزالها بطريقتين، واحدة أن يؤخذ أبرز مقاطع الاسم وتصيّن، في مقطعين في الغالب. ومثاله الاتحاد السوفييتي يصبح: سو – ليان (سوفييت) والأردن: ي و – دان. والأخرى أن يؤخذ مقطع واحد،

غالباً ما يكون حرف واحد تُشبع حركته ليصبح مقطع ويُضاف إليه المقطع الصيني الدال على البلاد وهو: كوو. فيقال عن بريطانيا: ينغ – كوو، وعن فرنسا: فا – كوو، وعن أمريكا: مي – كوو.. وهكذا.

وفي الصينية قابلية شديدة على الاختزال في الأسماء. فإذا تحدثوا عن العلاقات السوفييتية الأمريكية أخذوا المقطع الأول للسوفييت. والمقطع الأول للأمريكان فقالوا: مي – سو. ويسمون جامعة بكين: بَي – دا، وأصلها: بي جينغ داشيوي. ويختزلون العراق وايران في مقطعين هما: ليانغ – يي، لأن المقطع يي هو المقطع الأول لكل من العراق وإيران وليانغ هو العدد ٢ فيكون معناه: مزدوج يي. أو الياءين، ويسمون الحرب بين البلدين: «حرب الياءين». ويتبعون الاختزال في تسمية اللغات. فاللغة الفرنسية فا – ون. والمقطع الأخير يدل على اللغة. والانجليزية ينغ – ون. والعربية آ – ون.

توجيه حول نطق الاسم الصيني المكتوب باللاتيني:

هذه مسألة يتورط فيها المترجمون وأهل الإعلام من صحفيين وإذاعيين. لقد اصطلح الصينيون على حروف لاتينية تؤدى بها أصوات لغتهم سموها: بِن – ين وهذه الحروف تستعمل في النصوص المترجمة عن الصينية بإحدى اللغات المكتوبة باللاتيني كما تستعمل في برقيات وكالات الأنباء. وفيما يلي تبيان لفظها وكتابتها:

الحرف C يلفظ: تس. مثلاً CAO يُعرَّب إلى: تساو وليس إلى كاو.

CH: يلفظ كما هو في الانجليزية، أي ما يسميه لغويونا: كشكشة (تش).

Q يلفظ على غرار السابق CH وليس كاف. مثلاً: Qing يُعرَّب إلى تشينغ وليس إلى كنغ. وبين الصوتين Q و CH فارق دقيق يعرفه الصيني فقط.

X: يلفظ شين مع إشمام سين. مثلاً: XIAO يكون شياو وليس اكسياو. وأفضل كتابته: شْسياو.

Z: يلفظ مع تاء خفيفة. مثلاً: ZEN يكون تزن وليس زن صافية.

ZH هذا صوت في غاية الصعوبة لأنه يجمع بين صوت الكشكشة (تش) وبين صوت الجيم المعطشة ولذلك يكتب أحياناً: تش وأحياناً ج ويصعب تحقيقه بالتمام على غير الصينيين. ولضبطه أكثر يمكن أن يكتب تج على شاكلة تش للكشكشة.

صوت الهاء يتداخل مع صوت الخاء. وكتابة اللفظ الواحد بكلا الحرفين ليس خطأً.

مفردات متبادلة في العربية والصينية :

كما أسلفت، لا تتسع الصينية للفظ الدخيل إلا في حدود ضيقة. وقد وقفت على مفردات عربية المخارج مقسمة على المقاطع يمكن أن يكون بعضها مقتبس من لسان العرب.

هناك الوادي بمعناه ولفظه العربيين وهو مصطلح أساسي في الجغرافيا الصينية مأخوذ بدون أي تحوير: وا - دي. والكلمة عربية المَحْتد ودخيلة في الصينية لأنها من أصل سامي وهي في القاموس العبري، ومن المستبعد أن تكون العبرية قد أخذتها عن الصينية. هناك أيضاً نبات الحلبة المعروف. وهو في الصينية: خو - لو - با. ومحتده عربي. وثمت الفعل: زولا بمعنى ذهب (زال). لكنه قد يكون من المصادفات، وهناك مضارعات له تتردد على لسانهم: مثل: خلا/ يمكن تصورها مختزلة من: خلاص أي انتهى. لكنها مؤلفة من مقطعين: خاو ويعني جيد، طيب، ولا أداة الفعل الماضي فلا علاقة لها بالخلاص العربية. ومثله هَيْ - با، يخاف، وان - لا، انتهى (ولّى).

لكن مسلمي الصين من قومية هوى، الهانية اللغة، يتداولون جملة مفردات عربية تربو على المئة والخمسين مما يمس أُمور الدين والثقافة الإسلامية. وتستعمل عندهم مصينة بالتمام أي موزعة على المقاطع المعتلة الآخر. مثل حرام يلفظونه: ها - لا - مو، «محتسب»: مو - ها - تاي - سي - بو، «المفتي» مو - فو - تي.... الخ. وثقافتهم الإسلامية في مدارها الأصغر تدور على أُمور الدين ولا يندرج فيها الفكر الفلسفي

والكلامي إلا في مؤلفات معدودات لبعض المتفلسفين منهم. وفي الصينية «ميمون» بنفس معناه العربي. ومحتده سامي من جذر يَمَن الذي استعير للبركة والسعادة بقرينة ما تمتعت به اليمن قديماً من الوفرة والخصب.

هناك مفردة مثيرة للانتباه هي: خاي - زه. معناها في البوتونخوا طفل. لكنها في لهجة كانتون تعني حذاء! وليس من صلة بين المعنيين وأنا أُرجح أن المعنى الكانتوني من أصل عربي مستنداً إلى التحليل التالي:

١ - نحذف الهمزة فيبقى لدينا حذا، والهمزة كثيراً ما تحذف في لغة الكلام العربية.
٢ - نقسم المتبقي بعد حذف الهمزة إلى مقطعين فيكون لدينا: حي + ذا.
٣ - نحوّل الحاء إلى خاء فيكون المقطع خي. ونحوّل ذا إلى زا لأن الصينية لا تحتوي على هذين الصوتين فتحولهما إلى ما يقاربهما من أصواتها، فيكون اللفظ: خي - زا. ويتحرف قليلاً فيصبح: خاي - زه.

وأنما حملني على هذا أن العرب استوطنوا كانتون في أواسط العصور الإسلامية وتشكلت منهم جالية تقارب المئة ألف بينها عدد من الفرس والأتراك لكن العربية تجمعهم كلهم. وقد عاشت هذه الجالية عدة قرون ثم اندمجت في المجتمع الصيني وفقدت هويتها العربية دون أن تتخلى عن الإسلام، وينبغي أن يكون قد تسربت كلمات عربية بهذا الطريق إلى لهجة كانتون، وأتوقع لدراسة متأنية أن تكشف المزيد من هذه الكلمات في اللهجة المذكورة.

في المقابل يحتوي القاموس العربي، المنطوق والمكتوب، على مفردات صينية الأصل أستعرض ما وقفت عليه منها فيما يلي:

جندي: وهي في الصينية من مقطعين: جون - دوي /الواو من

دوي خفيفة لا تكاد تظهر في النطق أما واو المقطع الأول فهو أقرب إلى الضمة. والكلمة صينية بلا شك لأن مقابل الجندي في اللغات السامية «صباء» والجيش: حيل أما الجيش في العربية فاشتقاق من الفعل جاش يجيش بقرينة التجمهر والتحشد للحركة التي يتصف بها الحيل. فهي صفة تطورت إلى اسم.

يوان وتطلق في الصينية على المحل والمبنى وهي نفس كلمة إيوان المعربة عن الفارسية ولعل الفارسية أخذتها من الصينية.

مي اسم الفتاة المعروف منذ الجاهلية. وهو صيني الأصل يعني الجمال ويسمي به الصينيون بناتهم أيضاً. ولفظه العربي كلفظه الصيني تماماً. وأفترض أن الاسم وصل إلى العرب مع التجار الصينيين القادمين الى العربيا وامتداداتها الشامية العراقية في طريق الحديد البحري أو البري.

شاخة يستعملها العراقيون للساقية التي تأخذ من الجدول دون الساقية الآخذة مباشرة من النهر. والكلمة صينية تتألف من مقطعين: شياو بمعنى صغير، وخه بمعنى نهر، أي النهر الصغير؟

تشوله يطلقها العراقيون على البرية. وفي تنويمة طفل تغني الأم بدعاء فيه من القسوة ما اشتهرت به الشخصية العراقية منذ العصر العثماني:

دلّلول يا وليـــدي دلّلول . عـدوك عليك وساكن التشول

والكلمة في الصينية تعني الخارج. ولو أنها في الكردية أيضاً. ولا سبيل إلى تقرير أيهما الأصل.

تِمّن كسر التاء وفتح الميم المشددة وهو الرز في اللهجة العراقية. وفي الصينية: «تامي» والعلاقة واضحة بين اللفظين. وأخبرني المستعرب المسلم رضوان ليو أنها معروفة بلفظها (العراقي) في جزيرة هاينان جنوب الصين. وهذه الجزيرة كانت تبلغها سفن العرب وتجارهم. وفيها مسلمون صينيون وأنا أُثبت ذلك على عُهدة المستعرب المذكور إذ لم يتهيأ لي السفر إلى تلك الجزيرة النائية. ولا أقول ذلك تشكيكاً في علمه

وصدقه فهو رجل يجمع بين العلم والصدق وإنما الخشية من التباس الحقائق في الذاكرة أو السهو في النقل والسماع.

أوظة، غرفة، في عامية بلاد الشام. وفي العراق أودة بالدال-من الصينية: أوتزه دخلت عاميتنا عن طريق التركية وهو بتوسط الويغورية.

تشالغي عراقية بمعنى الغناء. من الصينية تشانغه، بتوسط التركية، يلفظها العراقيون بالغين واللام مبدلة من النون.

دان قنبلة. وردت في لهجات العراق وبلاد الشام. وانسحبت من التداول في الجيل الحالي. والكلمة صينية بنفس اللفظ والمعنى، ومتداولة في البوتونخوا. ويشير دخولها في هذه اللهجات إلى وصول المدفعية من الصين إلى العالم العربي في غضون السابع الهجري. ولم تسجلها القواميس التي أغفلت المفردات العامية والمولدة.

دوندرمة: البوظة. الحليب المجمّد. في لهجة مصر والعراق. مؤلفة من دونغ: فعل صيني بمعنى يتجمد. ودرمة لاحقة ويغورية تفيد التدوير. ومثلها: شاورمة للحم المشوي المقصوص دوائر، وأصلها: تشاورمة. فالمعنى الحرفي الدوندرمة: الثلج المدور. وفيه إشعار بالشكل الذي كانت تعمل عليه البوظة وهو التدوير حول العود. والدوندرمة اختراع صيني. وقد أخذته الويغورية بالمعنى لا بالحرف. لأن البوظة بالصيني: بينغ كون. وتعني عود الثلج.

دخلت الكلمة إلى العربية بتوسط التركية.

شينكو وفي اللهجة العراقية: تشينكو. مؤلف من مقطعين: تشين وهي الصين. وكو وتعني الصفيحة. فالمعنى: صفيحة صينية. وهي صنف من الصفائح المتينة يكون أغلظ من الصفائح العادية الرقاق. ويبدو أنها كانت تأتي من الصين. ولا أدري إن كانت هي الحديد الصيني الذي يرد كثيراً في النصوص العربية القديمة وتعمل منه خواتم رخيصة يلبسها الزهاد.

٤ - تأرخة

تاريخ الصين مدوّن كله في مؤلفات تحمل اسم السجلات التاريخية. والرائد في هذا المضمار سيما تشيان (٩٠ ق م) المعتبر أبو التاريخ في الصين. وقد ألّف مجلداً ضخماً اختصه بهذا الاسم أرّخ فيه للصين منذ الألف الثالث ق م حيث يرد ذكر الامبراطور هوانغ دي، وهو الأب الخرافي للدولة الصينية حتى الامبراطور التأريخي وو دي من أسرة الهان. ونسج اللاحقون على منوال المؤرخ الأول. وكان تاريخ كل أسرة منقضية يسجل في الأسرة اللاحقة من جانب مؤرخين يستخدمون أرشيفات الأسرة المؤرخ لها. ولأهل الصين منذ فجر دولتهم عناية بالأرشفة. وعليها اعتماد سجلاتهم التاريخية. وكان العرب قد أخذوا بهذه الطريقة أيضاً منذ الأمويين. وقد اعتمد المؤرخون الإسلاميون على أرشيفات الخلفاء الأمويين والعباسيين كواحدة من مصادر التأرخة. ولعل أهل الصين والإسلام أكثر الأمم القديمة عناية بهذا الجانب من حضارتهم. وقد وصلتنا تواريخ الحضارتين شبه كاملة بفضل هذه العناية.

- سلسلة الدول الصينية :

مملكة شيا: لم يكشف تاريخها بعد وإنما وردت في الأساطير والأسمار وتمتد ما بين ٢٠٠٠ ق م و١٥٢٠ ق م.

مملكة شانغ: ما بين ١٥٢٠ و١٠٣٠ ق م. وبها يبدأ التاريخ المعروف للأسرات الصينية ويندرج عصرها في الأمد البرونزي. وشهدت تطور الزراعة والثروة الحيوانية وصناعة الحرير. وظهرت فيها أشكال بدائية من الكتابة.

أسرة تشو وتبدأ حقبتها المبكرة مع ١٠٣٠ ق م وتنتهي عام ٧٢٢ ق م. وهي المعروفة بـ تشو الغربية.

ثم تأتي أسرة تشو الشرقية التي تتداخل مع حقبتي.

الربيع والخريف (تشو تشيو) ٧٠٠ - ٤٧٦ ق م.

الممالك المتحاربة (تشان كوو) ٤٧٥ - ٢٢١ ق م.

أسرة تشين ٢٢١ إلى ٢٠٧ ق م. وهي أول أسرة يشمل حكمها جميع أنحاء الصين وتقترن لذلك بالتوحيد الأول للبلاد الصينية. ومدة حكمها قصيرة لا تزيد على أربعة عشر سنة. لكن التوحيد استمر بعدها من خلال أسرة الهان التالية:

أسرة الهان الغربية ٢٠٦ ق م - ٢٤ م. وتخلله في أخره انقطاع دام ما بين ٩ إلى ٢٣ م.

أسرة الهان الشرقية ٢٥ - ٢٢٠ م.

الممالك الثلاثة (التجزئة الأولى بعد التوحيد الأول):

مملكة شو ٢٢١ - ٢٦٤ م.

مملكة وَيْ ٢٢٠ - ٢٦٤ م.

ملكة وو ٢٢٠ - ٢٨٠ م.

أسرة جين (التوحيد الثاني):

الغربية ٢٦٥ - ٣١٧ م.

الشرقية ٣١٧ - ٤٢٠ م.

الأسرات الشمالية والجنوبية - نان بَيٍ تشاو - (التجزئة الثانية بعد التوحيد الثاني): ٤٢٠ - ٥٨٩.

أسرة سُوي (التوحيد الثالث) ٥٨١ - ٦١٨.

أسرة تانغ ٦١٨ - ٩٠٦ وتبدأ بها المعاصرة بين الحضارتين الصينية والإسلامية.

الأسر الخمسة - وو تاي - (التجزئة الثالثة بعد التوحيد الثالث) وتضم خمس أسر متزامنة ممن حكم في السابق. وتمتد من ٩٠٧ إلى ٩٦٠.

أسرة سونغ (التوحيد الرابع):

الشمالية ٩٦٠ - ١١٢٦.

الجنوبية ١١٢٧ - ١٢٧٩.

وتتخللها دويلات قامت في أماكن معينة من الصين، ويستمر

التوحيد بعدها حتى العصر الحاضر من خلال الدول الآتية:

أسرة يوان ١٢٦٠ - ١٣٦٨ وهي أسرة قوبلاي خان المغولية. وكان هذا الفرع من سلالة جنكيز خان قد غزا الصين وأسس هذه الأسرة التي شمل حكمها جميع أنحاء إمبراطورية سونغ والممالك الخمسة. وتوحيدها أنجز مما سبق على يد الأسر الأخرى.

أسرة مينغ ١٣٦٨ - ١٦٤٤.

أسرة تشينغ ١٦٤٤ - ١٩١١.

الجمهورية البرجوازية الأولى ١٩١٢ - ١٩٤٩.

الجمهورية الشيوعية ١٩٤٩ - ١٩٧٩.

الجمهورية البرجوازية الثانية ١٩٧٩.

وتعرضت الصين للتفكك بعيد الجمهورية البرجوازية الأولى على يد أمراء الحرب من دون أن تصل إلى التجزئة ثم عادت إليها الوحدة بعد نجاح الثورة الماوية عام ١٩٤٩.

- الأباطرة

نظراً لاتساع مساحة الصين يتلقب حاكمها بالامبراطور. وهو بالصيني هُوانغدي ويرتبط الإصطلاح بمفهوم الكائن الأعلى. ومن ألقاب الامبراطور ابن السماء (تيان زه). وترجم إلى الفارسية القديمة: بغ بور واستعمله العرب للدلالة على ملك الصين فقالوا: بغبور وفغفور. ومن شعر رسالة الغفران على لسان الجني أبو هجرس يتحدث عن مغامراته:

قد كنتُ ألف من أتراب قرطبةٍ   خَوْداً وبالصين أخرى بنتَ بغبورا

ويغلب لقب هو أن دي على حكام الأسرات لا سيما التي شمل حكمها جميع الصين أو أجزاء كبيرة منها. أما حكام الدويلات فتسموا بالملك (وانغ).

والحكم فردي. ولم تعرف الصين المجالس التي يمثل فيها النبلاء أو

شيوخ العشائر أو من يملك صفة مندوبية عن قطاعات نافذة في المجتمع كما كان الحال عند السومريين واليمنيين القدماء. كذلك لم تعرف الحكم المقيد بالقانون من طراز حكم الخلفاء الراشدين القصير في تاريخنا. لكن روح المشاعية الصينية وتنظيرها المتواصل في أوساط الفلاسفة ترك بعض التأثير على الأباطرة والملوك. ولذلك لم تتفاقم كثيراً نزعة الطغيان الدموي التي استشرت لدى الحكام الفرديين في شتى العصور ومن شتى الأمم. وقد وجد طغاة دمويون من الأباطرة والملوك أمثال الامبراطور الأول تشين شي هوانغ لكنهم كانوا أقل عدداً من المتسامحين أو الطغاة العاديين. ويتمتع بدلالة الشاهد هنا سياسة الشيوعيين الصينيين التي اتسمت بتسامح عجيب مع أعدائهم الطبقيين إبان حربي التحرير والسلطة الشيوعية. ومما يضخم أهمية الدلالة أن الشيوعية الصينية سلكت درب الحرب الأهلية فلم تكن حركة برلمانية أو سياسية خالصة. وفي مضمار الحرب لم يتقبل القادة الشيوعيون أي مساومة على السلاح. يضاف إلى ذلك ان الحركة الشيوعية في الصين نشطت كجزء من الأممية الستالينية التي سلكت طريق القمع الدموي في السلطة.

وكان القادة الصينيون ينظرون الى الاتحاد السوفيتي كمرجع رفعه ماوتسي تونغ إلى مستوى الضرورة للجنس البشري. وانخرطوا في تأليه ستالين مع سائر أطراف الحركة الشيوعية في العالم على عهدهم. لكن هذا لم يمنع ماوتسي تونغ من نقد ستالين واتهامه بالميتافيزيقية. وكان يقصد بها حدية الولاءات عند ستالين مع ما يترتب عليها من قتل اعتباطي ليس فقط للاعداء الطبقيين بل وأيضاً للمختلف معهم من الشيوعيين أنفسهم. ومن هنا، وفي حين خاض الشيوعيون الصينيون حروب دامية على امتداد ربع قرن، فلم يقيموا سلطة دموية في أماكن سيطرتهم، وبعد إقامة جمهوريتهم الشيوعية. وكانوا يصلحون الأسرى من قوات الكومنتانغ ولا يقتلوهم. وتعففوا عن الإعدامات الاعتباطية ضد أركان الحكومة السابقة وتشددوا في منع التعذيب. وامتد تسامحهم إلى الامبراطور وقواد الجيش الحكومي فاكتفوا باعتقالهم وإصلاحهم في

السجون. وفي هذه التجربة يتبين منحى الحكومة الصينية التي تماهت في الحب والقلبية الإنسانية. ويلاحظ مع ذلك أنها تمثلت في سلوك الشيوعيين دون حكومة الكومنتانغ المدعومة من الغرب، فهنا كانت الفاشية الدموية أسلوب التعامل الوحيد مع الخصوم. وكان حكم الكومنتانغ بزعامة تشيانغ كاي شيك من طراز الفاشيات الأوربية التي أشعلت الحرب العالمية الثانية. وقد حظيت سياسته بدعم مطلق من الدول الغربية التي كانت تحارب ألمانيا واليابان بوصفهما دولتين فاشيتين.

- الإدارة

يستعين الامبراطور بعدد من الأعوان التنفيذيين من مرتبة الوزراء. ويتصدر الوزراء وزير اكبر يختص بالامبراطور ويكون الواسطة بينه وبين الوزراء. وتقابل وظيفة الوزير الأكبر وظيفة الحاجب في نظام الأندلس الذي تشكل من وزراء اختصاصيين يتقدمهم وزير أكبر هو الحاجب ويكون الواسطة بينهم وبين الخليفة أو الملك الأندلسي. ويقابل وظيفة الوزير الاختصاصي وظيفة صاحب الديوان في الحكومة العباسية.

واعتمد الحكم على جهاز بيروقراطي ضخم، وكان الموظفون يعيّنون من الفئات الحاكمة والمتنفذة والارستقراطية، وتنتقل الكثير من المناصب بالوراثة إلا ان الكونفوشية، التي صارت المذهب الرسمي للدولة، تبنت مبدأ الكفاءة. وعلى هذا الأساس فرض الكنافشة ولو في وقت متأخر نسبياً الامتحانات كأسلوب لاختيار الموظفين الأكفاء للمناصب المختلفة عاليها ودانيها. وشكل نظام الامتحانات ضربة للوراثة الأرستقراطية وصار بمقدور أي مواطن يخوض الامتحانات وينجح فيها أن يحصل على وظيفة تناسب مؤهلاته.

إن نظام الامتحانات من مآثر الحضارة الصينية، وقد تميزت به عن الحضارات القديمة التي لم تعرف مثل هذا التنظيم المتطور للإدارة. سوى أن الحضارة الإسلامية اشترطت المؤهلات الثقافية للموظف دون إخضاعه لامتحان رسمي، وإنما ترك ذلك، لمجرى العمل في الدواوين. وقد انعقدت عليه مؤلفات المسلمين في الإدارة والدهائيات والتي وجت لاحقاً في الموسوعات الضخمة المكرسة للثقافة الإدارية ومنها «صبح الأعشى» و «نهاية الإرب».

في عصر متأخر صار نظام الامتحانات جامد وتقليدي. وكان من أهداف المعارضة في أسرة تشينغ. وقد ألغته جمهورية صون يات صون لكنها لم تضع له بديل. أما جمهورية ماو فاتخذت الحزبية معيار للكفاءة. وكان ذلك ملائم لمرحلة البناء الاشتراكي الذي حظي بدعم جماهيري واسع النطاق، مما منع الحزبية أن تكون قيد على الكفاءة لأن الحزب الشيوعي الصيني حتى بداية الثورة الثقافية لم يتصف بخصائص الحزب الحاكم بسبب جماهيريته الواسعة آنذاك.

في إدارة البلاد وجد تقسيم مبكر إلى مقاطعات تضم ولايات ومحافظات. وكانت الإدارة تنضبط في أوقات الاستقرار السياسي وتنفلت مع تدهور الأسرة القائمة، وأظهر بعض الأباطرة اهتمام بأوضاع الرعايا اليومية يشبه ما هو معروف عن عمر بن الخطاب. وقد أقام امبراطور تانغ الثاني تاي تزونغ، المعاصر لأوائل العباسيين، نظام تفتيش متقن لهذا الغرض فقسم البلاد إلى عشر دارات جعلها نقاط تفتيش على الولاة والمسؤولين ومتابعة شكاوى الناس ضد الإدارة. ويقف هذا التوجه وراء الانطباع السائد في أوساط المؤلفين المسلمين عن عدالة ملوك الصين.

- معالم من تاريخ الأسرات :

أسرة تجوو (باللفظ الجامع بين الجيم المعطشة وجيم الكشكشة ومد الواو) تعتبرها الثورة الثقافية أسرة العبودية الناضجة، وتجوو في الحقيقة أولى الأسرات الأساسية في تاريخ الصين. وكان اقتصادها يقوم على المشاعيات الفلاحية كما سنشرحها في البند التالي. وترك ذلك ذكريات لم تنمحي من قلوب حكماء الصين بدءاً من لاوتسه. وشهدت حقبة تجوو كذلك نمو الإنتاج الزراعي وتقدم صناعة النبيذ. وفي تجوو الشرقية وما تداخل معها وتلاها من حقبة الربيع والخريف والدويلات المتحارية تطور صهر الحديد وصنعت منه الأدوات الزراعية. واستخدمت الثيران للحراثة للمرة الأولى.

أسرة تشين – من أكثر الأسرات بطشاً وفاشية، تبنت الفلسفة الشرائعية فخاضت في دماء الصينيين. ولذلك لم تدم أكثر من خمسة عشر سنة. وفي عهدها توحدت لغة الكتابة لتأخذ تطورها اللاحق كلغة ثقافة إلى جانب اللهجات المحكية. وشهدت المواصلات تطوراً في وسائلها وطرقها – وفيها أيضاً أُكمل بناء السور العظيم أو بدئ به تبعاً لاختلاف الروايات ونتائج البحوث الآثارية.

أسرة الهان – بنيت فيها مشاريع ري كبرى، وشهدت تقدم الصناعات الحرفية كالخزف، مع نمو الانتاج الزراعي والحيواني، واستمرار تقدم المواصلات والتوسع في بناء الجسور وشق القنوات للري والملاحة. وظهرت مدن جديدة. لكن أهم وأخطر منجزاتها على الإطلاق هو اختراع الورق. واشتهر اثنان من اباطرتها بالاشتغال الشخصي بالثقافة وهما مُنغ دي وتشانغ دي. الأول هو ثاني اباطرة الأسرة تخصص في المأثورات الكونفوشية وألقى عنها محاضرة اشتهرت في التاريخ حضرها مئة ألف مستمع وعقدت في الأكاديمية الامبراطورية عام ٩٥ للميلاد. وهذا الرقم لمستمعي المحاضرة غير معقول فلعل الأصل كان ألفاً أو نحوه فضخّمه الرواة.

أما الثاني فهو ثالث الأباطرة وقد تخصص في نفس الحقل وجمع علماء عصره كلهم في قاعة النمر الأبيض عام ٧٩ م لمناقشة الكتب الكونفوشية الخمسة. وساهم معهم في المناقشة كواحد منهم، وجمع وقائع الندوة في مجلد بعنوان: باي هُوُ تانغ يي – مداولات قاعة النمر الأبيض. ويذكرنا هذا الامبراطور الصيني بالمأمون الذي كان يجمع العلماء في قصره للمناقشة في الفلسفة والأدب وعلم الكلام وقضايا الملل.

أسرة سُوي – بدأ في عهدها حفر القنوات الكبرى من الجنوب إلى الشمال مثل قناة هانغ تشو – بيجينغ وطولها ١٧٩٤ كيلو متر. ولا تزال سالكة.

الدويلات الثلاثة – استحداث طرائق جديدة متقدمة في صهر الحديد وإنتاج الفولاذ. وفيها بدأ التأليف في فنون الإنتاج الزراعي والصناعي.

أسرة تانغ – من أزهى عصور الحضارة الصينية. وفيها ظهر أعاظم شعراء الصين: لي باي، دوفو، وباي جي وي، وفيها أيضاً اخترعت الطباعة. وتوطدت التجارة مع غرب آسيا والعالم الإسلامي لتأخذ مداها العالمي للمرة الأولى.

أسرة سونغ – ازدهرت فيها الطباعة بعد اختراعها في أسرة تانغ. وظهرت فيها الطباعة بالأحرف المتحركة.

٥ – التقويم الصيني :

ترّخ الصينيون بحكم الملوك والأباطرة، فإذا أرادوا ذكر سنة وقع فيها حدث ما قالوا في سنة كذا من حكم الامبراطور فلان. ورأيت في مخطوطات عربية ببكين مكتوبة من قبل مسلمين صينيين أنها كتبت في السنة الفلانية من حكم الامبراطور الفلاني... وترجع هذه المخطوطات إلى القرن الثامن عشر. وليس لأهل الصين تقويم متواصل كالتقويم

الذي يرجع إيجاده لأول مرة إلى العبرانيين ثم طور من طرف المسيحية بالتقويم الميلادي والإسلام بالتقويم الهجري. لكن الصينيين يمكنهم حساب المدة المنقضية على حدث معين، وكذلك حساب العمر، بالاستناد إلى ما يسمى نظام غان جي. وبحسب هذا النظام توزع السنين على اثني عشر حيوان تسمى كل سنة بواحد منها وتعطى رمزاً من عشر رموز يتعين بموجبه رقم السنة. ويتشكل من الرمزين دورة كبرى تستمر ستين سنة. أما الحيوانات فهي: الجرذ، الثور، النمر، الأرنب، التنين، الحية، الحصان، الخروف، القرد، الديك، الكلب، والخنزير. (السنة التي بدأ بها تأليف هذا المستطرف وهي ١٩٩١ هي سنة الخروف. وأُكمل في سنة القرد الحالية ١٩٩٢).

وعرف الصينيون مبدأ السنة المنقسمة إلى اثني عشر شهراً. إلا أن الأشهر ليس لها أسماء عندهم وإنما تعرف بأرقام تضاف إلى لفظ شهر في الصينية فيقال مثلاً: سان يو للشهر الثالث أي آذار (سان، ثلاثة، يو شهر). ولم يعرفوا الأسبوع إلا بعد اتصالهم بالمسلمين وقد تم ذلك في أسرة سونغ. وقد بدأوا به من يوم الجمعة جرياً على التقويم الإسلامي، وسميت الجمعة «لي بايي» من الفعل لبى. ثم عمم الاسم على الأسبوع جرياً على عادة المسلمين في تعميم اسم الجمعة على الأسبوع. ثم تغير نسق الأسبوع الصيني في العصر الحديث مع الاتصال بالغربيين. وتبنت جمهورية صون يات صن عطلة الأحد. ولم يكن لأهل الصين قبلها عطلة أسبوع. وسمي الأحد: يوم الأسبوع (شين تشي تيان) وسمي الأسبوع شين تشي حرفياً: (زمان النجوم). وأيام الأسبوع كأيام الشهر أرقام تنضاف إلى اسم الأسبوع. وكان ذلك من الاقتباسات الجليلة التي أخذتها الحضارة الصينية من الساميين مبدعي نظام الأسبوع والعطلة الأسبوعية التي سماها البابليون يوم نوح لبي أي يوم راحة قلبي.

أشير هنا إلى أن تسمية السنين بالحيوانات معروف في تراثنا الشعبي، وكان العراقيون يقولون عن عيد نوروز، المسمى عندهم دورة السنة: دارت السنة على حية، أو أرنب...

السنة الصينية قمرية ولكن مكبوسة لتطابق السنة الشمسية، اللازمة للزراعة. وتبدأ في الغالب ما بين كانون الثاني وشباط. ورأس السنة يسمى عيد الربيع (تشون جيبه) وإن كان يأتي في الحقيقة أيام الجليد لا سيما في الوسط والشمال. وهو العيد الأكبر في الصين وعموم الشرق الأقصى.

٦- الأديان :

المذهب السائد في عموم الصين هو الكونفوشية وهي ليست ديانة بل تعاليم أخلاقية لكنها تدينت نوعاً ما بالطقوس التي ألزم بها كونفوشيوس اتباعه وباحترام الأسلاف الذي صار بمثابة العبادة . ووصلت البوذية الى الصين وترسخت فيها حتى بلغت معابدها الأربعين الفاً . وهذا العدد يضم مطارح القوميات الأخرى من غير الهانيين . ولم تصبح البوذية دين صيني بالحد الطبيعي لها في الهند أو الهند الصينية او بورما لأن الصينيين لا يهضمون الأديان الأجنبية . وظلت الكونفوشية هي مذهب أهل الصين حتى في أوساط البوذيين المعتنقين ، الذين يتصرفون كأتباع لكونفشيوس أو حكماء الصين الآخرين اكثر مما لبوذا . كثيراً ما استمدت البوذية قدرتها على التبشير من بعض الأباطرة لأسباب سياسية في الغالب .

وظهرت التاوية كدين صيني محرف عن فلسفة التاو دعا إليه رد الفعل ضد الشعائر الكونفوشية المرهقة . لكنها أُثقلت بدورها بالخرافات وعبادة المخلوقات الخرافية . ومع أنها استمرت تعتبر كتاب التاو الأول كتابها المقدس فان فهمها له لم يكن ليختلف عن فهم الكنيسة الأوربية لأناجيل المسيح الأربعة بتركيبها المشاعي المعادي للتملك والتسلط . ومن

خصائص الأديان ان كتبها المقدسة تقرأ للتبرك والعبادة قراءة تعبّد لا قراءة تفهم . وعجزت التاوية عن منافسة الكونفوشية فلم تنتشر على نطاق واسع رغم أن أتباعها نشطوا في نشرها وتلقوا دعماً من بعض الأباطرة، حتى بلغت معابدهم في أنحاء الصين قرابة العشرين الف ، على أن التاوية (الدين) لعبت في الحقبة المغولية دور الدين الوطني المؤطر للكفاح ضد المحتلين الأجانب . كما تصرفت في بعض الأوقات بطريقة أثارت توجس الأباطرة ، وذلك من خلال اعتمادها العرافة ، التي يمكن أن تستخدم – كما يقول نيدهام – لطرح نبوءات عن سقوط الدول .

ووصل الاسلام الى الصين في وقت مبكر يرجع الى أواسط الأمويين ، لكنه لم يجد مهتدين صينيين شأن سائر الأديان الأجنبية ، أما المسلمون الصينيون فهم ليسوا صينيين في الأصل وإنما رجال من العرب والترك والفرس تزوجوا من صينيات فصار لهم أولاد مسلمون وتشكلت بهذه الطريقة قومية هوي المسلمة ، ولأبناء هذه القومية ملامح مشتركة صينية – عربية أو تركية أو فارسية وإن كان الغالب عليهم السحنة الصينية . ولغتهم هي لغة الهان . فهم ليسوا قومية بالمعنى المضبوط للقوميات وإنما حملوا هذا الوصف لتمايزهم في الديانة عن سائر الصينيين . وهي تشير من بعيد الى اعتبارهم أجانب في عيون مواطنيهم وقد اضطهدوا من جانب الشعب والدولة على السواء . وسماهم مواطنوهم هوي زه للتحقير (يستخدم المقطع زه كأداة تصغير في الصينية) . لكن انتماءهم الى الصين لم يتزعزع . وهم في النهاية صينيون كونفوشيون بقدر ما – أو أكثر مما – هم محمديون ، ولعل هذا هو السبب في أن القوى الامبريالية التي غزت وحكمت الصين منذ أواسط التاسع عشر لم تستطع استغلال الوضع الاضطهادي لهؤلاء المسلمين لاستدراجهم الى التعاون معها . وقد انضمت عناصر فاعلة منهم الى جيش ماوتسي تونغ وساهمت في حربي التحرير . وهو السر في الوضع الجيد الذي نعموا به في الجمهورية الشيوعية التي أسست لهم الجوامع وأعطتهم الحرية الكاملة في مزاولة النشاط الديني .

الأديان الأخرى فشلت بدورها في استصباء صينيين . حاولت المسيحية مرتين ولم تفلح ، وكذلك فعلت المانوية ، ولو أنها كانت أوفر حظاً من المسيحية إذ اعتنقها بعض الصينيين واتخذت كمذهب رسمي لانتفاضة فلاحية اندلعت عام ١١٢٠ بقيادة فانغ لا الذي أقام دولة قصيرة العمر أعان فيها الفقراء وجهز أبناء السبيل بالطعام والمأوى . فهي في تصينها هذا لم تخدم كدين بل كأديولوجيا لحركة اجتماسية . وجربت المسيحية للمرة الثالثة مع الغزو الغربي فاعتنقتها فئات قليلة من البرجوازية الناشئة ، لم يزد عددهم حتى طلوع الجمهورية الشيوعية على المليون تخلى معظمهم عن دينه بعد ذلك ، ولم ينصروا أولادهم وقد التقيت بأفراد آبائهم مسيحيين وهم ليسوا كذلك ، وعادت المسيحية للمرة الرابعة في حكومة دنغ شياونغ . ومعظم المهتدين في هذه المرحلة فعلوا ذلك للحصول على امتيازات من الغرب . على أن اليسوعية وجدت لها مكانة هامة في حركة التايبنغ السماوية ، وهي ثورة مشاعية نهضت في أواخر أسرة تشينغ وتبنت مشاعية الأناجيل التي وجدتها متطابقة مع الإرث المشاعي الصيني من دون أن يترتب عليها علاقة كنسية .

ووجد يهود ممن «جاؤوا مع المسلمين في أسرة سونغ» وكان لهم حضور في بعض ولايات الجنوب لاسيما مقاطعة كايغونغ . وقد تصينوا شأن المسلمين وصينوا أسماء أنبيائهم فسموا ابراهيم لوهان ، وهو اسم بوذا الصيني أيضاً ؟ ثم اندمجوا في المجتمع الصيني متخلين عن يهوديتهم في الحكم الشيوعي .

يجدر بالذكر أن الصين لم تعرف الاله في صورته السامية ، وليس في اللغة الصينية مفردة دالة على الرب بالقطع ، هناك كلمة شن (بفتح الشين) ويختلط فيها مفهوم الاله والملاك ، ويقابلها كوي وهو الشيطان ، وهناك امبراطور يحكم السماء يسمى شانغ دي لا علاقة له بإمبراطورية الأرض ، وتعني الكلمة : الامبراطور الأعلى ، ولما وصلت المسيحية لم يطلق شن على ربها وانما ترجم إلى : تيانجو ويعني رئيس السماء «وشانغ دي» واختلف المتنصرون الصينيون حول ذلك اختلافاً أدى الى

اقتتالهم في شوارع العاصمة . أما رب المسلمين فسمي في أسرة تانغ تيان شن ثم عدل إلى تشن -تجو ومعناه رئيس المسلمين !

٧ - الحياة الاجتماعية

العائلة هي الوحدة الأساسية للمجتمع الصيني . وكانت تخضع لنظام ابوي صارم قننه كونفوشيوس على أساس السلب المطلق من جانب المرأة - زوجة ، أخت ، ابنة ، وأم .. والزواج الضرائري مباح . والعلاقة بين الجنسين منظمة بالقواعد التقليدية ومنها الزواج المرتب . والعذرة مطلوبة . ولا يتزوج الصيني من امراة أزيلت بكارتها بدون زواج . ولذلك تأخذ راقصات الباليه ولاعبات الجمباز وما في حكمه شهادات خاصة توضح طبيعة عملهن الذي يؤدي أحياناً الى زوال البكارة بفعل الجهد المفرط المسلط على هذا الجزء من بدن الراقصة واللاعبة . والى جانب هذه التحفظات ، كان الفجور شائع ، وتفاقم تحت النفوذ الامبريالي الغربي حتى وصل البغاء الى ذروة لم يصلها في أي بلد آخر. لكن العائلة لم تتفكك وبقيت مضبوطة بالقواعد الكونفوشيسة. بيد اني وقعت على نص غريب ينسبه المبشر الفرنسي ويغر الى مونغ تسه (مينشيوس) حكيم الكونفوشيسة الثاني يقول فيه إن الزنا بالفتاة خطيئة كبرى لأنه من الغير مناسب أن يكون لها ولد . والخيانة الزوجية أقل خطيئة لأن من الأقل ملائمة أن يكون للمرأة ولد من غير زوجها مادام الولد على كل حال سينسب الى زوجها إذا انحفظ السر . والفجور هين إذا كانت المظاهر مستورة . أما اللواط فلا يمكن اعتباره خطيئة لأنه يعزز العلاقة الخامسة - الأصدقاء المصاحبون - فهو مناسب . وقد فتشت عن هذا التعليم في كتاب منشيوس فلم أجده . وأنا أميل الى الشك في صحة نقل المؤلف الفرنسي وهو كما قلت مبشر وقد أظهر في كتابه عداء للثقافة الصينية على طريقة المستشرقين لاسيما الأكثر تعصباً

من المرتبطين بالأوساط الدينية والامبريالية. ولم يكن الغرض من كتابه خدمة الفكر الصيني وانما التشنيع عليه واظهار خوائه كما يتبين للقارئ من كلمة الختام . ويمكن أن يكون قد اطلع على تعليم ينسب الى منشيوس يتضمن بعض آرائه في قضايا الجنس فأساء قراءته، أو تعمد تشويهه . واساءة قراءة النصوص الصينية الغابرة نقيصة مشتركة بين المتصينين الغربيين لصعوبة هذه النصوص واختلاط مداليل مصطلحاتها على غير الصيني .

في الجمهورية الشيوعية تغيرت العائلة الى النظام الوحداني – زوجة واحدة لزوج واحد – والغيت العلاقة الأبوية فتكافأ الزوجين في الحقوق والواجبات ومنها الواجبات المنزلية : حيث يتناوب الزوج والزوجة على تدبير المنزل – لكل واحد يوم . وفقد الرجل جميع صلاحياته القديمة فلم يعد سيداً في منزله ، ولكن من دون انفراط عقد العائلة الذي استمر متيناً بانضباط المرأة الشيوعي . وكان يبدو كما لو أن المرأة الصينية تدربت لمدة طويلة على ممارسة السيادة فسرعان ما نزلت الى المجتمع لتساهم في معظم الأشغال التي كانت موقوفة على الرجل بما فيها أشغال تحتاج الى جهد عضلي أو قدرة كافية على التركيز والانتباه . وفي الفنون الأخف جهداً كانت النسبة الأكبر للمرأة . ومن ذلك الطب حيث يزيد عدد الطبيبات على عدد الأطباء . والخط الذي أخذه تحرير المرأة في الجمهورية الشيوعية يميل لصالح هذه المشاركة الكاملة في العمل . أما التحرر الجنسي فلم يعرفه الحكم الشيوعي . وقد ركز الشيوصينيون على القيم الأخلاقية الموروثة وأفلحوا في تطهير المجتمع الصيني من مفاسد ، موروثة بدورها ، أو مزروعة بالوجود الغربي . وكانت هذه القيم وهذه المفاسد تتجاور وتتعايش ، شأنها في أي مجتمع . ثم مالت الكفة لصالح القيم وانحسرت المفاسد تحت قوة الانضباط العالي في الجمهورية الشيوعية. وحافظ الشيوعيون على قيد البكارة مع إلغائهم الزواج المرتب . ومنعوا العلاقات المفتوحة بين الجنسين وان سمحوا بها شرط أن يقصد بها التمهيد للزواج . وقد

حضرت عام ١٩٧٨ محاكمة في بكين لشاب كان من بين التهم الموجهة له علاقة مع فتاة لم تكن بقصد الزواج .. على أن الكفة عادت تتأرجح بعد انقضاء الحكم الشيوعي ، الذي لم يعيش مدة تكفي لترسيخ القيم في الأجيال المتعاقبة .. وثمت أخطار جدية تتهدد المجتمع الصيني مع الاستمرار في الانفتاح على الغرب ، باقتصاده الربحي ، ونمط حياته البهيمي .

من القيود القديمة على المرأة عدم زواج الأرملة . وهي عندنا اليوم لكنها من نتاج العصر العباسي ، إذ كانت الأرملة في الجاهلية والعصر الاسلامي الأول تتزوج بدون قيود . وهناك نساء في صدر الاسلام تعاقب عليهن عدة رجال بالطلاق أو الموت وهن معدودات في الصحابيات أو التابعيات . والمرأة لا تختار زوجها . وهي في الاسلام تختاره . وإن تكن حرية الأرملة أوسع في ذلك من حرية البنت . والأميرة أو الارستقراطية لا تتزوج من عامي . وهي في الاسلام الشرعي تتزوج . وفي الأدب الصيني قصة عاطفية لأميرة ترملت صغيرة فتزوجت من الكاتب سيما تسيانغ رو (١٧٩ – ١١٧ق.م) من مشاهيرهم . وهربت معه الى مقاطعة بعيدة . وقد ندد بها الكنافشة . ودافع عنها في عصر متأخر لي تجي وهو كاتب معارض هاجم الذين هاجموا الأميرة التي خرقت خرقين ، الزواج وهي أرملة ، ومن رجل عامي . وزادت عليه انها عادت معه بعد ذلك الى موطنها ، وكان فقيراً ، ففتحت خمارة تولت فيها البيع بنفسها !

والحشمة ضعيفة عند الصينيين . ومن المشاهد المعتادة في الحارات أو الشوارع أن تجلس المرأة ، حين يكون الجو صيف، وقد كشفت عن ملابسها الداخلية دون تحفظ . ويتسعمل الفلاحون الصينيون مراحيض لاثنين يجلسان للتبرز فيها بوقت واحد . والفنادق الشعبية تحتوي على أسرّة كبيرة ينام فيها الرجال معاً . وبعض هذه العادات كانت عند العرب في الجاهلية فنهى عنها النبي محمد . لكن ماوتسي تونغ لم يوليها اهتمام .

يتوشح الفرد الصيني بالتعاطف العائلي حيث تسود المسئولية المتبادلة في العائلة بين الأبوين والأولاد . وبين الأولاد أنفسهم .

وبالتعاون الموروث ، الذي تتكرس فيه روح المشاعية الآسيوية ، بما يوفر أساس للدعم الاجتماعي يمنع الفرد من الضياع في خضم الحياة الشديدة التعقيد . وأكثر ما يظهر ذلك في حالات المرضى والشيخوخة .

وبروح الضيافة والكرم . وهي من المشترك في ربوع الشرق . لكنها في الصين أشد ظهوراً وتقف على مستوى واحد مع الكرم الكردي والعربي . والمأدبة الصينية فيها اسراف كالذي نجده في المآدب العربية والكردية . ويتفوق الصيني في القناعة ، تلك النزعة التي مكنت ماوتسي تونغ من اجراء تحويلات هائلة في البناء الاقتصادي أشك في امكانها عندنا بنفس الوتيرة. (مع اني أضع في الاعتبار ان البناء الذي بناه ماوتسي تونغ عادت فوائده على كل فرد في الصين/ ، مما لم تتهيأ تجربته عندنا للتأكد من مرتقبات التكامل المنشود بين الأفراد وسلطة بناء منتظرة).

والصيني يحترم الغرباء ويقضي حقوقهم . لكنه لم يتعود على محبتهم كما لو كانوا صينيين . وهناك شك في الغريب متأصل في الصين تعبر عنه عبارة : يان كوي زه وتعني الشيطان الأجنبي . ومن المعتاد للأجنبي أن يسمع هذه الكلمة أو أخرى أخف منها هي واي كوو رن وتعني أجنبي / دون وصف بالشيطان / في أي مكان يحل فيه . وأذكر أني كنت أتمشى مع زوجتي في شارع الأمن الدائم ، الذي يكثر فيه الأجانب ، مما يعني تعودهم عليهم . لكن امرأة أمامنا كانت تحمل طفلها وهو يبكي فلما أحست بنا قالت له لتسكته : واي كوو رن فالتفت إلينا وكف عن البكاء . وكان الطفل في حدود عامه الثاني ، مما يدل على انهم يستعملون الأجانب فزاعة لأطفالهم.

ويميل الصيني في المعدل الى السلم والموادعة . وطيلة اقامتي هناك لم يقع نظري على عركة . واذا تغاضب اثنان اكتفوا بتبادل كلمات الاحتجاج والغضب في شبه معاتبة . وقد تحدثت بيرل باك عن هذه

السـجـيـة فـي كـتـابـهـا MY SEVERAL WORLDSF وأوردت انـهـم يعتبرون الجندي في أدنى السلم الاجتماعي . وبيرل باك كاتبة امريكية عاشت في الصين أيام الجمهورية الأولى وألفت عنها روايتها الشهيرة الأرض الطيبة . وقد تغيرت النظرة الى الجندي في الحكم الشيوعي حيث نزعت الرتب العسكرية ولم يعد منظر العسكري يثير اشمئزاز المثقف أو خوف المواطن .. على أن ميل الصيني الى الموادعة لم يمنعه أن يكون مقاتل حقيقي في محتدم الصراع والمسألة قد تكون في الحقيقة سمة أخلاقية تترتب على الشجاعة وقد اشتملت ثورة الشيوعيين الصينيين كما بينا في سطور سالفة على تجربة مرموقة في هذا المقام حيث نجد الاصرار على حسم الصراع في سوح المعارك يقترن بالامتناع عن قتل الأسرى وتعذيب السجناء ، ثم الاتجاه الى الغاء عقوبة الاعدام لسبب سياسي بعد الوصول الى السلطة.. وهذا النهج هو مايشتمل عليه تاريخ علي بن أبي طالب في خلافته .

وللصينيين عوائد خاصة بهم في الأكل . وهم يأكلون بالعودين ولا يستعملون الشوكة أو الملعقة . ولحمهم المفضل هو الخنزير . ويأكل بعض الجنوبيين الكلاب والحمير والأفاعي. والدجاج شائع عندهم . وتنفرد بيجينغ ببطها المشوي الذي يذكّر العراقيين بالمزقوق . ويفضل أهل الشمال أكل الخبز على الرز ، والجنوبيون بالعكس . ولا يأكلون منتجات الألبان كالجبنة والزبدة والقشطة عدا الرائب المحلّى بالسكر . وطعامهم محلّى غالباً : يضيفون السكر الى السمك والخضار . وكانوا لا يشربون القهوة ثم تعودوا عليها في حكومة دنغ .ولا يعرفون الزيتون والتين والتمر . وانما عرفوا التمر العراقي الذي صدر إليهم بمقادير ضخمة في السنوات الأولى لثورة تموز ١٩٥٨ . وهم يسمونه : إلاله مي صاو (تمر العراق المعسل) ثم صاروا يعافونه وتوقفوا عن استيراده . ولا يسرف الصينيون في شرب الخمر والكحولية نادرة عندهم حتى سنة تأليف هذا الكتاب ١٩٩٢ . وخمرهم الوطني هو الماوتاي ودرجة تقطيره ٦٠ .

٨- السور العظيم (تجانغ تشن)

يرجع ارسانه الى القرن السابع ق.م حيث أقامت أسرة تجوو المتأخرة بعض التحصينات على الحدود الشمالية لصد غزوات القبائل الهمجية عن الداخل . وتبعتها الأسرات والممالك الأخرى فشيدت ما اقتضته حاجاتها الدفاعية . ثم وصل المتقطع منها امبراطور تشين الأول الذي جاء الى الحكم عام ٢٢١ ق.م . وهذه التزمينات غير وطيدة . وتتغاير حسب الدارسين والاكتشافات . ويقدر المنبني فعلاً من السور بازيد من الف وخمسمئة كيلومتر . وامتداده ستة الاف ، لأنه متقطع . وارتفاعه لا يزيد على ٤٢٤٢٤٢ بضعة أمتار . فهو يختلف عن الأسوار المعتادة للمدن المحصنة. وانما شيد فوق سلاسل الجبال للاستفادة من ارتفاعها الطبيعي لتشكيل حاجز منيع. ويتشكل السور من حائطين يتوسطهما طريق يتسع لمرور العساكر من رجالة أو خيالة . وينتهي كل جزء منه ببرج يقوم على قمة جبل . والجميع مبني بالحجر . وكان الغرض من إقامته حماية الداخل الصيني من هجمات القبائل الهمجية التي كانت مصدر الخطر الأراس على الدولة الصينية في العصور الغابرة والقديمة. وهذه القبائل هي المشار إليها باسم بأجوج ومأجوج في الأدبيات الاسلامية . ولم يطلقها المسلمون على أهل الصين خلافاً لبعض الأوهام الناتجة عن سوء القراءة . وقد اقترن ذكرها بالفساد في الأرض ، كما في النص القرآني وهو ما كانت تمثله القبائل المذكورة بالفعل ، بينما يرد ذكر الصين على السنة المسلمين ضمن مفهوم الأمم المتحضرة، كما سيأتي في الباب المكرس للعلاقات الصينية العربية القديمة .

لايزال السور قائم في معظم أجزائه وهو أطول سور بني حتى الآن، ولو أنه قد يكون ايضاً اقل الأسوار ارتفاعاً .. وذكر ابن بطوطة انه سأل عن السور لما وصل الى الصين فأخبروه أنه في مكان نائي لا يمكن الوصول اليه . وهو يبعد عن بيجينغ التي دخلها ابن بطوطة قرابة ٦٠ كيلومتر لكن موقعه كان في البرية ويشغله ناس بعيدون عن التحضر .

٩ - طريق الحرير (صي تجاو تجي لو)

فتح في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد . مع خلاف في تزميناته بين المؤرخين لعدم توفر روايات عن تدشينه في سنة معينة .

وبه ارتبطت الصين بالنواحي التي تقع الى الغرب منها وهو مسربها نحو العالم الغير شرق - اقصوي . وقبله كانت الصين على صلة فقط بمحيطها هذا الذي يشمل اليابان والهند الصينية .

يبدأ طريق الحرير من تشانغان وهي العاصمة الامبراطورية التي استمرت هكذا حتى استعصام بكين من طرف المغول في النصف الأول من الثالث عشر الميلادي ، وتسمى اليوم شي آن «أي الأمن الغربي» أما اسمها الأول فيعني : الأمن الدائم . وقد تعاصرت مدينة الأمن الدائم هذه مع مدينة السلام بغداد وكانت كلتاهما مركز عصرها الحضاري .

أولى محطاته مدينة لانتشو ثم وو ري ثم دون هوانغ . ومنها يتفرع الى شعبتين تذهب واحدة الى تو لو لان ثم الى مين فنغ ثم خوتيان وتنتهي الى كاشغر . أما الأخرى فتتجه الى تورفان ثم كوتشار ومنها الى كاشغر . ومن كاشغر يمضي درب الحرير في اتجاهين يصل الأول الى سمرقند والثاني الى بلخ . وهما من حواضر آسيا الوسطى . وكانت سمرقند في العصور الاسلامية من جنان الدنيا أما بلخ فكانت حاضرة الثقافة الهللينية في تلك الأصقاع ثم صارت من حواضر الثقافة الاسلامية . قال أبو الفتح البستي (ق٤هـ) يثني على سمرقند ويتهجم على بلخ :

للناس في اخراهم جنة	وجنة الدنيا سمرقند
يا من يساوي أرض بلخ بها	هل يستوي الحنظل والقند ؟

ويلتقي الفرعين في مدينة مرف فيكون آخر عهده بآسيا الوسطى لأنه يدخل بعدها في أراضي مايسمى اليوم ايران حيث يبلغ دامغان وهي من مشاهير المدن الفارسية . وينتهي الى مدينة فارسية كبيرة

اخرى هي همدان. ومنها يعبر حدود فارس الى العراق ، وكان قبل الاسلام يذهب الى مدينة الموصل في الشمال وهي موصلايا الآرامية . ثم أخذ يتجه الى بغداد بعد تمصيرها . ثم يستمر فيجتاز الأراضي السورية من تدمر . وكانت من محطاته الهامة . وينزل بعد ذلك الى صور ثم يصعد شمالاً الى انطاكيا . ومن انطاكيا الى آسيا الصغرى ، التي يعبرها الى اليونان ومنها الى ايطاليا وهي آخر محطاته حتى القرن الأول للميلاد لأن ما وراءها من اوروبا كان لايزال في حكم الخراب .

هناك طريق حرير آخر يجري في البحر فتح في عصر لاحق بعد أن توصل الصينيون الى بناء المواخر ، ربما في غضون السادس الميلادي . وكان يصل الى العراق عبر نهر الفرات كما سيأتي في الباب الأخير . وقد نشط طريق الحرير البحري مع اسرة تانغ وكانت السفن التي تمخره صينية . ثم أخذ المسلمون ببناء مواخرهم المسماة : قراقير . والمفرد قرقور . قال عبد الصمد بن المعذل (الثالث هـ) يهجو ابن أخيه ويتمنى لو ينفيه الى الصين :

لو قد يطاع الفتى المحزون في ابن أخٍ أصبحت في جوف قرقور الى الصين

١٠ - أهم حقائق التاريخ الاقتصادي

تداخلت في الصين ، كما في عموم آسيا ، ملكية الأراضي الفردية مع مظاهر الاقتصاد المشاعي ، مع ملكية الدولة الفعلية (الفعلية لأن الدولة تملك جميع الأراضي نظرياً).

وفي أسرة تجوو كانت هناك اقطاعات تنتقل بالوراثة ، لكن الغالب كان هو المشاعات الفلاحية المندرجة في نسق المربعات التسعة أو ماسمي منظومة البئر . وبمقتضاه تقسم كل قرية أو مساحة مزروعة الى تسع مربعات يسقى كل مربع منها ببئر واحدة . ويعطى كل مربع الى

عائلة تستثمره لحسابها الخاص دون أن تدفع عنه شيءً للدولة أو المالك.
أما حصة الدولة من القرية فهو المربع التاسع . ويستثمر بالتضافر من جانب العوائل الثمانية التي استلمت المربعات الثمانية الأولى . ويذهب محصول المربع التاسع بكامله الى الدولة. والمربعات متساوية المساحة . ويشترط على العائلة أن تستثمر مربعها بالمزروعات مع شيء من الانتاج الحيواني لضمان الطعام لأفرادها وعجائزها : يجري التأكيد دائماً على إطعام واكساء العجائز مما سنلمسه بقوة عند المسلمين في عهد الاشتر لعلي بن أبي طالب .

انحلت مشاعات البئر بعد أسرة تجوو وظهر الفلاحون الفرديون . وتعزز الاستثمار الفردي باصلاحات تانغ يانغ عام ٣٥٩ ق.م. لكن الشكل العائلي للاستثمار بقي سائد، إنما خارج شرعة المربعات القروية حيث ترتب على الفلاحين دفع الضرائب للدولة واداء خدمات سخرة . وقد اتجه اصلاح شانغ يانغ الى تعزيز الاقتصاد الزراعي وتقليص الاقتصاد التجاري . على أن المشاعات القروية استمرت بأشكال متفاوتة في أحقاب الربيع والخريف والدويلات المتحاربة من ٧٧٠ الى ٢٢١ ق.م.

عام ٢٢١ مع طلوع أسرة تشين وضع امبراطورها الأول نصب نقش عليه :

إن الأراضي في جميع جهات الأرض هي ملك للامبراطور .

وهذا تأكيد نظري لأصل الملكية في آسيا .. عملياً اعتمدت الزراعة في أسرة تشين وبعدها في أسرة الهان .. نظام العائلة حيث تستأثر كل عائلة فلاحية بحاكورة تزرعها لحسابها الخاص وتؤدي عنها الخراج الى الدولة . مع اشغال أخرى تضم الانتاج الحيواني والنسيج لتوفير حاجات العائلة من الطعام والثياب . وكان هناك الى جانب ملكيات العوائل ملكيات كبيرة ، اقطاعات ، وكان الفلاح مخير في العمل بحاكورته أو في أراضي المالك الكبير .

تمتع الملاك الارستقراط في أسرتي تشين والهان بنفوذ محلي ماكن ولكن بلا هيبة سياسية .وكذلك التجار الملاكون ، وهم التجار الذين

يحصلون على أراضي يستثمرونها الى جانب عملهم التجاري ، وكانوا وجهاء في أطرافهم ولكن منبوذين سياسياً من جانب الدولة .

الف جيا يي ، العالم الشاب من أسرة الهان والذي عاش مابين ٢٠٠ - ١٦٨ ق.م كتاب «نظرات سياسية جديدة» نظّر فيه إن الزراعة هي أساس الدولة وأن بوفرة الحبوب فقط يمكن للحرب الدفاعية أو الهجومية أن تتكلل بالنصر . وهذا هو المبدأ الذي مشى عليه البناء الاشتراكي في الصين الشيوعية حيث وضع ماو الزراعة كأساس والصناعة كعنصر قائد .

في أوان الممالك الثلاثة (٢٢٠ - ٢٨٠م) وزعت القيعان على الفلاحين لاستثمارها لحسابهم الخاص ودفع الخراج عنها للدولة . ويشمل الاستثمار مساحة لزرع التوت لأجل الحرير مع شجر الدردار وجوز الهند . نسبة الخراج نصف الحاصل لمن يستعمل ثيرانه للحراثة وست أعشار الحاصل لمن يستعمل ثيران الحكومة . مع سخرة ٢٤ يوم من السنة للدولة . وقد تعززت مكانة الفلاحين بهذا الاجراء ولو أنه لم يطبق حرفياً بسبب ضعف سلطة الدولة في ذلك الأوان الذي كان يعج بالاضطرابات والتقلبات . يندرج هذا النظام فيما يسميه المؤرخون الصينيون : «نظام المساواة في الأراضي» . وقد استمر معمولاً به في درجات متفاوتة طيلة العصور اللاحقة . ومن تفرعاته في الممالك والأسرات التالية :

عام ٤٨٥ م وزعت أسرة وي الشمالية الأراضي على الفلاحين من كلا الجنسين لإنماء الحبوب . على أن تئول الى الدولة بعد بلوغ الحائز السبعين من العمر . ويسمى هذا «نظام الحقل المفتوح (توتيان)» . ويضاف الى هذا الحقل مساحة تسمى «سانغ تيان» (حقل التوت) والغرض منها بستنة التوت والدردار وأشجار جوز الهند ، ويدفع الحائزون ايجار حقولهم من الحبوب والحرير عيناً .

عام ٦٢٤ وزعت أسرة تانغ ، وكان قد مضى على ظهورها ست سنوات فقط ، القيعان على الفلاحين من الجنسين وروعي في التوزيع

السن والحالة الصحية . وسمي الحقل الموزع هنا «كوو فن تيان» أي حقل الرأس الواحد. وهذا بدوره يئول الى الدولة ولكن بعد وفاة حائزه .

أما حقل سانغ تيان (حقل التوت) فصار يسمى «يه تيان» ويعني الحقل الدائم لأنه يبقى للورثة بعد موت الحائز . وكلا الحقلين يمكن بيعه خلافاً للحقول السابقة .

في هذه المنظومات وعلى الضد من حالات التبعية الاقطاعية ، يتوحد الايجار والضريبة فلا يدفع الفلاح هنا مايدفعه هناك ايجاراً للمالك وضريبة للدولة .

يلاحظ من هذه التباينات في منظومات الملكية حالة الصراع المستمر بين التقاليد المشاعية المتمثلة في نظام المساواة في الأراضي والملكية الاقطاعية . وهذه الأخيرة كانت تستند الى الدولة نفسها وتتمظهر في حالتين : الاقطاع من جانب حكومة أو أسرة جديدة لمن قدموا خدمات جليلة في معارك التأسيس . أو الاستيلاء من جانب المتنفذين في أوقات ضعف الحكومة . وفي كلتا الحالتين تبقى الملكية الاقطاعية خاضعة لقرار الدولة منحاً واسترجاعاً . والأخير يتوقف على قوة الحكومة . وفي كل الأحوال لم يحدث انفصال سياسي للاقطاعات من النمط الذي شهدته أوروبا العصور الوسطى وتحكم في مجمل تطورها في تلك العصور ومابعدها . وقد تقلبت أوضاع الفلاحين تبعاً لطبيعة الاسرات والممالك . وبلغت غاية السوء في أسرتي سونغ ويوان ، وهي الأسرة المغولية التي أسسها قوبلاي خان ، من أحفاد جنكيز خان . ففي هاتين الأسرتين كان الفلاحون المستأجرون يدفعون الايجار للمالك والخراج للدولة . أي انهم يدفعون ضريبتين .. بينما توحد الايجار والخراج في معظم الاسرات الأخرى التي تميزت بنزعتها العمرانية وخضعت ، بمستويات متفاوتة ، للتقاليد المشاعية في المجتمع الصيني والحضارة الصينية .

- معالم هامة من التاريخ الاقتصادي

كان الملاك الاقطاعي في أوقات التسلط ينتزع بنت الفلاح لتكون جارية له أو خادمة . واستمرت هذه الممارسة حتى أسرة تشينغ ، خاتمة الأسرات الامبراطورية ، فحرمتها وعاقبت عليها بالاعدام .

أصدر الامبراطور وو دي ، اسرة الهان الغربية /١٣٩-٨٧ ق.م / قرارات تضمنت : مضاعفة الضرائب على التجار والمرابين . والزام التجار بتقديم تقارير عن ممتلكاتهم . ومن يكون تقريره غير مضبوط تصادر أمواله ويرسل للخدمة في الحدود لمدة سنتين . . وبهذه الطريقة تم الاستيلاء على أموال ومقتنيات ضخمة للتجار .

قلت : هذه السياسة متوارثة في الامبراطوريات الشرقية . وقد تفاقمت في الطورين الاسلامي والصيني . وهي تشكل أحد أخطر الكوابح ضد التطور الراسمالي، الذي كانت حضارتا الاسلام والصين تحبل به مراراً لكنها تجهضه بفعل تدخل الدولة .

استعمل الصينيون في أسرة تانغ الحوالات المصرفية المسماة عندهم «في تشيان» وتعني النقود الطائرة . وهي بمقام السُفيحة في الاقتصاد الاسلامي .. وقد استعملت للمرة الأولى في عهد الامبراطور شيان تزونغ ، المعاصر للمأمون .

وظهرت النقود لأول مرة في أواخر أسرة شانغ (الحادي عشر ق.م) . وسكت حينذاك من البرونز . ولم تكن مستديرة بل ذات أشكال مختلفة مستطيلة ومربعة وعلى شكل السكين والمجرفة . وظهرت النقود الذهبية في حقبة الدويلات المتحاربة . لكن أهم انجاز في تاريخ النقود العالمي هو النقود الورقية التي اخترعت في أسرة سونغ الشمالية في القرن الحادي عشر مع اختراع الطباعة التي سهلت توفير أوراق نقدية عديدة النسخ . وقد رآها ابن بطوطة وسماها دراهم الكاغد .

١١ - اختراعات وأدوات انتاج

عرف الصينيون صهر الحديد منذ الألف الأول قبل الميلاد . وطوروه باستحداث المنفاخ المائي للايقاد .

ومع التوصل الى تعدين الحديد طوروا المحراث فصنعوه من أحد عشر جزء ويحتوي على لوح يتسع لكميات كبيرة من التراب لتسهيل التعمق في الحرث.

وصنعوا الفولاذ بصبه في قوالب الحديد وتبريده ببول الدواب لانتاج فولاذ أشد صلابة ومطاوعة ، وقد مهدت هذه التقنية التعدينية الجديدة لصنع الات اكثر تقدماً .

اختراع باذرة تحتوي على اداة لتغطية البذور بالتراب بعد البذار .

واوجدوا مضخات يدوية لرفع الماء من النهر ونواعير نصبوها على نهر اليانغتسي في اسرة تانغ . ويحتمل انهم اقتبسوها من نواعير الفرات لأن أسرة تانغ شهدت كثافة في الاتصالات بين الصين والعالم العربي .

واقتبس الصينيون اللحمة في النسيج من ايران في نفس عصر تانغ.

اختراع الورق من قبل الخصي تساي لونغ عام ١٠٥ م.

صنع الساعات والميقاتات المائية في عصر الدويلات المتحاربة (٤٧٥ - ٢٢١ق.م) واقدمها ساعة مائية ذات أربعة أوعية من النحاس تشتغل بارتفاع عصا خشبية بدفع الماء . وفي ٧٢٥ م اخترع بي سينغ وليانغ لينغ كرة نحاسية للايضاح عن الكواكب بقوة الماء . وتبين الكرة ساعات اليوم وعدد الأيام في الشهر . وركبت فيها دمية خشب تدق جرس يعلن عدد الساعات وارباعها .

ظهر بعد ذلك مرصد فلكي قامته ١٢ متر يعمل بالماء ايضاً وتخرج منه بعد كل ساعة دمية خشب من الطابق الأول فتدق الجرس على انغام تعزفها دمية أخرى في الطابق الأرضي . أما أرباع الساعة فتعلنها دمية

في الطابق الثاني . وفي الطوابق الأخرى دمى تدق الصنوج عند الشروق والغروب ومع حلول الليل . وفي المرصد ذراع يمتد فوق الدولاب المائي لتنظيم دورانه يشبه ذراع الساعة الحديثة .

ظهرت الطباعة لأول مرة في تانغ المتأخرة . وأول كتاب طبع هو السوترا الماسية .. من كتب البوذيين وذلك عام ٨٦٨ م . وكانت الطباعة الأولى على الخشب المحفور . وقد اقتبسها الهنود المسلمون والايرانيون في وقت متأخر يرجع الى القرن الثامن عشر فطبعوا الكتب الاسلامية على الحجر المحفور . وتغص مكتبات الهند وايران والعراق الشيعية بهذا الصنف من المطبوعات . ولم يقتبسها المسلمون في عصورهم رغم معرفتهم بها ، لأن تجارة النسخ كانت من القطاعات الحيوية في الاقتصاد الاسلامي ولم يكن من السهل تجاوزها بادخال الطباعة.. وقد استعمل الطبع لوضع المعلومات على البضاعة ، وفي الأندلس لاصدار نسخ متعددة للكتب والمراسيم الديوانية. وقد ورد وصف لآلة الطبع الأندلسية في مصادر تاريخ الأندلس .

الطباعة بالحروف المتحركة والتي نسبت الى غوتنبرخ الألماني عام ١٤٤٠ م مخترعها الحقيقي هو بي شنغ عام ١٠٤٨ م أي قبل أربعمئة سنة من تاريخها المزور في الغرب . وكان من أسرة سونغ الشمالية . وفيما يلي وصف لطريقته حسب استقصاء أجراه تلميذي النابغ ليو تشانغ تجينغ :

١ - عمل الحروف (المقاطع الصينية) :

المادة من الصلصال اللين . يقسم الصلصال إلى مضلعات متماثلة الحجوم ويحفر المقطع المطلوب في كل مضلع . ثم يشوى الصلصال حتى يتفخر . ويعمل من كل مقطع نسخ عديدة لاستعمالها في الطبعة الواحدة . وهذا للمقاطع التي تتكرر في كل طبعة .

٢ - تصنيف المقاطع :

ويتم ذلك حسب القافية (الصوت الأخير) . وهو التصنيف الذي اعتمده المعجميون العرب بدءاً من الخليل ثم غيره الزمُخشري الى

الحرف الأول . وتجمع المقاطع تبعاً لقوافيها في رفوف وتلصق عليها بطاقات لتسهيل الاهتداء اليها عند الحاجة .

٣ - تنضيد المقاطع للطبع :

يؤتى بلوح حديدي مؤطر ويكسى بمادة شحمية مركبة من الشمع ورماد الورق وصمغ الصنوبر . ثم تؤخذ المقاطع المطلوب طبعها وتصف في اللوح . بعد ذلك يوضع اللوح فوق نار هادئة حتى تذوب المادة الشحمية دون أن تسيل . ثم يضغط سطح المقاطع المصفوفة في اللوح بخشبة ملساء مستوية لكي تستوي رؤوس المقاطع . ثم يرفع اللوح عن النار ويترك ليبرد . ويعمل عادة أكثر من لوح واحد لنفس المقاطع لاستعمالها بالتناوب .

٤ - الطبع :تفرش سطوح الكلمات بالحبر . ثم توضع ورقة فوقها وتكبس بلوح مناسب فتنطبع عليها مقاطع اللوح بكاملها حيث يتم الحصول على صفحة مطبوعة وهكذا ... ويكون لكل صفحة لوح من هذا الطراز بعدد صفحات الكتاب المطلوب طبعه .

٥ - بعد الانتهاء من طبع النسخ المطلوبة للصفحة الواحدة . يوضع اللوح على نار شديدة حتى يتم تسييح المادة الشحمية تماماً . ثم تلتقط منه المقاطع وتعاد الى رفوفها .

استخدمت هذه الطريقة على نطاق واسع في الصين وطبعت بها أعداد ضخمة من الكتب يقدرها بعض المؤرخين بمئة وسبعين الف كتاب . وتضم مكتبات الصين أعداد كبيرة من هذه المطبوعات القديمة . وقد رأيت بعضها في مكتبة المتحف البريطاني وكان من بينها كتاب مطبوع في القرن التاسع الميلادي ويحتوي على كلايش .

بي شنغ رجل من عامة الناس تمتع بموهبة البحث خارج دائرة التعليم الرسمي ، ولذلك لم تسجل له سيرة وإنما ورد ذكره في كتاب للعالم «شن كو» من سونغ الشمالية في كتابه «فينغ شييه بي تانغ» - محاورات مكتوبة في جدول الأحلام -. وهو من معاصري بي شنغ. وكلاهما كان في عهد الامبراطور سونغ رن تزونغ .

وفي وقت لاحق ، استعمل الخشب بدل الصلصال في عمل المقاطع . وصاحب هذا الاختراع الجديد هو وانغ تشنغ في أسرة يوان المغولية .

البارود والمدفعية :

البارود ظهر لأول مرة في الأسرات الخمسة (٩٠٧ – ٩٦٠م) . وأُلف عنه في أسرة سونغ الشمالية التي شهدت أواخرها (أوائل الثاني عشر) ظهور المدفع المتفجر . وفي أسرة جين (١١١٥ – ١٢٣٤) استعمل المدفع ذو الدوي . ثم صنعت المدافع الضخمة ، في أسرة يوان على يد العرب العاملين في خدمة الادارة المغولية. وذكرت سجلات أسرة يوان مخترع اسمه اسماعيل بنى مدفع ضخم لما أطلقه اهتزت الأرض بالدوي ونزلت القذيفة بعد اصابة هدفها الى عمق سبعة أقدام في الأرض . ويتجاهل المؤرخون الصينيون المعاصرون هذا الاختراع مكتفين بالحديث عن مدافع أسرتي سونغ وجين . وهو تصرف مألوف في التاريخ القومي.

من الكتب التي تناولت صناعة البارود والمتفجرات كتاب خطوط عامة في العلم العسكري تأليف تزونغ تونغ ليانغ الذي وصف في كتابه ثلاثة أشكال من المتفجرات وعدة أصناف من الأسلحة النارية استعمل كمادة تدخل في تركيب بعض الأدوية والمركبات الكيمياوية . وقد أورده البيروني في كتاب الصيدنة باسم الثلج الصيني وتكلم عن خصائصه وكيفية صنعه .

من متممات اكتشاف البارود والمتفجرات ، اختراع الصاروخ . ويرجع الى أسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤م) وقد صنعوه من أنابيب الخيزران وتألف يوم ذاك من مرحلتين . ولم يستعمل كسلاح وانما دخل في جملة الألعاب النارية .

البوصلة :

ترجع الى حقبة الدويلات المتحاربة (٤٧٥ – ٢٢١ق.م) وكانت بسيطة تتألف من ملعقة محطوطة في صحن . والملعقة ذات خواص مغناطيسية تنجذب نحو الشمال والجنوب فيهتدى بها .. ولم تكن مضبوطة في تأشير الاتجاه .. وسميت يومها سينان بكسر السين . ويترّخها الباحثون المعاصرون بالقرن الثالث ق.م.

البوصلة الكاملة المضبوطة تأخرت عن ذلك بالف ومئتي سنة . ففي اسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ - ١١٢٧) توصل العلماء الصينيون الى صنع بوصلات ممغنطة صناعية ورد وصفها في كتاب العلامة شين كو المذكور أعلاه . وكان هذا العالم الذي عاش مابين ١٠٣١ - ١٠٩٥ قد درس البوصلة وتوصل الى تعيين الفرق بين الشمال الفعلي والشمال المغناطيسي . واستعملت البوصلة الجديدة في الملاحة في نفس العصر . وبعدها بحوالي القرن وصلت الى المسلمين ، الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على الملاحة في المحيط الهندي .

العلاقة الخامسة حسب ترتيب العلاقات الاجتماعية الكونفوشي . وهي : علاقة الدولة بالرعية ، علاقة الزوجين ، علاقة الأولاد بالأبوين ، علاقة الأخوة مع بعضهم . وعلاقة الصداقة .

ويبدو أن أول من استعملها هو الملاح النجدي ابن ماجد . وأنه طورها عن الأصل الصيني . ولذلك سماه البحارة العرب اللاحقون مخترع البوصلة . ويرد في أطلس تاريخي حديث رواية عن برتغالي يدعى خيرونيمو اوسوريو (١٦٠٠ م) ان فاسكو دي غاما وجد عند الملاحين العرب في مياه مدغشقر بوصلة لفتت انتباهه لدقتها . وقد علق محرر الأطلس بوقاحة عنصرية عجيبة :

انها مشكلة تحتاج الى حل . فهل يمكن أن يكون العرب قد اخترعوا هذه البوصلة المتقنة ونقلوها الى بحارة المتوسط .

راجع :

1-LEO WIEGER, A HISTORY OF THE RELIGION BELIEFS AND PHILOSOPHICAL OPINION IN CHINA HSIEN - PRESS 1927 P. 223

2- AN HISTORICAL ATLAS OF ISLAM , EDITED BY WILLIAM C BRICE - LEIDEN 1981. مقدمة الأطلس

الباب الثاني

الفلسفة

الفرع الأول

تحقيب مجمل

ترجع فرضية العناصر الخمسة الى الألف الأول ق.م. وأقدم تتريخ مضبوط لها هو القرن الثامن حيث ورد اسم شي بو الذي ازدهر في عهد الملك يوو من أسرة تجوو . والفرضية الصينية هي الأم للفرضية الاغريقية بخصوص العناصر الأربعة . الخمسة الصينية هي : التراب ، النار ، الماء ، المعدن ، الخشب وهي أوائل تتشكل منها الطبيعة كلها . والأربعة الاغريقية : التراب ، النار ، الهواء ، الماء . وهي كالصينية أوائل تتركب منها الموجودات وتنحلّ إليها . ومنشئ الاغريقية هو انبادوقلس من القرن الخامس ق.م. ويجدر بالذكر أن الخشب ، خامس العناصر الصينية ، هو المادة عند الاغريق . وهي التي عرفت عند المسلمين باسم الهيولى . وهي المادة الأولى ، الخام التي تنشأ الموجودات من تحولها . ومن المستبعد على أي حال أن يكون الاغريق قد عرفوا العناصر الصينية في ذلك الدهر السحيق فأخذوا منها ثلاثة للبسائط ، والخامسة للمادة الخام ، بل هي وحدة الذهن البشري التي تنتج المتماثلات دون اتصال فيما بينها .

ان اكتشاف فرضية العناصر الخمسة يمدد تاريخ الفلسفة الى ثلاث قرون سابقة لبدايتها الشائعة على يد لاوتسه – كونفشيوس ، وقرنين على بدايتها في اليونان على يد طاليس الملطي (القرن السادس ق.م). وكان

ينبغي تعديل هذه البداية على أساس الحقائق المستجدة لولا اننا لا نزال مستعمرين للغرب . وسيتعين علينا الانتظار حتى ينتهي النفوذ السياسي والعسكري لاوربا وأمريكا الشمالية لكي نتمكن من كتابة تاريخنا وتاريخ العالم بنزاهة أكثر . وعندئذ سيكون شي بو أول فلاسفة العالم . وقد ازدهر كما ذكرنا في عهد الملك يوو من أسرة تجوو في القرن الثامن ق.م. وهو الذي فلسف فرضية العناصر الخمسة بعد أن كانت فكرة قلقة تختلط بالأساطير ، غير أن المؤرخين لا يملكون من التفاصيل عن شي بو مايزيد على ذلك الى الحد الذي يسمح بتنصيبه فيلسوف أول . وهو ما حدا ببعضهم الى البدء مع كونفوشيوس . وبعضهم الآخر الى البدء مع لاوتسه.

كونفشيوس عاش بين ٥٥١ – ٤٧٩ ق.م. ويقال عن لاوتسه انه معاصر له . ويقدر انه كان أسن منه بخمسين سنة . وهذه معاصرة بالكار . فالخمسين سنة وحدها جيل . وهذا يرجح الابتداء بلاوتسه ، مع ما يقتضيه من التوقف عن مجاراة المألوف الناجم هنا عن طغيان اسم كونفشيوس على معاصره الأسن .

يقول الأستاذ هيوز HUGHES إن كونفشيوس هو أبكر من خرج على التفكير بالمأثور الى الاستعلام (١) يقصد الأفكار التي طورها الغابرون بطريقة غير منظمة أو ممنهجة حتى نظمها كونفشيوس . لكن هذا قد لا يصدق على موضوعة العناصر الخمسة بطبيعتها الإدراكية كمعطى معرفي . وبالتالي فالفكر الفلسفي يسبق كونفشيوس . ولا شك انه كان في حالة ابتدائية ، لكن ذلك لا ينفي عنه صفة فلسفي . فنحن متفقين على أن طاليس فيلسوف رغم ما في فلسفته من بساطة ورغم سذاجة نظريته عن أصل الأشياء والمستمدة من الأساطير السومرية التي انتشرت قبله في العالم الاوراسي . فإذا كان تاريخ الفلسفة الغربي قد بدأ به من طاليس فما الذي يمنعنا مثلاً من البدء به من شي بو ؟

ثم ان كونفشيوس مسبوق بلاوتسه . وأفكار لاوتسه كما وردت في كتابه متقدمة على فكر كونفشيوس . بل هي متقدمة على فلسفة طاليس .

ولا مجال للمقارنة في الواقع بين بساطة فكر طاليس وأفكار لاوتسه المعقدة . والمكتوبة بلغة لم يعرفها الاغريق إلا في زمن أفلاطون . ومع القبول بالتشكيك في كون لاوتسه هو محرر كتاب التاو الأول فلاشك في أن الكتاب قد اعتمد على منطلقات توارثها التاويين عن فيلسوفهم الأول .

إن الفكر الفلسفي بدأ في الصين . قبل قرنين على الأقل من بدايته في اليونان . والبدايتين منفصلتين . فقد بدأت الفلسفة الاغريقية كتطوير لخط طويل من الاستذهان المعبر عنه في الأساطير العالم اوراسيه . كما في الدين السماوي الأول – اليهودية – من دون أن تكون قد اتصلت بالفكر الصيني . وبدأت الفلسفة في الصين كتطوير لخط مماثل في الشرق الأقصى تمركز في بلاد الصين نفسها من دون أن يكون هناك اتصال مع رافد فكري براني .

ان شي بو هو في الصين بمرتبة طاليس في اليونان . وبالمناسبة فنحن لم نقف على كتاب خطه طاليس ، كما لم نقف على كتاب خطه شي بو . وانما تلقينا مذهبهما من المصادر اللاحقة.

وان لاوتسه أسبق من كونفشيوس . وانما تقدم عليه كونفشيوس بسبب الطابع النبوي الذي تلبست به أفكاره وشخصيته .

العناصر الخمسة ، أقدم النظريات الفلسفية في التاريخ ، وردت مكتوبة على مقبض سيف من اليشب يرجع تقديراً الى ٤٠٠ ق.م. ويعتقد العلامة فونغ يو لان ان تعبير عناصر هو من وضع المتأخرين وان اسمها الأصلي هو : ووشينغ ، أو ووتي . وترجع الأولى الى : الفعاليات الخمسة ، والثانية الى : القوى الخمسة (٢). وفي نص يورده جوزيف يندهام يرجع الى القرن الثالث ق.م. يرد مايلي حول العناصر (٣):

عندما يستقر تشيء العناصر يكون التكاثف ، هذا التكاثف يكتسب روحاً . بعد أن تُحرر الروح تهبط (تولد) وبعد أن تولد تصبح ثابتة (تامة في جميع أجزائها) وبعد أن تغدو ثابتة تكتسب قوة . ومع القوة يأتي التذهن . ومع التذهن يأتي النمو . والنمو يقود الى القوام التام . وبالقوام التام تكون انساناً بحق .

هذه أطوار النشأة من العنصر الى الانسان . أما العناصر نفسها فلها خواص هي التي من تركبها تتكون الأشياء في تنوعاتها اللامتناهية . والخواص هي :

الماء : انسياب . قطر : هبوط / سيولة . فيوضة . ذوبان . / ملوحة .

النار : تسخين . إحراق . صعود / حرارة . احتراق / مرارة .

الخشب : قبول الصورة بقبول القطع والحز / صلابة فيها مطاوعة / حموضة .

المعدن : قبول الصورة بالصب سائلاً . قابلية تبديل الصورة باعادة الصهر والصب/ صلابة تضمنت التخثر واعادة التخثر (قبول الصب) / اللذوعة .

الأرض (التراب) : انتاج الخضار المأكول / التغذوية / الحلاوة .

ويقول العلامة نيدهام ان ترتيب العناصر غير متعين .

وتقفز نظرية العناصر على يد فيلسوف متأخر نسبياً هو شين غوا (١٠٨٦م) الذي تحدث عن تصيراتها وامكان تحولها الى بعضها ، وهذه خلاصة بتحليلاته :(٤)

تبعاً لـ سُوون (مأثور طبي) ثمت خمسة عناصر في السماء وخمسة في الأرض . تشي الأرض حين يكون في السماء يكون ندياً . والأرض تنتج المعدن والحجر . لكن الماء يمكنه أيضاً انتاج الحديد والمعدن . مثلاً : في بعض الكهوف يقطر الماء باستمرار فتتشكل حُليمات عليا كثيرة . وفي الاعتدالين الربيعي والخريفي ، يشكل الماء المأخوذ من آبار معينة بالتبخر مادة الاغرة (حرفياً في الصينية : شي هْوا – أزهار الصخور) ومن محلول شديد الملوحة يتشكل حجر خلاصة الين الدائم النداوة. وكل هذه ملموسات تغيرت وتحولت عن الماء .

كذلك تشي الخشب الذي يكون في الجو ريحاً . والخشب ينتج النار والريح تديمها . وهكذا هي طبيعة العناصر الخمسة.

يعقب العلامة نيدهام : عرفت هذه التحولات في اسبانيا المسلمة (الأندلس) وفي الصين في القرن الثالث عشر على الأقل . ومثالها الحصول على النحاس من المياه المنجمية بعد خلطها بالحديد الخردة .

أدرك الصينيون القدماء اذن علاقة التبادل والتفاعل بين الأشياء . وبالارتباط مع هذه المعرفة أحرزت صناعة التعدين تقدم ملحوظ كان يمكن أن يؤدي الى ثورة تكنولوجية لو تهيأت له ظروف سياسية كالتي تهيأت لتلك الثورة في أوربا لاحقاً . وبذلك تصل نظرية العناصر الخمسة الى غاية نضجها في غضون القرن الحادي عشر . مع ملاحظة أنها لم تتمتع دائماً بنفس خواص البساطة التي افترضتها نظرية انبادوقلس . فالحديث عنها ، لاسيما مع شين غوا ، يستند الى كونها مركبات . وهذا هو وضعها الطبيعي ؛ فالنار والتراب والمعدن والخشب والماء تتشكل كلها من جزيئات تتشكل بدورها من ذرات وذريرات حسب الفيزياء والكيمياء الحديثة .

بعد فلسفة العناصر الخمسة يأتي القبْتاويون . وهم جماعة من المنجمين والحوليين كانت لهم نظرات في الطبيعة والمجتمع . ظهروا في أسرة تجوو (القرن ١١ – ٧ق.م) . وهم سلف لاوتسه . إلا أنهم لم يكتبوا أفكارهم التي بقيت غير منسقة حتى ظهرت ناضجة في فلسفة لاوتسه . ويمكننا الاستدلال من ثم أن التفلسف الصيني يأتي على رأس سلسلة من التداعيات الذهنية صدرت عن (مفكرين) أكثر منهم (مؤلفي أساطير) خلافاً للتفلسف اليوناني الذي جاء كنقلة مباشرة من الاستذهان الأسطوري للعالم الأوراسي . وقد ورث لاوتسه معارف القبتاويين هؤلاء . ولعله ورث معارف أخرى أسبق كتلك المأثورة عن شي بو ومن قبله ومن بعده . ومن هنا تأتي تلك الجملة المعقدة من فلسفة التاو كما وصلتنا في كتاب لاوتسه . وقد ذكرنا ان هذا الكتاب مصيوغ بلغة متطورة يمتزج فيه التعبير الرمزي الأدبي بالتعبير الفلسفي المباشر . وهي اللغة التي نجدها فيما بعد عند متصوفة الاسلام. وهي في منحاها الرمزي تتفوق على لغة الملاحم الأوراسية الكبرى : جلجامش ، الالياذة . من جهة البلاغة الايحائية الشديدة التكثيف التي يتميز بها كتاب التاو ، بحيث تبدو الرمزية المعاصرة كما لو كانت أحياء لتلك الرمزية التاوية ، ربما بتوسط الرمزية الصوفية . لكن لغة الفلسفة في التاو الأول تبقى دون

مستوى نظيرتها لدى أرسطو . وانما يمكن مقارنتها بلغة أفلاطون وفلاسفة ماقبل سقراط .

عني لاوتسه بالطبيعة والمجتمع على السواء . وعنايته بالطبيعة تأخذ سياق ماسمي في المشائية الاغريقية والاسلامية مابعد الطبيعة . فقد سعى لتقديم تفسير لأصل النشأة معتمداً على التاو كمطلق تصدر عنه الأشياء وترتد إليه . والتاو مطلق أرضي ، أي هو مادي ؛ ليس بالمفهوم العادي للمادية الصرفة ، بل من حيث تجرده عن صفات الألوهة أو التجريدية البحتة التي تتميز بها مُثُل أفلاطون أو لوغوس فيلون الاسكندراني . وهو مطلق لا بمعنى انه ثابت كجوهر أرسطو بل هو أقرب الى أن يكون القوة السارية في الموجودات والتي سيتحدث عنها صدر الدين الشيرازي بعده بأكثر من ألفين سنة . وهي قوة متحركة ، وان كانت خالدة ، خلافاً للمفارقة المشائية بين المتحرك والخالد . وأعني أنها لا تشبه محرك أرسطو الأول ، الذي يحرك ولا يتحرك لأنه لو تحرك حسب الدوغما المشائية لتجزأ وتغايرت أجزائه ولكان ينتهي من ثم الى الفناء مع موجوداته المتحركة . ان التاو يحرك بمعنى انه يتحرك وهو مع الأشياء في تطوراتها كلها من غير أن يلحقه ما يلحقها من فناء . وهذا لأنه لا متناهي من الأول ولا متناهي من الآخر . أي أنه أزلي وأبدي في نفس الوقت . وبالطبع فهو غير مخلوق . لكنه أيضاً لا يتصرف كخالق وذلك لأنه كائن لا يتمتع بالعلم والارادة . والسماء والأرض هما من تجليات التاو وان كانتا غير مخلوقتين له لان لاوتسه ينفي عنهما صفة التولد من عدم أو من شيء ، فهما أزليتان مثل التاو . وهل يعني ذلك وجود أزليات متزامنة متعددة في الكون ، كما هو حال الباري والعالم عند المشائين المسلمين أو المطلقات الخمسة عند الرازي ؟ لاوتسه لا يطرح هكذا تعقلات ميتافيزيقية . وعموماً ؛ لم تتطور الميتافيزيقيا في الفكر الفلسفي الصيني لأن الصين لم تعرف الدين بحيثياته المعروفة في العالم الأوراسي . إن الميتافيزيقيا الصينية هي أدخل في النشْكَوْني من جهة سعيها لتفسير النشأة الأولى للطبيعة دون الوجود المفارق الذي لم

يتصوره الذهن الصيني بطبيعته اللادينية. ويستند لاوتسه في نشكَوْنياته الى منطق ديالكتيكي سهّل عليه الجمع بين الأضداد وأغناه عن الولوج في عالم الماهيات المتصالبة . فالأزلية لا تستدعي عدم الحركة بل لعلنا نجدها في شرط المتحرك الذي يستمد خلوده من استمرار تحركه . لقد جعلت الشائية الاغريقية ومن بعدها الاسلامية من الأزلية مناط الركود في الكون ، فلكي يكون الشيء أزلي يجب أن لا يتحرك . وهو عندهم أيضاً في شرط الأبدي . فالمتحرك يفنى . والثابت يبقى . ولم تنخرق هذه الفرضيات المنافية لعلم الطبيعة إلا في وقت متأخر حين أعلن الملاصدرا الشيرازي : لا ثابت في الكون . والطبيعة جوهر سيال . ومن مفارقات تاريخ الفلسفة أن ننتظر مدة تزيد على العشرين قرن لكي نعود الى الفهم السليم لعلاقة الحركة بالبقاء كما قررها لاوتسه . ولم يكن بين الملاصدرا وبين شيخ التاو معرفة . وإنما هي كما قلت في بداية هذه الافاضة وحدة الذهن البشري ، أو لأدقق أكثر فأقول : وحدة الذهن الآسيوي حين تتهيأ لها عبقريات فلسفية من طراز فيلسوف التاو والحركة الجوهرية . ومعروف ان ارتهان الحركة بالبقاء عند الشيرازي يرجع الى نظريته في حركة الجوهر ، التي ثار فيها على الاغريق وتلامذتهم المسلمين على السواء .

وقد تلاقى الفيلسوفان في المنطق الديالكتيكي ، لأن الحركة لا يمكن تصورها إلا بمنظور هذا المنطق .ويتماثل تاو لاوتسه وجوهر الملاصدرا في كونهما متحركين ، وكون حركة كل منهما هي سبب النشأة كما هي سبب استمرارها . ولكي يتخلصا من إلزامات ميتافيزيقيا الثابت الأزلي ، جعلاه قوة سارية في الموجودات. وهذا هو تاو لاوتسه ومريديه في أقدم تصورات وحدة الوجود ، التي تمثلت عند الملاصدرا في سريان الوجود الحق في العالم ، الذي هو تطورات ذلك الوجود ؛ أي تحولات الجوهر المادي والتي تتجسد في تنوعات الوجود الفعلي .

وحركة التاو ارتدادية . وهو مناط استمرارها . وان كنا نلمح في ارتدادية التاو حركة مجتمع شرقي سيضعها ابن خلدون بعد عشرين

قرناً في موضعها من علم التاريخ الذي ترجع اليه صياغة بعض قوانينه الفاعلة في نطاق الشرق . على ان ارتدادية التاو هي ما يمنح الأشياء بقاءها وسط التغيرات حيث ترجع الأشياء إلى أوائلها لتعود الى النشأة من جديد . فالحركة التي أوجدت الموجودات تبقى فاعلة فيها ، أعني حركة التاو ، ولا تتخلى عنها في أي لحظة لأنها لو تخلت عنها لا نفرط عقدها كما كان سينفرط عقد الأرض لو تخلت عنها الشمس . وهكذا فالتاو هو حافظ الوجود كما هو محركه ومغيره من حال الى حال . والانحفاظ في الحركة لا في الثبات .

في نَشْكَونيات التاو نقف على تفاصيل أكثر ملموسية من تلك التي وردتنا من فجر الفلسفة اليونانية وان كانت تشاركها في البدء من العماء (الابيرون في الاصطلاح الاغريقي) ففي كتاب ليه تسه ، المحرر في القرن الثالث ميلادي عن فيلسوف تاوي بنفس الاسم ازدهر بعد لاوتسه بأقل من قرن (٤٥٠ – ٣٥٠ق.م) يتحدث التاويون عن أربع أطوار كبرى للكينونة هي :

طور القفزة الكبرى :

وتكون قبل ظهور (تشكل المادة العماء (اللطيفة) وتتصل بالكائن اللامتناهي : الصورة المنفية في المبدأ والمنبثقة من سكونه المطلق .

ثم الأصل الأكبر وهو طور المادة العماء .

ثم البداية الكبرى وهي طور المادة الملموسة (الجزئية) .

وأخيراً : الجريان ، التدفق الأكبر ، وهو طور المادة اللدنة ، الجواهر العينية ، أي الكائنات المادية الحقيقية (المتشخصة) .

سميت المادة الأولى عماء لأنها غير مُدْرَكة بعد ، وسميت مرحلتها طفرة أو قفزة لأن جميع الأشياء تنبثق منها بالتحول . أما المحسوسات (الجزئيات) فتنتج نفسها بالطريقة التالية :(٥)

المادة اللطيفة تصعد فتكوّن السماء . المادة الأقل لطافة والأثقل تهبط فتكون الأرض . ومن المادة الأفضل مزاجاً ، المتبقية في الخلاء الوسيط يتكون الانسان .

تجري هذه المحاولة الجريئة لتفسير النشأة في خط المغامرة الأولى للعقل البشري في سعيه لمعرفة نفسه ، والتي ينتظم فيها الفكر القديم من الصين الى الهند الى عالم أوراسيا المتأوّج بالانجاز اليوناني الكبير . ولئن كنا لا نوافق على التفاصيل فلا مندوحة من الإقرار بذلك العمق الميتافيزيقي الذي توغل اليه الفكر التاوي في ذلك الدهر السحيق الذي اعتدنا على ربطه بما يسمى أحياناً طفولة الفكر البشري . وان كنت لا أستسيغ مثل هذه الأحكام لدى الحديث عن عقول فلسفية كانت تغامر بأقل الوسائط كفاءة حيث مخزون المعرفة العلمية لم يتسع بعد ليتجاوز بضعة كتب وبضعة علماء صغار .

ويبدو على أي حال ان مريد لاوتسه الأقرب (ليه تسه) قد تحدث عن بداية ترجع إليها الأشياء باستمدادها من اللامتناهي . وهذا ما لم يوافقه عليه فيلسوف متأخر عنه . يقول الأمير الهاني ليوان ، المعروف باسمه الفلسفي هوْاي نان تسه (١٢٢ق.م) :

كان ثمت البداية .
كان ثمت بداية تسبق هذه البداية .
كان ثمت بداية أسبقية حتى قبل بداية هذه الأسبقية .
كان ثمت الوجود .
كان ثمت اللاوجود .
كان ثمت ليس بعد بداية للاوجود .(٦)

كان ثمت ليس بعد بداية لما هو ليس ثمت بعد بداية للاوجود .

يمكننا اذن فهم البداية عند ليه تسه على أنها جزئية لها تعلق بموجود ملموس هو مابحث عنه التاوي الأسبق بتفصيله الأطوار الأربعة للنشأة . لكن الوجود ، بما هو وجود ، ليس فقط عديم البداية بل هو عديم عديم البداية . ويتسلسل فيه عدم البداية حتى العدم المطلق للبداية، المانع من تصورها في الذهن فضلاً عن الطمع في الوصول الى

ملموسيتها في الكون . وهذه كما يقول الأمير التاوي مجريات عظيمة الخفاء بعيدة عن متناول الذهن .

توجهت مباحث الطبيعيات لدى التاويين الى الكائن الحي لتبحث عن نشأة الانسان الى جانب بحثها عن نشأة العالم . وقد ترك لنا تشوانغ تسه مسلسل ارتقاء لعله الأكمل في بابه حتى ظهور المسلسلات الارتقائية للمسلمين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . لكن مسلسل تشوانغ تسه لا يبدأ من الجماد (المادة الغير عضوية) كما يبدأ المسلمون بل من برعم (جرثومة) البذرة . أي من أبسط صور الحياة كما كان يعرفها . وتتطور الجرثومة ، التي يمكن تسميتها خلية لو استخدمنا لغة الارتقائيات المعاصرة ، في تنوعات شتى من النبات والحيوان حتى تتكون منها حشرات طيارة . ثم تستمر في تطورها عبر تنوعات يذكر لها أسماء لم يعرف الشراح كنهها الى أن تنتهي احدى هذه التنوعات المجهولة الاسم لدينا الى النمور . ومن النمور تأتي الخيول . ومن الخيول يأتي الناس . وهكذا فالجد المباشر للانسان هو الحصان .(٧)

وكان الارتقائيون المسلمون قد تحدثوا فيما بعد عن فضائل الحصان التي تقربه من الانسان لكنهم وضعوه في مرتبة أدنى من القرد الذي هو أقرب الحيوانات الى الانسان . ولكن من دون أن يصرحوا بكونه الجد الأعلى للبشر وانما تحدثوا عنه كحلقة في سلسلة ارتقاء مفترضة ينتهي فيها الأدنى الى الأعلى عبر حلقات وسيطة تحمل خصائص الطورين السابق واللاحق . وللعلم فان أبو الارتقاء الحديث داروين لم يصرح بارتقاء الانسان عن القرد كما يشيع عنه عوام المثقفين وإنما أشار الى كائن وسط بين القرد والانسان قد يكون هو الجد المشترك للمرتبتين البشرية والقردية .

في الفلسفة الاجتماعية يبدأ التاو من نقد الدولة والمدنيّة محملاً إياهما تبعات الكدح الغير مبرر الذي يمنع الانسان من مزاولة وضعه الطبيعي والتمتع بحياة سعيدة لا يكدرها الفقر كما لا يكدرها الغنى . وينزع التاويون الى تجربة مشاعية قريبة العهد رعتها أسرة تجوو التي

كانت بمثابة نقطة انتقال بين المجتمع البدائي (المشاعي) والمجتمع الطبقي المُدَوْلَن . استندت التجربة الى نظام المربعات التسعة ، الذي تبناه منشيوس بعد انحلاله ليصبح من أركان فلسفته الكونفوشية ، والتي تشكل في نفس الوقت قاسم مشترك مع النزعات التاوية المحبذة للاقتصاد المشاعي على مابين الكونفوشية والتاوية من شقوق يتعذر رتقها . وقد تصور التاويون ، بدءاً من معلمهم لاوتسه ، مجتمع يتولاه حكيم يقود ولا يحكم ، لا سلطة فيه لأحد على آخر . وتنعدم فيه الممتلكات الشخصية ومظاهر الدولة والقوانين والحروب . وهذا هو العيش وفق الطبيعة التي تشوهت بالتملك والدولة والمرافق المدنية المبالغ فيها . وتقترن التاوية بفلسفة اللافعل ، أي بالسلب المطلق الذي يتصف به التاو والذي هو سبب قدرته المطلقة على التحولات . فالحركة أم التاو ، كما هي بالتالي أم الفرد ، أم الناس . بل هي نابض المجتمع الذي يتلاشى اذا توقف عن الحركة . لكن الحركة ليست هي الفعل . والحكيم التاوي لا يفعل وإنما يتحرك وينجز الأشياء ثم ينسحب بعد انجازها . يعني أنه لا يتدخل فيما يتم انجازه لأن التام يتحرك دون تدخل ، أي دون فعل . فالسلب التاوي أساس الحركة ولو كان التاو على غير هذا الوضع لتعذر عليه ايجاد ما هو موجود عنه . ثمت اذن فرز دقيق مابين الحركة والفعل مع جعل الحركة مصدر التحولات التي يتولاها تاو الطبيعة كما هو تاو المجتمع في حالته المتنقلة مابين التنظيم الطبيعي والتنظيم الاجتماعي . وفي هذا قد نجد تفسير للمصطلح الذي يؤدي به الصينيون المعاصرون معنى كلمة REACTIONARY التي ترجمناها الى : الرجعية . لكنها عندهم : فانْغ – دونغ . حرفياً : ضد الحركة . فما نسميه رجعي ، وما يسميه الغربيون بهذا المضمون أيضاً ، هو في الوعي الصيني مايشكل عائق ضد حركة الأشياء فيمنع التاو من ايجاد مايجب ان يوجد عنه في مرتقى حركته التي لا تتوقف .

أما الفعل فهو ما تقوم به الدولة التي لا يتولاها حكيم . وهو مناط القهر الذي يتجسد عند التاوي في فرط التملك ، وفرط السلطة ، وفرط

التمتع . فالحكيم لا يفعل لأنه لا يملك ولا يحكم ولا يتمتع على طريقة الأباطرة . وهو مشروط بالسلب لأنه لا يتدخل في شؤون الناس ، فهو اذا تولى أمورهم يكون وراءهم ، واذا تمتع بالسلطة عليهم يقف تحتهم لا فوقهم بحيث لا يشعرون به وهو يدبر أمورهم ، ذلك التدبير المحكوم بعدم التدخل . وهو الذي يضمن للناس ان يعيشوا بدون حروب ، أو مظالم ، ولا ترهقهم مطالب الحياة الفوق طبيعية التي جاءت بها المدنيّة والدولة.ويطرح تشوانغ تسه عدم ضرورة الدولة بنفس المبدأ الذي سيستند اليه فيما بعد بعض المتكلمين المسلمين لتثبيت نفس الإمكان . يقول تشوانغ تسه :(٨)

إذا لم يدنّس الناس جِبِلّتَهم ولزموا جانب الـ تي فهل من حاجة الى حكومة ؟

وقد جادل أبو بكر الأصم من المعتزلة وفريق واسع من الخوارج في أن الناس إذا اتفقوا على التناصف والكف عن العدوان لا يحتاجون الى إمام . وهم في ذلك يردون على من يقول بأن نصب الإمام واجب وهم الشيعة بشتى فرقهم وأهل السنة في عمومهم . ويصدر الخوارج عن اللقاحية العربية . أما الأصم المعتزلي فيحاجج كمتكلم ، وكان بعض المتكلمين قد طرحوا أيضاً مسألة ما إذا كان من العدل أن نعطي لبعض الناس الحق في إلزام غيرهم بالسلطة فيما يجب وما لا يجب أن يفعلوه ماداموا جميعهم من البشر المتساوين في العقل .

أما تشوانغ تسه فيستند الى السلبية التاوية الرافضة للتسلط الذي يمثله وجود الحكومة كمصدر للعقوبات مكافئ لمصدر العدوان وفي تعارض مع ادعاء الدولة انها وجدت لحماية أمن الناس .

نفور التاوي من الدولة هو نفور اللقاحي العربي منها . ويلتفت التاوي في غراراته الجاهزة كضد للدولة الى دار تجوو ، التي حملت كما قلنا للتو خصائص مجتمع مشاعي قليل المرافق ، غير مُمَأْسس ، كان آباء التاو قد اتصلوا به في أطواره الأخيرة التي سبقت انحلاله فانغرس فيهم حلماً طوباوياً للطريقة المثلى في ادارة المجتمع . أما غرار

اللقاحي العربي فهو في الجاهلية ، ثم إذ قد تعذر الحفاظ على هذا الغرار - في دولة الراشدين الثلاثة (ابو بكر ، عمر ، علي) وهي الحد الأعلى من السلطة التي تقبلها اللقاحيون العرب بعد هزيمتهم العسكرية في حروب الردة . وفي عصر التفلسف وجدت اللقاحية العربية من نظّر لها وأدلجها على طريقة فلاسفة التاو ، كالمعري وأقطاب التصوف . بينما نزع إليها الشعراء الذين صدمتهم تعقيدات الحياة في المدن الاسلامية الكبرى . واكثر ماانجد النفور من الدولة في التصوف القطباني الذي يتأورخ في قطيعة تامة مع سلطة الدولة والدين معاً .

وتلتقي التاوية والتصوف القطباني في السعي لبناء شخصية حرة للفرد مقابل الدولة والدين، والسائد في المجتمع من الأعراف والمواصفات التي تتصادم مع السلب التاوي وضريح الحرية الصوفي . ويتركز هذا البناء عملياً في حكيمية الحكيم ، وهي التعبير التاوي عن السلوك المطابق للفكر لدى الحكيم . ولدى المتصوفة في الفناء عن الأغيار : وهي السلطة والمال كمضادات للوجود الحق .

ابن سبعين :

اطراح المال هو الخروج عن النفس . وهذا هو المفهوم من قولهم : اترك نفسك وتعال . وهو الفناء الذي تشير إليه الصوفية . والبقاء بعد الفناء هو ثبوت الحقيقة بعد رفع المجاز وظهور الوحدة الأزلية بعد رفع الغيرية . وخرج من ذلك ان الله هو وجود كل شيء ، وهو الوجود وحده . والغيرية وهم أثمره الحجاب . والحجاب خبر الضمير عن صور الشهوات وسكونها إليها ولا حقيقة له من خارج الذهن .(٩)

واذ يتمسك الصوفي بالوجود الحق ، الذي هو الله وحده ، ينكر التعاطي مع الغير الذي قد يكون : الحاكم ، المال ، رجل الدين . وأي صاحب سلطة . وهو في توحده مع الوجود الحق يستعيد توحد التاوي مع التاو ، الذي ينجذب اليه الحكيم في مراتب ترقيّه التي تنأى به عن الامبراطور - الغير . والتوحد التاوي لا إشكال فيه لأن التاو كائن غير

مشخص . وهو مايعترض توحد الصوفي مع الله ، الذي هو، مأخوذاً بالتصور الديني كائن مشخص . ويعالج التصوف هذا الإشكال بطريقتين : التجريد المطلق من الصفات ، بما يضفي على الوجود ، الحق نفس صفات السلب التاوية . أو بالاعلان الصريح للتكافؤ مع الله وإنكار العبودية له . وهي المرتبة التي أعلنها أبو يزيد البسطامي . لكنها أيضاً مستوعبة لدى العموم في قولهم ان الروح لم يقع تحت ذل كن بمعنى أنه غير مخلوق ، ومن ثم غير مستعبد لكائن آخر . لأن المخلوقية هي المفعولية المتناقضة مع كون الانسان حراً . وبهذا يكون الغير الصوفي ليس هو فقط صاحب السلطة من الأقران البشريين بل هو أيضاً أي كائن مشخص يمكن أن يفرضه تصور ما حاكم على جوهر الحرية الصوفي .

ان سلبية التاو من جهة السلطة هي سلبيته من جهة قمع الآخر . فالفكر بدوره لا سلطة له ، الا حينما نأخذ تعارض الحكيمية مع سلطة الدولة حيث يتأكد موقع الحكيم كضد للحاكم . فالفكر لا يملك الحق ولا الأداة التي يستطيع بها مفكر قمع مفكر أخر . ويوصلنا ذلك الى ديمقراطية التاو كفكر حكيمي ينشأ خارج دائرة الدولة ويرفض من ثم أن يكون أداة لقمع الفكر الآخر . وهو موقف يضعها في تعارض مطلق مع الكونفوشية كمذهب رسمي ، والشرائعية كنزعة سياسية متماهية بالقمع (كما سنبينه لاحقاً) على اننا نضع في الحساب ما يمكن تسميته روح التسامح الصيني التي لا نجد ما يضارعها في الحضارات الأخرى لآسيا وأوربا . وهي نزعة تتبلور في الصين في ظل انعدام الدين المركزي المؤسس حيث لا نواجه في تاريخ الفكر الصيني معايير تكفير وتبديع كتلك التي استعملتها أديان الهند وإيران والأديان السماوية الثلاثة . ويخلو القاموس الصيني من مفردات أصيلة تدل على الإلحاد والزندقة والهرطقة، سوى مايصدر عن بعض الكونفوشيين في مجرى الاعتراض على خرق القواعد السلوكية لمعلمهم ، مما يمس دائرة العلاقات الاجتماعية دون الفكرية . وتبدو التاوية هي الأكثر تعبيراً عن روح

التسامح الصيني هذه . وقد نظّرت لها فلسفياً واستوعبتها عملياً . وتنظيرها مستمد من السلب التاوي المعارض للسلطة في أي مضمار ، مما يضعها في تماثل مع الموقف الصوفي المرتبط من جهته بفكرة الفناء . وحكماء التاو كأقطاب التصوف في موقفهم من الفكر الآخر . ولو أن خيار الصوفية أعسر مع وجود الدين، مما يضع القطب الصوفي في موقع المغامر وهو يدعو الى حرية الأديان بالطريقة التي أعلنها عبد الكريم الجيلي .(١٠)

الكفار عبدوه بالذات ، لأنه لما كان الحق تعالى حقيقة الوجود بأسره ، والكفار من جملة الوجود وهو حقيقتهم فكفروا أن يكون لهم رب لأنه تعالى حقيقتهم ولا رب له . والذين عبدوا الأوثان فلسر وجوده بكماله بلا حلول ولا مزج في كل فرد من أفراد ذرات الوجود فكأنه تعالى حقيقة تلك الأوثان التي يعبدونها ، فما عبدوا إلا الله ، وذلك لاتباعهم للحق في أنفسهم لأن قلوبهم شهدت لهم بأن الخير في ذلك الأمر فانعقدت عقائدهم على حقيقة ذلك ، وهو عند ظن عبده به . وأما الدهرية (الملحدين) فإنهم عبدوه من حيث الهوية.

يريد الجيلي أن يقول ، وهو خاتمة الأقطاب في تصوف العصور الاسلامية ، ان الأديان السماوية كلها صائبة ، وان الأديان الوثنية كلها صائبة ، وان اللاأديان كلها صائبة أيضاً . ويتساوي عابد الوثن والمؤمن بالله والجاحد له في ان كل واحد منهم اختار له طريق في الاعتقاد رآه مطابق لقواه العقلية وطريقته في التفكير . وبالتالي فأي دين له الحق في قمع دين آخر بدعوى ان القامع هو الحق والمقموع هو الباطل ؟ وذلك هو مصداق قول التاويين : كل كائن يؤلف بطريقته الخاصة به طبيعته الخاصة به من دون فعل . أي من دون تدخل من الأغيار .

كثيراً مايختلط عند أهل الصين دين التاو بعقل التاو . أما الناس خارج الصين فهم يفهمون من التاوية ، التي غالباً ما تكتب طاوية ذلك الدين الذي يعتنقه بعض أهل الصين الى جانب البوذيةوالمذهب الكونفوشي . وهذا بيان بالفارق بين الدين التاوي والفلسفة التاوية

للدارس الصيني المسلم ماتشيان (محمد مكين) أدلى به في محاضرة عن الاسلام في الصين ألقاها في القاهرة عام ١٩٣٨ :

التاوية ليست مبنية على أصول لاوتسه بل هي ناشئة عن فروعه ومشوبة بالخرافات القومية . وان هي إلا بدعة في مذهب لاوتسه ظهرت بعد وفاته بخمسمئة سنة .(١١)

ولو أن الدين التاوي لم ينشأ عبثاً ، فقد أملته ظروف وأوضاع لا يتسع هذا المقام للحديث عنها وقد أوجزها العلامة نيدهام في مجلده الثاني بعد أن تساءل : كيف صارت الفلسفة الراقية دين ؟ فليراجع . وينبغي ان لا نفهم من ذلك ان ظهور الدين أبطل الفلسفة ، فقد عاش الاثنان معاً ، فاستمرت الفلسفة تنتج فلاسفتها ، والدين يصنع كهانه حتى أوائل القرن العشرين حيث توقفت الفلسفة واستمر الدين مع انتقال المجتمع الصيني الى العصر الحديث وما أوقعه من تحولات متناقضة في مجرى الحضارة الصينية .

الكونفوشية :

اسم كونفوشيوس الحقيقي هو كونغ تشيو ويلقب أيضاً : كونغ فوتسه . وكونفوشيوس تحريف لاتيني عرف به في الغرب عن طريق الجزويت الطليان الذي وفدوا على الصين في القرن السابع عشر . وعنهم وصل الينا في العصر الحديث . عاش مابين (٥٥١ – ٤٧٩ ق.م) أواخر حقبة الربيع والخريف التي كانت فيها الصين مقسمة الى عدة دويلات وممالك . وينتمي الى أسرة نبيلة افتقرت في جيله فاشتغل موظف بسيط في مستودع . وبسبب معرفته شعائر تجوو ، أوفده تجاو أمير دويلته المسماة لو ، الى بلاط تجوو لتعلم الشعائر من المؤرخ الملكي هناك . وفي وقت لاحق حصل له منصب قضائي تركه بعد ثلاثة أشهر . وكان قد ترقى في مضمار التعليم وصار له مريدين فأمضى عشر سنوات يتجول صحبة مريديه بين الدويلات للتبشير بأفكاره دون أن يلقى تجاوب من حكامها . فعاد الى بلده في لو حيث استمر في دراسة

وتدريس المأثورات الغابرة . وقد ارتبطت باسمه بعض الكتب الكلاسيكية مثل كتاب الأغاني الذي ضم مختارات من الشعر الشفاهي الذي كان شائعاً في مقاطعات الصين قبله . أما مذهبه فدونه مريدوه بعد وفاته في لون يو - كتاب المحاورات .

فتح كونفوشيوس المجرى الثاني للفلسفة الصينية بعد تاوية لاوتسه . ثم طغى عليه فصارت مدرسته هي الأولى . وسرعان ما تكاثر مريدوه في حياته وبعدها وتشكلت حلقات الدراسة وظهرت التآليف التي أصبحت من الجملة الأولى للمأثورات الفلسفية في الصين . وقد لقيت أفكاره هذا الاهتمام الواسع على حساب أفكار لاوتسه بفضل بساطتها وشعبيتها مسجلاً بذلك مفارقة فكر ينمو في سياق نمو الدولة ليكون من مفردات ايديولوجيتها الحاكمة لكنه شعبي اللغة والمضمون ، مقابل فلسفة معقدة لكنها تستهدف الشعب لا الدولة ، بحيث يمكننا الذهاب الى أن واقعية كونفوشيوس / على الضد من طوباوية لاوتسه / قد مكنته من النفاذ الى الدولة والمجتمع معاً في اتساق مبرر مع مجريات تطور اجتماعي كابدته الصين قبل زمانه وواصلته ردحاً طويلاً من بعده . وهو ما أضفى على كونفوشيوس وصف النبي الى جانب الحكيم ، بينما استمر لاوتسه حكيماً خالصاً دون أن تنال من حكيميته حتى عبادته اللاحقة من جانب كهان التاوية . ونبوة كونفوشيوس على أي حال ليست وحيوية من طراز نبوات الساميين ، أو حتى من طراز نبوة بوذا ذات اللون الديني الغامق . وهو رغم موقعه من حركة الدولة والمجتمع في الصين بقي عند الناس حكيماً ومعلماً طيلة القرون الثلاثة التالية لظهوره ، ولم يكتسب القداسة إلا حين صار مذهبه عقيدة رسمية لامبراطورية الهان . ففي (١٩٥ ق.م) قدم أول أباطرة الهان قرابين ضخمة الى مُتَعبَّد آل كونفشيوس على شرف المعلم . وبعده بحوال القرن نظّم الامبراطور مونغ دي قرابين رسمية في جميع مدارس الامبراطورية حيث خرج تقديس كونفوشيوس من حومة الأسرة ليتحول من معلم الى قديس .

ولكن دون أن تتحول الكونفوشية الى عقيدة دينية تنضاف الى قائمة الأديان العالمية المعروفة لأنها بقيت كمذهب أخلاقي حكيمي .

على أن كونفوشيوس كان يتصرف أحياناً بالاستناد الى شيء من التذاهن مع السماء . فعندما واجه تهديد في موضع يقال له جوانغ قابل التهديد بقوله :[١٢]

ان كانت السماء تريد تدمير الحضارة فليس في وسع الأجيال المتأخرة أن تساهم فيها . وان لم تكن تريد ذلك فماذا في وسع أهل جوانغ أن يفعلوا بي .

وصرح بما هو أصرح من هذا حين أعلن أن السماء عرفته وأنها تقبلت جهاده .[١٣] وهو اعلان يذكرنا بافادة مقاربة نسبت الى سقراط . ومعروف على أي حال أن النبوة اختصت بالساميين ولم تعرفها أديان ومذاهب الشرق الأقصى ، فإعلان كونفشيوس لا يترتب عليه أكثر من علاقة صوفية من الغرار الشائع في التصوف القطباني .

التعليم هو لب المذهب الكونفوشي ، ولكن للصفوة من الناس لا للعموم بالضرورة وغرضه توفير كوادر متعلمة لادارة الدولة بأسلوب متحضر . فالدولة لا يجوز أن تدار بالأميين والبدو لأنها أداة تمدين للمجتمع وتقويم للشعب ولا يقدر على ذلك إلا المتعلم . واشتراط التعليم للمديرين والمسؤولين يعني توزيع المسؤوليات حسب الكفاءة لا بالوراثة تبعاً للسائد في الحكومات الارستقراطية . وبالتزام هذا المبدأ كانت امتحانات الخدمة المدنية في الصين القديمة من الظواهر الثقافية الكبرى التي اقترنت باتساع نطاق الثقافة والتحصيل العلمي محثوثاً بالمباراة لدخول الخدمة الحكومية في بلاد مترامية الأطراف معقدة الادارة متعددة الوحدات الادارية والمؤسسات العامة . وقد ساعدت الامتحانات على اخراج المعرفة من مجالس الصفوة لتشمل الجمهور الذي صار بوسعه دخول المباراة بعد إلغاء قيد الوراثة في تولي المناصب .

والى الكونفوشية يرجع في المقام الأول تنظيم المجتمع الصيني بالشكل الذي سار عليه حتى العصر الحديث . وتنظيمها تراتبي طبقي

يخضع فيه الشعب للحاكم والمرأة للرجل والأبناء للآباء والأخوات للاخوان. والاخوان الصغار للاخوان الكبار. وهو من أشد المجتمعات الأبوية انغلاقاً وقسوة على المرأة ولا نجد له مثيل في المجتمعات السامية، بما فيها المجتمع الاسلامي ، حيث وفر المجتمع الأبوي للمرأة منافذ جعلت لها حضورات معينة في مفاصل التطور الاجتماعي كما في الحياة اليومية.

ونصت تعاليم كونفشيوس وأتباعه على مبدأ الطاعة الغير مشروطة للحكام (مقابل مبدأ الطاعة المشروطة في الاسلام) ، لكنه حمّل الحكام تبعات الفساد والخطأ إذا صدر عن الرعية . فقد سأله أحد الحكام : ماهو فن الحكم ؟ فأجاب : الحكم هو التقويم . إذا أنت مشيت على الصراط فمن يتجرأ على تنكبه ؟ وسأله أحد مريديه عما ينبغي أن يفعل وقد أزعجه اللصوص فأجاب : فقط إذا حررتهم من الرغبات (الحاجات !) ، لن يسرقوا . وعارض اللجوء الى القمع لتقويم الأخلاق العامة فخاطب أحد الحكام بقوله : أنت هنا لتحكم لا لتقتل . إذا رغبت في الخير فسيكون الناس أخيار(١٤) .ونقف في هذه الأقوال على أقدم مثال للمبدأ الذي يجعل الحكومة مسؤولة عن الأخلاق العامة صلاحاً وفساداً ، وبمقتضاه تفسد أخلاق الناس إذا فسدت السياسة وتنصلح إذا كان الحكام صالحين . وهو مبدأ شرقي في المرتبة الأولى حيث السلطة الشديدة التمركز هي الموجه المباشر والأكبر للنشاط الاجتماعي . وقد ذاعت الفكرة بتفصيلات زائدة على أصلها الكونفوشي في العصر الاسلامي وتمسك بها الكتاب السياسيون في توجيهاتهم للسلاطين المسلمين كالماوردي في تسهيل النظر ونصيحة الملوك .

الكونفوشية مذهب أخلاقي معني بتنظيم المجتمع دون اهتمام كبير بالطبيعة والبحث العلمي فيها ، وبتأثير عنايتها بالإنسان – ولو في حدود مبادئها الطبقية – ترعرعت في الفلسفة الصينية تلك القاعدة المعيارية التي تضع تمايز الانسان عن الحيوان في الاحساس بالعدل . وهي قاعدةتقابل تمايزه في الفلسفة الاسلامية بالعقل . ويمكننا القول

من هنا ان الانسان في التعريف الصيني هو حيوان عادل وفي التعريف الاسلامي حيوان عاقل . وعندئذ يكون ما يفصل الفلسفة عما قبلها في تاريخ الوعي الصيني هو ظهور الاحساس المنظم بالعدل . ولعلنا نجد في ذلك تفسير لإصرار معظم مؤرخي الفلسفة الصينية على اعتبار كونفشيوس ، المؤدلج الاجتماعي ، هو أول الفلاسفة ، وليس لاوتسه المستند الى نتائج التفكير العقلي في الطبيعة والانسان . ولم يهمل أهل الصين حقوق العقل على أي حال ، كما لم يهمل المسلمون حقوق العدل . فقد نعى التاويون على الكنافشة إهمالهم النظر في الطبيعة ، يعني إهمالهم العقل كمعيار للكينونة البشرية في تمايزها عن مملكة الحيوان كما في علاقتها المحتومة بالطبيعة ، واتجهوا من ثم الى التعويض عن تقصير الكنافشة باثارة مشكلات علوم الطبيعة في حدود معرفتهم بها آنذاك . وتتكافأ حصة العدل عند المسلمين مع حصة العقل كموصوفين جوهريين للانسان . وقد تكررت مفردات العدل في كتابهم الأول سبعة وأربعين مرة بمرادفيها (عدل وقسط) مقابل تسعة وأربعين مرة للعقل . لكن الأولوية تبقى في الحضارة الصينية للحس بالعدل وفي الحضارة الاسلامية للعقل ، مما يعبر عنه بالمباشر قولهم على لسان محمد : أول ما خلق الله العقل .

ترسّم كونفشيوس ثلاث مبادئ كبرى للمجتمع البشري هي :

١ - الـ تي ويعني الطقوس وقواعد السلوك .

٢ - الـ يي . ويعني الاستقامة والعدالة .

٣ - الـ رَن . وهو المروءة (الانسانية) .

وفيما عدا الأولى ، تعلن الأخلاق الكونفوشية كتجريدات يصعب لمسها في تفاصيل الحياة اليومية للفرد . وهي الى ذلك نسبية تختلف مضامينها ودلالاتها تبعاً للفئات والطبقات الاجتماعية كما تتفاوت

بحسب مراحل التطور الاجتماعي . مفهوم العدل مثلاً لا يتعارض مع مفهوم الرق . أي امتلاك الانسان للانسان . وهو مفهوم مشترك للحضارات القديمة بأسرها . وفاعلية العدل في هذه العلاقة تظهر في النهي عن اضطهاد العبيد وتحميلهم ما لا يطيقون من الأعباء مع توفير ما يكفيهم من الطعام والملبس . وهي الحقوق التي تضمنها مفهوم الاسلام للعدل من دون أن تطرح لا الكونفوشية ولا الاسلام مشروعية امتلاك الانسان للانسان إلا في وقت متأخر من نضج الفقه الاسلامي حيث نص الفقهاء على أن الرق شرع في الأصل جزاء على الكفر . وهذا التخريج طوره الفخر الرازي في القرن السادس الهجري باعتباره الرق مخالف لأصل الطبيعة التي خلقت الانسان ليكون مالك لا مملوك .

وفي الحق، لا يزال مفهوم العدل من المفاهيم الغامضة في العصر الحديث فإلى جانب أنه يطرح بصورة مقلوبة في المجتمع الرأسمالي الذي يعتبر من العدل أن يمتلك فرد واحد جزيرة في عرض المحيط وأن يقف آخر في الشارع يتسول الخبز من المارة لم يزد الاشتراكيون في تصورهم للعدالة الاجتماعية على النقد المتكامل والعلمي للاقتصاد والنظام الرأسماليين بحيث يطرحون بديلهم الفعلي المكافئ لمستوى النقد النظري . ولم يجري تعديل هام على هذا المفهوم إلا في خصوص علاقة العبودية ، التي اتفق فلاسفة العصر الحديث على عدم عدالتها ، وتم بناء على ذلك إبطالها من المجتمعات الحديثة .

على أن مفهوم العدل كان له موقع ملموس في القضاء واستخدم كمرادف للنزاهة في الأحكام . ويرجع شطر هام من كفاح الحكماء في الشرقين الأقصى والأوسط الى هذا المطلب ، الذي تعلقت به سياسات الدول من جهة وصفها بالعدل والجور . وكان جور القضاة أو خضوعهم لأمزجة أولياء الأمور لاسيما في أونة ضعف الدول هو مايثير اهتمام دعاة العدل ويشدد من سعيهم الى تقعيد المبادئ المقيدة للقضاة والضامنة لعدم الحيف والتحيز . وقد عرف القضاء الصيني شخصية

ترمز للعدل في الأحكام هو الوالي باو ، الذي كان الناس يتنظرونه كطيف أو كشخص لينصفهم من تعسف أرباب الدولة والوجهاء والمتنفذين في المجتمع . في حين وسمت عندنا شخصيات معينة بوسم العدل من أيام بابل ومشرعها حموربّي الى المأمون وصلاح الدين مع الكثيرين من الوزراء والولاة ذوي السمعة الحميدة الموسومة بالعدالة . ولم تكن عدالتهم في توزيع الخيرات المادية على الناس بل في إنصافهم لرعاياهم من عدوان المتسلطين في الدولة والمجتمع . وموضوع هذه الملموسية في مفهوم العدل هم الضعفاء وليس الفقراء . فالفقير باقي على فقره الذي لا يزال الناس يختلفون حول شرعيته ؛ بينما يتفق الحكماء والمصلحون الاجتماعيون على الانتصار للضعيف ضد القوي . وقد يكون الضعيف من الأغنياء (كما هو حال اليهود) دون أن يمنع شموله بالحماية ضد التسلط .

يتكامل مع كونفشيوس حفيده تزوسو . وكثيراً ما تختلط أقوال الجد والحفيد فيعسر فرزهما . ولا خلاف بينهما في شيء ، لكن الحفيد حظي بمريد من طراز مختلف كثيراً ما يشار إليه بوصف المؤسس الثاني للكنفشة . ذلك هو مونغ تسه ، الذي سميناه منشيوس نقلاً عن اللاتين . وقد عاش بين ٣٧١ – ٢٩٨ ق.م ترجيحاً لا توثيقاً . وتميز عن المعلم والحفيد بطغيان الوعي المشاعي / المحسوس ضعيفاً عندهما . وهو الذي فلسف مشاعية أسرة تجوو المعروفة باسم نظام البئر أو المربعات التسعة ؛ وتبناها كهدف لكفاح الحكماء ضد الحكام . ويتكامل مشروعه المشاعي مع فكره السياسي الذي يعتبره فونغ يولان من انجازات الديمقراطية في التفلسف الصيني . فقد ميز بين غرارين من الحكومات : حكومة الوانغ وحكومة الـ با . الأولى هي حكومة الملك الحكيم . والثانية هي حكومة الوانغ وحكومة (الاقطاعي) وتعتمد الأولى على الفضيلة فيخضع لها الناس طوعاً والثانية على القوة المادية فيخضع لها الناس (من فوق) لأنهم عاجزين عن المقاومة . والشعب في

مذهب منشيوس هو العنصر الأهم في الدولة وله الحق في الثورة على الحاكم الذي تنقصه الفضيلة . وكتاب منشيوس مشحون بالتحريض على الملوك والطغاة والذين يحكمون رعية جائعة وبطونهم ملأى ، من الذين سيذكرهم المعري بعد أكثر من ألف سنة.

ان العراق وان الشام من زمنٍ صفران مابهما للملك سلطان
ساس الأنام شياطين مسلطة في كلّ قطرٍ من الوالين شيطان
من ليس يحفل خُمْصَ الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

من هنا وصف منشيوس من طرف بعض دارسيه الحدثاء بأنه فيلسوف يساري في السياسة يميني في الأديولوجيا (بوصفه كونفوشي) . وينبغي أن لا يصدمنا هذا الوصف ، لأن الاديولوجيا الواحدة تتحمل مواقف اجتماعية متباينة .

وعني منشيوس بالبحث في فطرة الانسان وهل هي خيرة أم شريرة . وقد تحدث عن ثلاث مذاهب فيها كانت على عهده :

١ ـ ان فطرة الانسان لا خيرة ولا شريرة .
٢ ـ انها قد تكون خيرة أو شريرة .
٣ ـ ان فطرة بعض الناس خيرة وفطرة بعضهم شريرة .

وذكر أن المذهب الأول قال به معاصره كاوتسه . ويقول فونغ يولان ان المذهب الثاني يثير مسألة تداخل الخير والشر في الفطرة البشرية . وهو المذهب الذي اختاره القرآن وعبر عنه بـ النطفة إلا مشاج أي المزدوجة المتداخلة العناصر . أما مذهب منشيوس نفسه فيقوم على عدم مطلقية وجود الخير في الفطرة رغم ميله الى تزكية الانسان (في مقابل الحاكم) وقال ان في الانسان عناصر خير وشر محايدة : تكون خيرة

بالتربية وتكون شريرة بالاهمال وعدم السيطرة عليها . وأشار الى أن هذه أمور مشتركة في الانسان والحيوان وانها تمثل المظهر الحيواني في الانسان. ومع ميله الى الخير الفطري قال منشيوس ان بعض الناس لا يولد كونفوشياً وانما يتكنفش بالتربية .

أثار فيلسوف كونفوشي آخر مسألة الخير والشر الفطريين في مناقشة مستفيضة رد فيها على الفريقين ، من المتمسكين بالخير الفطري والقائلين بالشر الفطري . قال تونغ تشونغ شو (حوالي ١٧٩ – ١٠٤ق.م) ان الانسان يولد وفيه مادة خام هي الـ شينغ (القلب). وهذه المادة الخام لا يصدق عليها وصف الخير بحيث تكون مرادفة له . ودعا تشونغ الى العناية بالتطابق الدقيق بين الأسماء والمسميات وحذر من الخلط المؤدي الى المغالطة والتشويش . قال مثلاً ان البيضة تحتوي على الدجاجة لكنها ليست دجاجة بل بيضة . وهكذا يقال ان الشينغ يحتوي على الخير والشر معاً وليس هو الخير محضاً ولا الشر محضاً . وإنما يتغلب الخير على الشر بالعقل . واستخلص من وجود العقل دليل على وجود الشر ، أو ما سماه : الأوساخ في الطاقة الحيوية للانسان ولولا ذلك لما كانت هناك حاجة الى العقل . وقال تونغ ان الخير يأتي من الفطرة لكن الفطرة لا يمكن أن تكون خيرة كلها. فالفطرة مثلاً تتضمن محبة الأب والأم . وهذه المحبة موجودة في الطيور كلها والبهائم ، ربما بشكل أفضل . لكننا لا نستطيع الحكم بأن فطرة الطيور والبهائم أجلّ من فطرة الانسان . وعن منشيوس قال تونغ أنه كان يفكر في مادة خام واطئة فيما يخص الطيور والبهائم فرسم ان الفطرة خيرة . وأنا أفكر في مادة خام عالية المستوى فيما يخص مايعتبره الحكماء خيراً ، وبالنتيجة فأنا أتمسك بكون الفطرة ليست خيرة .

من الجديد في مداخلات تونغ تشونغ شو تطرقه الى موضوعات الطبيعة والميتافيزيقيا لأول مرة في تاريخ الكنفشة . وقد استمر هذا التقليد من بعده ليضيف عنصر جديد على فلسفة المعلم التي تحاشت الخوض في المعضلات الفلسفية البحتة . ويمكن اعتبار هذا التطور

تمهيد لمنعطف هام ستنزج فيه الكونفوشية ، بعد وقت ، بولادة مدرسة سماها الباحثون الحدثاء كونفوشية جديدة واسمها الأصلي «تاوْ شْيه» حرفياً : دراسة التاو . وهي مزيج من تاو لاوتسه ولي كونفشيوس ترجع بدايته الى النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي . وقد خلفت لنا فلاسفة لامعين جمعوا بين الحكيمية التاوية والتعمق في الكونيات . ويمكن البدء فيها مبكراً مع تشانغ تساي المتوفى عام ١٠٧٧ م وقد تحدث عن الـ تاي تجي – الكائن الأسمى ، الكينونة المطلقة – التي تنتج الين (السالب) واليانغ (الموجب) وقال : ان الواحد لا يتمظهر إلا بالاثنين واذا كان الواحد غير متمظهر فان وظائف الاثنين تتوقف . وان الـ تاي تجي يتجسد في مزدوجات . الخواء (شو) مقابل الصلادة شيْه . الحركة مقابل السكون . التكثف مقابل التخلخل . النقاء مقابل الكدورة . وهذه كلها تنخفض في التحليل الأخير الى واحد . وهذا الواحد يوحده الانسجام العظيم (تاي خو) الذي هو معنى من معاني الـ تاي تجي .

وتحدث تشانغ عن الـ يْيَهْ ما – الهواء المتجول – أو الأثير المتراكم الذي يتشكل وقت الربيع في المناقع والمراطب وهو المسمى في الصينية تشي وتعني الغاز أو الأثير . والتشي يتخلخل ويتكاثف . وإذا تخلخل اختفى عن النظر . وإذا تكاثف ظهر على صورة الأشياء . وتكاثفه بحيث يكون منظوراً بعد أن تخلخل وتوارى يدل على ان الوجود موجود والعدم لا وجود له . ومايسمى الفراغ العظيم – في الصينية الحديثة يطلق على الفضاء – ليس فراغاً في الحقيقة بل هو مملوء بالأثير (بالتشي الخفي) وهذا الخفي يتكاثف فيشكل الملموسات ، والملموسات تنفرط لتشكل الفراغ العظيم في دورة محتومة لا تتوقف .

ومن قدماء فلاسفة التاوْشْييهْ شاويونغ (١٠١١ – ١٠٧٧) وكان يقول بوحدة العالم المادية المسيرة بالروح الحيوي . وان الكون مؤلف من أعداد يتطور على أساسها . وقال ان الروح الحيوي للسماء يأتي من الشمس ، وللانسان يأتي من القلب في اليقظة ومن أعضائه التناسلية في النوم . وان الشمس هي الكون الأكبر جاءت من اللامتناهي ، وكذلك

المحدود من اللامحدود . وفي حياته الاجتماعية سلك شاو يونغ نهج الحكيم التاوي الذي يعتزل الحكام والناس من دون أن ينفصل إلا عن الحكام . وقد أعطاه ذلك هيبة في قلوب أهل بلده الذين كانوا يحذرون بعضهم بعضاً من التعدي وارتكاب الأخطاء لأن الحكيم شاو يعلم بهم ويزعل عليهم . ويعتبر تجو شي (١١٣٠ - ١٢٠٠م منضج العقلانية في التاوشييه . ومطلقة ؛ الكائن الأسمى - الكينونة المطلقة - يشتمل على المبادئ التي تحكم الحركة والسكون وبسببها يقبل الأثير التحولات حيث ينشط فيصبح أثير يانغ (الموجب) ويركد فيصبح أثير ين (السالب) . وفي تناوب الحركة والسكون يكمن جذرهما : ثمت حركة فسكون ثم سكون فحركة . ينفتحان وينغلقان ، يأتيان ويذهبان ، يعقب أحدهما الآخر دون توقف . وثمت انقسامان الى ين ويانغ وصورتان تنشأن عليهما وهاتان هما السماء والأرض . وحين تكون السماء والأرض في حالة عماء ، لا تمايز ، يكون الأثير (ين) والأثير (يانغ) متمازجين وغامضين . وبانفصالهما (الأرض عن السماء) يقع الانتشار و (الاستنارة) ومن ثم تنشأ الصورتان .

أما أصل النشأة فيراه تجو شي في الماء والنار ، اللذين يكونان قبل كون الأشياء أي حين يكون العماء واللاتمايز . وقد تكونت الأرض من ترسب الماء . وأقام على نظريته دليل حسي فنبّه الى أن من صعد الى مكان مرتفع وأطلّ منه على جبال وتلال رآها تجري على شكل أمواج . واستخلص من هذا أن الماء قد جرى في رؤوس الجبال قبل أن ترتفع وترسو في مكانها .

في الجزئيات فرّق تجو شي بين التشي والـ لي . وقال ان الـ لي يعطي الشيء طبيعته ، أما التشي فيعطيه شكله . وهما لا ينفصلان وليس لهما بداية وقال ان الناس والأشياء تتلقى في لحظة نشوئها لي - ها الخاص بها حتى تتحدد طبيعتها . وانها تتلقى التشي من أجل أن يكون لها شكل . واختلاف الأشياء يرجع الى اللي . فالورقة والزهرة يجسدان تكاثف التشي على السواء لكن ذلك لا يفسر اختلافهما . وانما

يختلفان باختلاف اللي حيث أن الزهرة تتكون بموجب لي – ها الخاص بها . وكذلك الورقة .

ينبغي أن يكون اللي هو ماهية أو صورة الشيء . والتشي هو مادته . لكن كلام تجو شي عنهما يتردد بين التجريد والملموس ، فهو يقول ان لكل شيء لي ، وجد هذا الشيء أم لم يوجد . وفي السؤال عن الأشياء التي يخترعها الانسان يجيب ان السفينة مثلاً لها لي وان اللي موجود قبل اختراعها ، الذي لا يتعدى اكتشاف الانسان للسفينة . وقال ان اللي خالد وكامل ، لا يزيد ولا ينقص ، وهو ليس واحداً وإنما لكل شيء لي . ويُشم من هذه الأوصاف رائحة المثل الأفلاطونية ، لكن تجو شي لا يضع اللي في عالم المفارقات ، إذ هو موجود في الأشياء ولذلك قال انه لا ينفصل عن التشي ، بينما المثال الأفلاطوني مفارق .

وتمسك تجو شي بالمبدأ التاوشيوي الذي ترجع اليه الأشياء وهو الكائن الأسمى ، مبدأ السماء والأرض وقال ان المبدأ يقف فوق الأثير إلا أنه غير متقدم عليه في الزمان . ولو أن المرء مضطر عند التوغل في حقائق الأشياء الى الاقرار بأسبقية المبدأ .على انه يعود فيؤكد ان الكائن الأسمى مسبوق بكون آخر ، تماماً كما أن ليلة أمس تمر الى نهار اليوم. وان المبدأ هو ضمن الأشياء التي لا تنوجد بدونه أي بدون أن يحل هو فيها . فالمبدأ حالّ في السماء والأرض وفي الجزئيّات بأسرها الى جانب اللي . وحلوله فيها لا ينتقص منه ولا يجزئه فهو كالقمر الذي يحل ضوئه في الأنهار والبحيرات وجميع البقاع من دون أن ينتقص ذلك من وحدته . وهكذا يصل تجوشي بعد القول بأسبقية المبدأ الى ادماجه في الموجودات ، في توصيفات مقاربة لتلك التي كان معاصروه المسلمون قد أخذوا يصوغون بها مذاهبهم في وحدة الوجود . ولكن مع اختلاف في هوية الكائن ، فهو في الفكر الصيني غير مشخص أصلاً وفي الفكر الاسلامي يمر عبر التشخص في رحلة حذرة تجتاز الأسلاك الشائكة اللاهوتية قبل التوصل الى إعادة دمجه في المادة . ويمكن أن نلمح كذلك في تقريرات تجوشي أن أسبقية المبدأ أسبقية بالذات كان المشاءون

المسلمون قد وصفوا بها الباري - محرك أرسطو الأول - مع الاتحاد في الزمان . ويبقى الفرق بين المحرك المشائي الاسلامي والمبدأ التاو شيوي في التشخص أيضاً . إذ المحرك الأول متشخص كما عرّفه أرسطو والباري كذلك بوصفه النسخة الاسلامية للمحرك الاغريقي بينما المبدأ في التاوشييه مطلق التجريد .

وفي نَشْكَونية بالغة التعقيد ، يحاول التاوشيوي وولِن تجوان (١٢٤٩ - ١٣٣٣ م) ان يتابع دورات الكون فيقسمها الى يوانات كل يوان يعادل ١٢٩ ألف سنة و ٦٠٠ سنة . (يوان في اللغة الصينية تعني الدائرة) . ويقسم اليوان الى ١٢ خوي (خوي بسكون الخاء : اجتماع) كل خوي يعادل عشرة آلاف و ٨٠٠ سنة . وحينما تتم الأرض والسماء في دورانها أحد عشر خوي تتوقف الأشياء بأسرها عن الانتاج وتتلاشى الكائنات مابين السماء والأرض حيث تبدأ فترة تسمى (شو) تستمر خمسة آلاف وأربعمئة سنة حيث يحل منتصف الخوي الثالث عشر ويسمى (خاي) ، وفيها تتبدد المادة الثقيلة والكثيفة التي كونت الأرض وتصعد الى المادة الرقيقة التي كونت السماء فتتحد معها في كتلة واحدة تسمى (خون - تون) وتعني الشواش ، والعماء . وفي نهاية الخاي تكون المادة قد وصلت الى حالتها الأشد عتمة وكثافة .

عند نقطة تسمى جينغ تبدأ الحقبة الكبرى الثانية ويفتتح عصر جديد . انها بداية الخوي الأول المسمى تزو . وفيها يبقى الشواش الغير متخالف فيدعى البداية الكبرى والواحدية الكبرى . ثم يتسع النور بالتدريج ، وبعد خمسة آلاف وأربعمئة سنة أي في منتصف التزو ينفصل الجزء الأنور من الكتلة ويشتد مشكلاً الشمس والقمر والسيارات والثوابت . وهذه علامات السماء . ثم تمر ٥٤٠٠ أخرى ويأتي التزو الى نهايته . وهكذا يقال ان السماء انفتحت (تقومت في التزو) . على أن الأجزاء الثقيلة من التشي رغم أنها لابثة في المركز لم تتكاثف بعد لتشكل الأرض ، التي بدورها لم تتوجد بعد .

عندما يحين منتصف الخوي الثاني ويسمى تشو ، يتكاثف التشي الثقيل مكوناً الأرض والصخور ويصبح جزئهما المائع ماء يجري ولا يتصلب ، بينما يصير جزئهما المُهْلي نار دائمة الاشتعال . ان الماء والنار والتراب والصخور لكل منها صيغتها الخاصة بها وهي الصيغ التي تتقوم الأرض من جملتها . وبهذا يقال : الأرض انفتحت أي تقومت في التشو . بعد ٥٤٠٠ سنة أخرى ينتهي التشو . وبعد ٥٤٠٠ أخرى يحين منتصف الخوي الثالث وهو المسمى ين . وعنده يبدأ الانسان بالتولد بين السماء والأرض . وبهذا يقال : الانسان يولد في الين . الين هو السالب وهو المؤنث ويقابل اليانغ وهو الموجب ، الذكر .

ليس الكون إلا هذه الدورات . لكننا نعرف اليوم ان الأرض هي احدى الكائنات الكونية التي تشكلت من الخفيف المتكاثف والمنصهر المتصلب وانها ستنتهي يوماً . لا لتحل أرض أخرى في مكانها بل لأن أرضين أخرى في أماكن أخرى من الكون كانت قد تكونت أو انحلت كما تكونت الأرض وانحلت . لا يعوز وولن تجوان لكي يضع نظرية علمية في النشأة سوى المكتشفات اللاحقة في الفلكيات والفضائيات . أما عبقريته الحدسية فأعطت كامل تجليها في هذا التحليل الدقيق لدورات الكون من دون ان يشفعها إلا معرفة فلكية وفضائية شحيحة في زمانه . وحدس الفلاسفة كثيراً مايسبق كشوفات العلماء . فقبل الفيلسوف الصيني وو لن تجوان تحدث الفيلسوف الاغريقي انكساغوراس عن حقيقة القمر بطريقة علمية قبل أن يتوصل ابن الهيثم الى صنع العدسات ، التي سيصنع منها غاليلو مرقبه الفلكي الأول . وقد تم هذا لانكساغوراس حين كان مواطنوه الاغريق يعبدون القمر كمظهر إلهي .

شون تسه :

فيلسوف يفرده المؤرخون لأنه لا ينتمي الى مدرسة كما لم يؤسس مدرسة وترك تأثيرات هامة سلباً وإيجاباً . ومنطلقه كونفوشي إلا أنه ابتعد وأوغل في مقولات خاصة به . ازدهر في ٢٩٨ – ٢٣٨ ق.م .

واشتهر بكونه من قضاة دويلة تشو - من الممالك المتحاربة . اسمه الكامل شون تشينغ وشهرته شون تسه على الطريقة المتبعة في تسمية الفلاسفة . وهو فيلسوف اجتماعيات وطبيعيات وقد أنكر أن تكون للسماء قوة إلهية ونفى وجود مصدر كلي للكون والعالم . وقال ان السماء هي تجميع لظواهر طبيعية وليست لغزاً سحرياً . لكنه أقر أنها تمثل المبدأ الفعال الغير مرئي والغير مدرَك ، والذي يتوغل في أوصال الوجود ويوجد في جميع الأشياء . وقال ان هذا يكفي لمعرفة السماء دون حاجة الى مزيد من النظر .

وفي بحثه لمراتب الموجودات بيّن شون تسه أن الماء والنار لهما أرواح لطيفة وليس لهما حياة . والنباتات لها حياة ولكن بلا إدراك وان الطيور والحيوانات لها إدراك ولكن بلا إحساس بالعدل . والانسان يملك هذه المراتب كلها ولذا فهو سيد الكائنات الأرضية . وهذا الترتيب كما يلاحظ نيدهام مشابه لترتيب أرسطو ، الذي يسبق شون تسه بنصف قرن ، من دون أن يكون أحدهما قد أخذ من الآخر (١٥).

والمعرفة عند شون تسه تبدأ من الحس وهي خلاصة الخبرات الحسية للانسان. والحقيقة تدرك بتقليص الأشياء الى الوحدة ، أي بالتركيز . ان الانسان العادي يضاعف الأشياء ولذلك تكثر أخطائه . والعاقل يقلصها الى وحدة يحكم فيها الأشياء . والتركيز عسير ولذلك تكثر الأذهان التحليلية وتقل التركيبية وهو السبب في ندرة الحقيقة ، التي تتجلى فقط في العقل المركّز، الخليّ والساكن ، وتكشف عن نفسها بالحدس الفجائي كإيماضة البرق . وقال شون تسه ان العقل هو مصدر الحكم على الأشياء ولا يجوز قبول ما لا يقبله العقل . ولاحظ أن الخطأ مقصود في الغالب لأن الناس يرفضون الحقيقة عن رغبة ومن هنا دعا كونفشيوس الى الإيمان دون الجدال لأنه يعرف أن الجدال لا يوصل الى القناعة مع هذه الحواجز التي تمنع الناس من القبول بالحقيقة .

وعارض شون تسه البحث النظري وفضل عليه الصناعة والتكنولوجيا . كما انتقد الإسراف في المفاهيم المجردة والمغالاة في

دراسة المنطق وقال ان الحكيم هو من لا يفتش عن السماء . ودعا الى مجابهة الطبيعة وكوارثها بتعزيز الصناعة. وقال شون تسه بالشر الفطري وعارض كونفشيوس ومنشيوس في الفطرة الخيرة . لكنه أقرّ بإمكان اصلاح الفطرة ولذلك وافق على الفضائل الكونفوشية إلا أنه دعا الى فرضها بالاكراه لان الخير مصنوع لا مطبوع ولا يمكن إصلاح الانسان إلا بالتنظيم الاجتماعي المرعي من الدولة . وقال أن الحكام العقلاء يعرفون ان الشعب يمكن أن يتحد بالتاو الملكي فهم يهدونه الى الحقيقة بالبيان الكاشف عنها ويردعونه عن الانحراف بالعقوبات . وهذه الطريقة تعادل في نجاعتها السحر الإلهي . وقال ان الناس يحبون ويكرهون نفس الأشياء وان رغباتهم عديدة متضاربة بينما الأشياء قليلة شحيحة مما يسبب النزاع ، وعلاج ذلك هو اللي (قواعد السلوك) والـ يي (الاستقامة والعدل) وهذه من وضع الحكام. وتطرف في تأكيد دور السلطة فنقله الى ميدان المعرفة . وفي تعليقه على براهين المنطقيين قال في كليّانية فاضحة انها مغالطات سببها عدم ظهور ملك حكيم يوحد العقول بسلطته ويكشف درب الحياة الصحيح لكل الناس .

وقد هاجمه كتاب معاصرون اعتبروا أفكاره علامة سقوط مريع لأمجد حقبة في الفكر الصيني . ويقول مستشرق متصين ان شون تسه مسؤول عن ادامة عزلة الصين وأفكاره تجسد خوف الحكومة الصينية من الأشياء والأفكار الجديدة وأنه مسؤول عن عدم نجاح المسيحية في الصين بسبب فلسفته الرافضة للبدعة والتجديد.(١٦) وهذه من تعميمات المناهج الغربية السائدة اليوم . إن فيلسوف واحد لا يسعه التحكم في مسار تطور حضارة بأكملها . لاسيما وأن أفكار شون تسه لم تتحول الى مدرسة وإنما عاشت كأفكار فيلسوف فرد تتفاعل وتتصارع مع فلسفات أخرى كان فيها ماهو أبعد نفوذاً منه .

على أن الأثر السيء لفلسفة شون تسه قد تجسد في تلميذه هان فَيْي ، فيلسوف الشرائعية الأكبر . والشرائعية (فاجيا) مدرسة فلسفية ظهرت في القرن الرابع ق.م في حقبة الممالك المتحاربة التي اتسمت

بحالة الحرب بين الدويلات لأجل السيطرة والتوسع على حساب بعضها . ويفسر الأستاذ فونغ يولان ظهورها بالحاجة الى الخبرة بالحرب والتسلك في تلك الأوضاع حيث تطلب الأمر وجود نصحاء ذوي أفكار عملية الى جانب الملوك والأمراء يرسمون لهم وسائل الحكم الناجعة . وهنا ، كما يقول فونغ يولان، ظهر الشرائعيون حيث لا ضرورة لأن يكون الملك حكيم بل يكفيه أن يكون عارف بالسياسة وفن الحرب والتوصل الى النجاح بأساليب سهلة.

هان فـيْي (٢٣٣ ق.م) : منحدر من سلالة بيت مالك وعلاقته بالسياسة اليومية أوثق منها بالحكمة . وعنده الدولة تتطلب ثلاث مقومات :

(فا) وهو القانون .

(شو) فن ادارة الأشياء (الدهاء) .

(يِيهْ) السلطة أو القوة .

وهذه الثلاثة يجب أن تجتمع في الملك . والفا مرهون بالييه ، لأن الدولة يجب أن لا تعتمد على الاقناع والتثقيف ، الذي دعا اليه كونفشيوس وشون تسه . وعلى الملك أن يتقيد بالقانون لا بالفضيلة . وردد هان فيي كلمات معلمه : قليل من الناس يفعلون الخير من تلقاء أنفسهم فلابد من القانون الرادع للخطأ . وفطرة الانسان شريرة ومن المتعذر عليه أن يهتدي بغير السلطة والقانون الى إدراك ما يضره وماينفعه . وعلل الصراع الاجتماعي بأنه نتيجة لكثرة السكان وشحة الخيرات . وقال ان الناس حين كانوا قليلين كانوا قادرين على اشباع حاجاتهم فلم يكن بينهم نزاع . وهذه استشرافة لمجتمع غابر قد يكون هان فيي تعرف عليه ، قليل السكان خالي من الصراع . وهي صفة المجتمع البدائي . لكن هان فيي لا يدعو الى فضائل ذلك المجتمع كالتاويين فهو لا يوافق على الارتداد في التاريخ بل كان يقول بالتقدم وبأنه ممكن أن تتغير الظروف من دون أن يحدث خلل إذا، أمكن وضع

حلول جديدة لكل ظرف جديد . والشرائعيون مع تبدل الأحكام تبعاً لتبدل الأزمان . ومن هنا تقدميتهم التي تمسكت بها الستالينية الصينية في تأوجها الذي تمثل في الثورة الثقافية .

طرح هان فيي والشرائعيون مطالب تسلطية يتعين اتباعها لتأمين نمو المجتمع ورسوخ أمن الدولة . قال شانغ يانغ : الموظف يجب اختياره بسبب لا رحمته. ان الموظف الفاضل يجعل الناس يحبون علاقاتهم الخاصة . أما الموظف الشرير فيجعلهم يحبون القوانين . وقال آخر هو جانغ تشون شو : ان إزاحة القوي بواسطة القوي تجلب الضعف . وإزاحة القوي بواسطة الضعيف تجلب القوة . يعني كما يفسره الأستاذ نيدهام ان الاستناد الى شعب قوي لإزاحة الاقطاعيين المتنفذين وتعزيز سلطة المركز يضعف الحاكم فيجب أن يحكم الأمير شعباً ضعيفاً (١٧). وهذه أفكار تشكل محور وصايا مكيافللي ، الذي ظهر بعد ماركوبولو بأكثر من قرن . ويؤكد هان فيي : الناس يخافون العقوبات القاسية ويكرهون العقوبات الباهظة . وتبعاً لذلك يدعو الحكيم الى اتباع مايخافون وإتيان ما يكرهون لضمان سلامة الدولة ويستطرد هان فيي : أنا أعرف من هنا جيداً ان الحق والحب والعطف والاحسان لا تستحق الالتفات . وعدّد الشرائعيون ست وظائف اعتبروها طفولية وحذروا منها هي :**١ - التفكير في العصور القديمة . ٢ - العيش على الاخرين . ٣ - الجمال . ٤ - الحب . ٥ - الطموح . ٦ - السلوك الفاضل**(١٨) . والدولة المثلى عند الشرائعيين هي دولة تسلطية تتحاشى :

دراسة الشعر الغنائي - التاريخ - الطقوس - الموسيقى - طاعة الوالدين - الواجب الأخوي - الثقافة الأخلاقية - الاخلاص - الايمان - العفّة - التكامل - الاحسان - الاستقامة - نقد الجيش ، والخجل من القتال . أي جميع ما بشرت به المدارس الفلسفية الصينية قبل الشرائعيين وبعدهم .

كان للشرائعية عصر ذهبي قصير استغرق أسرةتشين التي وحدت الصين للمرة الأولى ودامت مابين ٢٢١ - ٢٠٧ ق.م ، أي أقل من خمسة عشر عام . أسسها تشين شي هْوانغ ، المعدود أول امبراطور صيني ،

وكان على مذهب هان فيْي . وذهب فيه الى مدى يدرجه في عداد السفاحين الكبار في التاريخ ، الى جانب نيرون والحجاج وهتلر والنوادر من أمثالهم في حياة الشرق والغرب (١٩). وشهد عهده القصير مذابح لا نظير لها في تاريخ الصين أبيد في احداها قرابة نصف مليون . وجعل القتل عقوبة على الرأي المخالف مهما صغر . ودفن العلماء الكونفوشيين أحياء لأنهم نادوا بتقديم التعليم على العقوبة . وقد سقطت امبراطورية تشين بعد أقل من خمسة عشر سنة أمام حلف واسع من حكام الممالك الصغيرة والفلاحين يفترض أنه مدعوم بحكماء المدارس الفلسفية . ولم تقم للشرائعية بعدها قائمة بعد ان أوصلتها فلسفة البطش الى درب مسدود . على أنها حظيت في العصر الحاضر بتقييم ايجابي من الفكر السوفييتي والصيني الماوي . واعتبرت فلسفة تقدمية بالاستناد الى مقولاتها عن التغير في الظروف وما يستتبعه من تبدل في الأحكام . وقد علا نجمها في الثورة الثقافية الصينية ، التي حرمت التراث الصيني – الأدبي والفلسفي – عدا التراث الشرائعي . وحاولت جماعة الأربعة بزعامة تشيانغ تشينغ زوجة ماو الأخيرة تطبيق عنف شرائعي في سنوات الثورة الثقافية إلا أنها اصطدمت بموقف شو إن لاي ، الذي احتفظ بمنصبه في تلك الأيام العاصفة وساهم بدوره في كبح جماح الشرائعيين الجدد . كما أن ماوتسي تونغ ، الذي حبذ المذهب الشرائعي نظرياً ، لم يسلس العنان للقمع الدموي وشدد في توجيهاته الى حرسه الأحمر على حسم الأمور بالتي هي أحسن .

الموهية ، الموهية فلسفة موتسه (حوالي ٤٨٠ – ٤٢٠ ق.م) : واحدة من أقدم المدارس الفلسفية في الصين وتشكل تيار مستقل عن المدرستين الأكبر للكنافشة والتاويين . حاولت الجمع بين الفلسفة السياسية والعناية بالمنطق . وفي السياسة عارض موتسه الحروب العدوانية وأجاز حروب الدفاع ، وهي الوجهة التي سيتخذها المعري في اللزوميات ، ودعا الى تشكيل قوة للدفاع عن الدول الصغيرة ضد الدول الكبيرة .

وكانت هذه أول خطة لإنشاء تنظيم دولي من طراز عصبة الأمم وهيئة الأمم مع الأخذ في الاعتبار فروق الدوافع الأخلاقية التي تملي على فيلسوف خطة سلم عادل قلما تدخل في حسابات الدول . وتقوم سياسيات موتسه على مبدأ الحب البشري كبديل عن حالة الحرب التي كانت سائدة في زمانه بين ممالك الصين . وكان يقول ان جميع بني البشر ؛ من أغنياء وفقراء ، نبلاء وعاديين ، هم رعايا السماء ، وان جميع الممالك صغيرها وكبيرها هي ممتلكات سماوية ، ويجب عدم التمييز بين انسان وانسان أو بين دولة ودولة . وقال موتسه : ان السماء تمقت الدولة الكبيرة التي تهاجم الدولة الصغيرة ، والبيت الكبير الذي يؤذي البيوت الصغيرة ، والقوي الذي يظلم الضعيف ، والذكي الذي يخدع البسطاء ، والنبيل الذي يزدري العوام . وفي نفس الوقت فإن السماء تمجد الذين لهم طاقة عمل من أجل الآخرين ، والذين يعرفون السبيل القويم فيدلوا عليه الآخرين ، والذين لهم ثروة يشاركون بها الآخرين . وتحدث موتسه عن الثواب والعقاب كوعد سماوي ولكن من دون أن يبين متى وأين . والملاحظ هنا أن عقيدة الآخرة لم تتبلور في الشرق الأقصى كما هي في الشرق الأوسط .

تبدو أفكار موتسه عن الحب والتعاطف كما لو أنها سلف الموعظة اليسوعية. وهي كذلك في الحقيقة . لكن المسيح تجاوزها بتحديد عملي تقوم به حركة جماهيرية تستهدف إقامة مجتمعات أو معاشر تدار جماعياً خارج سلطة الدولة . فهي عند المسيح فكر اجتماعي وعند موتسه فكر ديني وان كان الهدف في الحالتين هو خدمة فكرة المساواة .

كذلك تفتقر أفكار موتسه الى حيوية الفكر التاوي بالنظر لغلبة منحى الوعظ الأخلاقي المجرد مقابل ملموسيات عنصر التحريض والتمرد الذي اتسمت به كتابات لاوتسه وخلفائه .

الانجاز الأميز في فلسفة موتسه هو الخوض في قضايا المنطق ، الذي تجنبته الكونفوشية والتاوية . وفي معرفياته (الابستمولوجيا) اعتمد موتسه على الاستقصاء التجريبي للوقائع باعتبار أن الحقيقة هي نتاج

مباشر للمعطى المادي الملموس . وأكد موتسه على التعريف بالاسم للوصول الى المجانسة بين معنى الشيء ومضمونه الواقعي . ووضع الموهيون تعريفات للمصطلحات الفلسفية من أجل ضبط الفكر عند البحث في قضية معينة ، فتحدثوا عن المحدود واللامحدود والوجود واللاوجود ، والحق والباطل والمحاكاة والمقارنة والتوازي ، ودخلوا في محاكمات منطقية تستند الى هذا التقنين للألفاظ ومدلولاتها . ومنه قولهم: اللاوجود لا يتوقف ضرورة على الوجود والسبب هو في وجود اللاوجود . لنفرض أن ليس ثمت خيول . هنا يمكن القول أن الخيول تليّست بعد أن تأيّست . لكن انهيار السماء هو شيء غير موجود بالفعل، فيمكن أن يقال أنه غير موجود بدون أي وجود أصلاً . كذلك : يمكن أن يكون ثمت لاشيء ، لكن ماوجد من شيء لا يمكن أن يزول ، والسبب هو أنه قد دخل في حيز الوجود ، فإذا كان ثمت لاشيء فإن ماهو كذلك الآن انما هو شيء قد حصل ولا يمكن أن لا يكون موجوداً .. وهم بذلك يميزون بين العدم والعدم المطلق بحيث نقول مثلاً أن ابن طفيل موجود ولكنه ميت . بمعنى أنه وجد فعلاً ، وموته لا يُعدم وجوده . لكن حي بن يقظان غير موجود لانه لم يوجد أصلاً . أي ان فعل الوجود لا يسري عليه .

واستخدم الموهيون مايقرب من القياس الشكلي لمنطق ارسطو ، دون أن يطلعوا عليه بالطبع ، ففي رد على دعوة لاوتسه لعدم نقد الآخرين جاء مايلي :

في العرض الأول : ان ادانة النقد متضاربة ، السبب معطى في . . . ان لا تقوم بادانة .

وفي العرض الثاني : أن تدين النقد هو أن تدين الادانة الخاصة للمرء . وإذا لم يقم هو بادانتها فلن يبقى مايكون مدان . ومتى مالم يستطع المرء ادانتها فذلك يعني أن لا تدين النقد .

وتدخل هذه المحاكمة الشكلية جداً في باب السفسطة والعناد ، وان تكن ترتبط بمغامرة مبكرة - تسبق عصر سقراط في اليونان في خوض المحاكمات المنطقية وصياغة طرائقها .

وتحدث الموهيون عن التماثل المتبادل في الأشياء من جهة أن كل مجموعة من الأشياء المتماثلة لها فا واحد . (الفا : القانون) يشمل كل جزئيات تلك المجموعة . فالمربعات مثلاً تتشابه كلها والسبب معطى في التربيع وهو فا – ها الخاص بها ، لكنها تختلف في مادتها ؛ فبعضها من خشب وبعضها من حجر من دون أن يترتب عليه اختلافها في التربيع . ولمعرفة ماتختلف فيه الأشياء وما تأتلف فيه ينبغي أولاً تحديد الفا . ويمكن اعتبار الفا مقابل للماهية في مباحث المسلمين ، لكن تجريبية الموهيين منعتهم من التوغل في بحث الماهيات وقد اقتصروا في التعريف على الاسم دون الحد مما يقربهم من مباحث الرسم عند الأصوليين المسلمين الذين صدروا عن تجريبية مماثلة . وفي هذا الصدد نقرأ :

الفا يحدد بشخص الشيء معبراً عنه بالاسم . . إذا كان الاسم واضح فالموجود معرّف جيداً ومتمايز عن الغير . هذا هذا وذاك ذاك . هذا لا يؤخذ لذاك ولا ذاك لهذا . عدم الدقة في التسمية يسبب الخطأ والتشوش . بالتسمية البيّنة يعرف المرء مايعود إليه ولا يعزو له ماليس منه . ولا يقول عن هذا ماهو ملائم لذاك ولا يعزو لذاك مايعود لهذا . . (٢٠)

وتضمن منطق الموهيين مواد تخص موضوعات العلة والمعلول . وقد ميزوا بين السبب الأصغر والسبب الأكبر فحددوا الأصغر بأنه : مالا يكون به الشيء بالضرورة على ماهو عليه . ولكنه لا يكون بدونه ، ومثاله النقطة في الخط .. والسبب الأكبر : مابه الشيء هكذا بالضرورة وما لا يكون بغيابه هكذا .. لكن مباحث السببية عند أهل الصين : لم تصل الى نضجها الذي وصلته فيما بعد على يد المسلمين .

وتطرق الموهيون الى نسبية الكون في المكان فقالوا أن حدود المكان دائمة التغير وذلك بسبب الامتداد الذي هو أس التمكن . فهناك جنوب وشمال في الصباح ، وهناك جنوب وشمال آخران في المساء . والمواقع المكانية هي أسماء لما قد مضى للتو . وتشبه هذه نظرية هيراقليطس عن

التغير الدائم مع اعطاء تفسير فيزياوي لسبب التغير وهو الامتداد ، مما لم يلاحظه هيراقليطس . والامتداد فكرة أساسية في فلسفة ديكارت إنما هو عنده من لوازم المادة . وبهذا الخصوص يلاحظ الفرد نورث وايتهيد أن ديكارت ميّز بين موجودين في الطبيعة : المادة ، وتتسم بالامتداد في الفراغ ، والعقل ، ويتميز بالتأمل . وقال وايتهيد أن ديكارت بتفريقه بين الزمان والدهر ، وبالدمج بين المادة والامتداد ، ثم بتأسيسه الزمان على الحركة إنما يستشرف في حدود ماهو ممكن في عصره ، التصورات التي ترسمها النظرية النسبية .. [٢١] صبور وكادح عقل الفلاسفة . ان الامتداد الذي هو سمة التمكن عند موتسه يصبح بعد الفين عام سمة المادة عند ديكارت حيث يدخل في المنظومة المعقدة للفلسفةالحديثة لينتهي من ثم الى آخر ابداعات العقل الفلسفي متمثلاً في النظرية النسبية ...

تتكامل مع الموهية في منطقياتها مدرسة الأسماء (مينغ جيا) التي عنيت بتحديد الماهيات بالاسم . ويقال أن رائدها رجل قانون يدعى تينغ شي من أواخر القرن السادس ق.م كان يجري فحوص دقيقة على النقاط الصغرى الضئيلة في حسابات متقنة معقدة من أجل أن يجعل من الصعب تفنيد آرائه . أما زعيم المدرسة فهو هوي شيهْ (٣٥٠ - ٢٦٠ ق.م) ، وقد دونت آرائه في كتاب ضاع معظمه ، يقول العلامة نيدهام أنه يسجل أعلى قمم الفكر الصيني وان ضياعه في أسرة الهان يجب أن يحتسب في تقييم هذا الفكر . وقد شدد هوي شيه على ان الأشياء الواقعية متبدلة ونسبية وأن الأسماء ، كما يقول فيلسوف آخر من أتباعه ، مطلقة ودائمة . وأمكن استخلاص بعض الطروحات المنطقية من الأقسام التي بقيت من كتاب الأسماء ومن ذلك طرح هوي شيه : الأكبر لا شيء خارجه ، والأصغر (لاشيء داخله) ويفسرها نيدهام بمفهوم ذري حيث الأصغر هو الجزء الذي لا يتجزأ (لاشيء داخله) . بينما يرجح صينياتي صيني هو خوشيه بانها ضد - ذرية . وأنا مع تفسير نيدهام ، فتعريف الأصغر ذري بدون لبس . أما تعريف الأكبر بكونه

وحدة واحدة وشاملة فإن هذه الوحدة تنطوي على أجزاء وقد لا تنطوي تبعاً لما فكر به الفيلسوف ، فلا موضع للجزم إن كانت وحدة الأكبر متضادة مع تجزئه .

في تحليل الأسماء والوقائع يقول هوشيه عن العبارة : هذه منضدة مايلي :

هذه : واقع ، غير دائم .

منضدة : اسم مطلق .

فالمنضدة موجودة كماهية ، أما المنضدة الجزئية فقد توجد أو لا توجد .

ويتوسع مينغ جياوي آخر هو كُونغ سونغ لونغ فيقول أن جميع الكليات المدلول عليها بالأسماء تقع في عالم ما من غير أشكال أو خواص . ومع أنه ليس جميع الكليات في ذلك العالم لها أسماء تدل عليها فإن في ذلك العالم الكل وحيد وحقيقي . وربما ذكّرنا هذا الطرح بالمثل الأفلاطونية (كونغ معاصر بالكاد لافلاطون) . وغرض كونغ هنا هو تأكيد ثبات الكلي وتغير الجزئي ، أي تقنين العلاقة بين مطلقية الاسم ونسبية الواقعي ، وتندرج هذه المداخلات في سعي الفلاسفة ، شرقاً وغرباً ، لتعيين الحدود الفاصلة بين الثابت والمتغير وتفسير دوام الوجود مع تغير الموجود.

تناولت مباحث هوي شيه وأتباعه أيضاً مسألة العلاقة بين التماثل والاختلاف على النحو التالي :

التماثل الكبير يختلف عن التماثل الصغير . هذا يسمى تماثل واختلاف صغيرين . جميع الأشياء متشابهة من جهة ومختلفة من جهة .. وهذا يسمى تماثل واختلاف كبيرين . عندما نقول أن الناس كلهم حيوانات فإننا نعترف أن جميع الكائنات البشرية متشابهة من حيث كونها حيوانات ، ومتشابهة من حيث كونها كائنات بشرية . لكن تشابههم من حيث أنهم كائنات بشرية هو على أي حال أكبر من تشابههم من حيث أنهم حيوانات لأن كونهم مخلوقات بشرية يتضمن كونهم حيوانات بينما كون الشيء حيوان لا يتضمن بالضرورة كونه

بشر لأن هناك أنواع من الحيوانات تختلف عن الانسان. وهذا الشكل من التماثل والاختلاف هو مانسميه التماثل والاختلاف الصغيرين .

وإذا أخذنا الكائنات كمرتبة كلية فإنها تتماثل، ولكن إذا أخذناها في فرديتها (جزئيتها) فإن كل فرد منها يختلف عن الآخر ، وهذا الشكل من التماثل والاختلاف يسمى اختلاف وتماثل كبيرين . وهكذا إذا كان كل شيء متشابه مع الآخر ومختلف معه فإن التشابه والاختلاف نسبيان . ويقول فونغ يولان أن هذه المحاجة تسمى في الفلسفة الصينية محاجة وحدة التشابه والاختلاف .

وللمنغ جياويين مفارقات اشتهروا بها تجري في سياق عنايتهم بالقضايا المنطقية ويبدو أنها استخدمت لتشكيل مجادلات ومحاجات تهدف الى تمرين الذهن كما تمييز المفاهيم ، وتحديد العلاقات المنطقية الغامضة بين الظواهر والأشياء ، وكانت وسيلتهم الى ضبط القضايا البرهانية دون الوصول الى تجريد القواعد بالقدر الذي تحقق في اليونان بعد مرحلة أفلاطون ، وهذه أمثلة من مفارقاتهم .

الحلقات المتصلة يمكن أن تكون منفصلة .

وتفسيرها أن الحلقات لا تنفصل مالم تتفكك ، لكن التفكك من وجهة أخرى قد يكون لأماً . فعندما نجعل من الخشب طاولة فهذا يعتبر من وجهة الخشب تفكيك .. ومن وجهة الطاولة بناء .

الحصان الأبيض ليس حصاناً

وفي تفسيره يقال ، أن كلمة حصان تشير الى الشكل . وأبيض الى اللون . ومايشير الى اللون لا يشير الى الشكل . ومن ثم نقول ان الحصان الأبيض ليس حصاناً . وحين يكون الحصان هو المقصود فإن الأبيض والأسود تأتي فيما بعد .ولكن حين يكون المقصود حصان أبيض لا يأتي أبيض أو أسود . وبالتالي فالحصان الأصغر والأسود هي أشياء من نفس النوع ويمكن اجرائها على الحصان وليس على الحصان الأبيض . وعليه فالحصان الأبيض ليس حصاناً بقدر ما نقصد الحصانية .

في شرح هذه المفارقة يستطرد العلاّمة فونغ يولان فيقول انها تفرق بين كليتين : الحصانية ، والحصانية البيضاء . الحصانية هي الصيغة الجوهرية لجميع الخيول ، وهي لا تتضمن لوناً وإنما الحصان كما هو . وبهذا تنفرق الحصانية عن الحصانية البيضاء ، وهو مؤدى قولنا أن الحصان في حد ذاته ينفرق عن الحصان الأبيض في حد ذاته ، وبالتالي فالحصان الأبيض ليس حصاناً .

ثم ان الأبيض بما هو أبيض لا يصنف (ينوّع) ما هو أبيض . لكن الحصان الأبيض يصنف ماهو أبيض . والأبيض المصنِّف هنا هو الأبيض الملموس الذي يُرى في هذا وذاك الموضوع الأبيض (الجزئي) . وهكذا فكلي البياض لا يتحدد بأي موضوع أبيض (جزئي) . وبالتالي فالبياض غير مصنف (منوع) (٢٢).

هذه أمثلة بما وصلنا من كتابات المنيغ جيا الضائعة . وقد ساهم الضياع في اختفاء الكثير من معالم الفكر الفلسفي شرقاً وغرباً ، ففاتنا من هيراقليطس وابيقوروس روائع كالتي فاتتنا من ابراهم النظّام فيلسوف المعتزلة الأعظم وغيره مما يضارع ما فقدناه من لوامع هوي شيه ومغامراته المنطقية الجريئة ...

استقصاء الفلاسفة الأفراد ، غير المحسوبين على مدرسة أو نحلة لازم لاستكمال الصورة المجملة التي نريد أن ننشئها عن فلسفة الصين . ونذكر هنا وانغ تشونغ (حوالي ٢٧ - ١٠٤م) ويحسب على مدرسة النصوص القديمة ، وهذه لم تتشكل في مذهب فلسفي متمايز . كما أن وانغ لم يعبر في فلسفته عن مذهب بعينه وإنما تميز بنزعة نقدية تسلكه في عداد الفلاسفة النقاد من طراز المعري . وهو من الفلاسفة القلائل الذين شككوا في عقلانية الطبيعة على طريقة المعري وأنكروا العدالة في الكون . قال في ذلك : (٢٣)

الحراثة ، العزق ، البذار هي أفعال واعية ، قاصدة ، لكن نمو البذور ونضجها أو عدمه يعتمد على الصدفة والفعل العفوي . كيف نعرف ؟ إن كانت السماء قد ذرأت مخلوقاتها لغاية فقد وجب عليها أن

تعلمها كيف يحب بعضها بعضاً لا أن يفترس ويدمر بعضها بعضاً ، ومثل هذا الاعتراض يمكن سحبه على طبيعة العناصر الخمسة ، إذ أن السماء لما خلقت جميع الأشياء اشربتها تشي العناصر الخمسة ، فراحت تتقاتل ويدمر أحدها الآخر . وكان الصحيح أن تملأ مخلوقاتها بـ تشي عنصر واحد وتعلمها الحب المتبادل فلا تسمح للعناصر بهذا الصراع اللامتناهي .

كان من الطبيعي لهكذا نقد أن يشمل الدين ، المتمسك دوماً بعقلانية الطبيعة وعدالة نظامها ، فأنكر وانغ تشونغ وجود كائن أسمى يحكم الموجودات وقال ان الوجود مادة (تشي) بحتة ، وأن الحياة تنشأ عن تركز التشي والموت ينتج عن تشتته. وأنكر المعرفة الفطرية بانكاره مافوق الطبيعة وقال أن المعرفة تعتمد على الادراك الحسي وأن الحقائق تتجسد في النتائج ولا يمكن الوصول اليها بالمنطق المجرد . ولذلك فهو يعتبر البرهان المنتج للحقيقة هو المشفوع بدليل ملموس . وهذه مادية حسية بحتة تنكر دور العقل فيما هو خارج عن الحس .

ووجه وانغ تشونغ نقداً شديداً للطقوس والأدعية ، واقتبس مداخلته في هذا الصدد لجرأتها وطرافتها : (٢٤)

> جنون ! السماء لا تسمع مايقول البشر ولا ترى ما يعملون ، هي عالية جداً تبعد عنا عشرات الألوف من اللي . . هل بوسع الانسان الذي يقف على برج أن يسمع حركات النمل تحت أقدام البرج : والأكثر من ذلك أن الغرباء لا يفهمون اللغة الصينية فأنى للسماء وهي ليست صينية ولا هي انسان ، والتي هي من طبيعة أخرى تماماً أن تفقه شيئاً مما نقول !

ولوانغ تشونغ نظرة في التاريخ تشكل سابقة لنظرية ابن خلدون فهو يرى أن التاريخ يتطور في دورات وأن عصور التطور تعقبها عصور انحلال . وهذه سيرورة تعيد نفسها الى ما لانهاية . ولاشك أن كل من وانغ وابن خلدون قد استقى نفس الفكرة من ملاحظة مجرى التاريخ : وانغ في شرقه الأقصى ، وابن خلدون في شرقه الأوسط حيث التطور

الدوراني سمة لابثة لمجتمعات الشرق برمته مقابل التطور الارتقائي في قارة أوربا ، المحكومة بجغرافية مغايرة .

أثار انتشار البوذية في الصين وتبني الكثير من الأباطرة لمعتقداتها ومعابدها مع مافيها من اهدار للثروات وتعطيل لجانب من النشاط الاجتماعي بتكريسه للنشاط البوذي ، أثار ردود فعل من الأوساط الفلسفية التي تصدت لنقد الدين كما تعرفوا عليه من طريق البوذية . ومن الفلاسفة الذين برّزوا في هذه المعمعة فإن تُجن (٤٥٠ – ٥١٥ م) ألف كتاب سماه تلاشي الروح قال فيه أن الروح والبدن يعتمدان على بعضهما وأن الروح للبدن كالحدة للشفرة : بدون شفرة لا توجد حدة . وكذلك بدون بدن لا توجد روح . وأن الروح تموت مع البدن وكل مايقال عن التناسخ والتقمص والحساب هو محض هراء ، وتذكرنا أقوال فان تُجن هنا بآراء فلاسفة الاسلام الذين ترددوا بين انكار بعث الأجساد وبين القول بمادية الروح وفنائها مع الجسد .. مع نظريات أخرى تنكر الروح أصلاً ، كما نقل عن المعتزلي أبو بكر الأصم الذي اعتبر الروح معنى من معاني البدن.

ويبدو أن انتقادات فان تجن انتشرت على نطاق واسع مما اضطر حاكم دويلة تشي الجنوبية ، التي كان فان من مواطنيها الى تنظيم مناظرة بين الفيلسوف والرهبان البوذيين خرج منها فان منتصراً ، وفي وقت لاحق نظم امبراطور مملكة ليانغ مناظرة أخرى مع فان تجن شارك فيها ستين راهب بوذي ولم يوفقوا في حمله على التراجع .

الأكاديمي فويي (٥٥٥ – ٦٣٩ م) دعا الامبراطور (من أسرة تانغ) الى وقف النشاط البوذي محاججاً أن الموت والحياة أمران طبيعيان (وأن العقاب والثواب هما من اختصاص الامبراطور ومن السخف اعطاء هذه السلطة الى بوذا بحيث بدا واضحاً أن البوذية تغتصب السلطة من الامبراطور . وقال فويي أن الرهبان والراهبات لا شغل لهم سوى الجلوس هنا وهناك ولطش الايجارات والضرائب وأنه يجب اعادتهم الى دنيويتهم حتى يقوموا بالنشاط المنتج، وأن يتزوجوا لينجبوا أولاد يزيدون واردات الدولة وقوتها العسكرية .

يلاحظ على فويي أنه لم يتوقف عند النقد الايديولوجي للبوذية بل قام بدور المحرض عليها وخرج بذلك عن مهمة الفيلسوف الى شغل السياسي الذي يعالج قضايا الفكر بالسلطة ، وانتهازيته واضحة في قوله أن العقاب والثواب هما من اختصاص الامبراطور وأن البوذية بادعائها ذلك لنفسها إنما تغتصب سلطة الامبراطور . وينبغي التذكير على أي حال بأن فويي ليس فيلسوفاً بل شخصية أكاديمية . وكانت الأكاديميات مؤسسات رسمية مربوطة بالقصر الامبراطوري . وكان الفلاسفة في جملتهم ، عدا الشراح الكنافشة والشرائعيين في زمانهم ، بعيدين عن هذه المؤسسات بحكم حساسيتهم المعروفة ضد السلطة .

تصدى شون تشينغ (القرن الثالث ق.م) للأوهام والخرافات فأنكر صلاة الاستسقاء وقرع الأجراس عند الخسوف والكسوف وقال أن المطر والجفاف خاضعان لحكم الطبيعة وليس وراءهما فعل قاصد . وأن الأجراس ليست هي التي تنقذ الشمس والقمر لأن الخسوف والكسوف حدثان عارضان وحينما يعود القمر والشمس الى حالتهما فليس لأن موظفي الامبراطور أرادوا ذلك .

وتحدث شون تشينغ عن الخوف من الظواهر الطبيعية مثل المذنبات وقال أن الخوف منها لا معنى له لأنها أفعال متسببة عن ظلال السماء والأرض والتحول الفجائي في الين واليانغ . وهي حوادث تتكرر في كل زمان ومكان وليس هي مصدر الشر أو دليل الشؤم ، وقال أن مصدر الشر ودليل الشؤم هو أفعال الحكومة : فلو كان الأمير متنور والحكومة مسالمة فإن هذه الحوادث حتى لو تراكمت وتعاقبت لا تسبب الأذى . أما ان كان الأمير غير متنور والحكومة ظالمة فإن عدم وقوع هذه الحوادث لا يعني أن الناس في خير وسعادة .

وذكر شون تشينغ من علامات الشؤم ، استعمال محاريث بالية في الزرع مما يؤدي الى ارباك البذار وتلف الغلة . وهذا يرجع الى تمادي الحكومة في الشر . وقال اننا يجب أن نبحث عن علامات الشؤم في

الحصاد الرديء وارتفاع سعر الحبوب وموت الناس جوعاً بسبب ذلك وهي أمور خاضعة لفعل الدولةلا للسماء ولا للنجوم .

إن شون تشينغ يلخص تجربة الشرقيين مع الطبيعة والدولة ، وهي نفسها التي ستجري على لسان المسلمين منذ نشوء دولتهم وتتطور لتصبح منهج تفكير سياسي يجعل فعل الطبيعة تابع لفعل الدولة .

هذا المنحى من الفكر التنويري يتواصل من قرون ما قبل الميلاد الثلاثة أو الأربعة الى مابعد القرن الثاني عشر فنقرأ لفيلسوف من هذا القرن هو خُوين هذا النقد لمذهب الخواء البوذي :(٢٥)

البوذية تعلي شأن الخواء وتعتبر الوجود وهماً ، وعلى من يتعلم التاو الصحيح أن يأخذ عبرة جيدة من ذلك ... نحن نرى الشمس والقمر في كل يوم يلفان في السماء ، والجبال والأنهار راسخة في الأرض بينما يتجول الناس والدواب في كل مكان . لو ظهر عشرة آلاف بوذا مرة واحدة فلن يقدروا على تدمير العالم أو خنق حركته أو ملاشاته . منذ بدء الزمان والشمس تخلق النهار والقمر يخلق الليل والجبال تقف راسية والأنهار تجري والانسان والحيوان يتوالدان . هذه الأشياء لن تتبدل وعلى المرء أن يقر عيناً بها . . إن يندثر شيء يتنشأ آخر ، بدني سيموت لكن النوع البشري سيمضي صعداً ، وهكذا فالكل ليس خاوياً ...

من الطريف أن نلاحظ أن هذا الفكر المنحاز للوجود والطبيعة ضد الدين والمستبقات الايديولوجية يتزامن في الصين مع عصر ابيقوروس بمنحاه المقارب في الفلسفة اليونانية، ويستمر فيتزامن مع الرازي والمعري في الفلسفة الاسلامية ثم يتجاوز العصر الاسلامي بقرن أو أكثر قبل أن تبدأ جذوة الفلسفة الصينية بالهمود . وكان ذلك مع دخول الحضارة الصينية مأزقها التاريخي الذي تأوج بالاحتلال المغولي لعموم الصين في غضون القرن الثالث عشر . فبعد هذا القرن سلكت الفلسفة الصينية طريق الشراح وتوقفت عن انجاب الفلاسفة العظام الذين بزغوا في عصور الازدهار الماضية . مما مهد لانطفائها نهائياً في أوليات القرن العشرين لتئول من ثم الى تراث حي في ذاكرة الثقافة الصينية .

استخلاص

افرغ الاستذهان الصيني طاقاته في نواحي الكون والطبيعة والانسان فانشأ هذا التراث الفلسفي العريض بمدارسه المتنوعة التي سميتها في هذه الالمامة . وكما رأى القارئ فقد خاض فلاسفة الصين عباب البحث في الكونيات والطبيعيات والسياسة والأخلاق والتنظيم الاجتماعي .وكانت لهم معرفياتهم الخاصة بهم كما تعرفنا عليها من وراء الموهية والمينغ جيا . وقدموا تصوراتهم في نشأة الكون وتحولات المادة وارتقاء الأحياء وأصل الوجود والعلاقات المتبادلة بين الموجودات . وكان لهم فكرهم التنويري المكافح ضد الأوهام والخرافات ومساعيهم لأدلجة العدل كأساس للكينونة البشرية وتقرير مايتعلق بالحقوق الطبيعية للناس وواجبات الدولة تجاه رعاياها عند من تقبل مشروع الدولة منهم . أما منهجهم فهو خليط من الحدس والمنطق الديالكتيكي . وفي قضايا المنطق العامة كان هناك ميل الى تحديد الماهيات بطرق استقرائية لا برهانية مما يتوضح في اختيار التعريف بالاسم لا بالحد . وتقصيرهم الأساسي هنا هو في عدم تطوير دراسة المنطق الى المستوى الذي بلغه اليونان على يد ارسطو . إن العقلانية الصينية تتوازى مع الفكر الفلسفي للاغريق في الحقبة السابقة لارسطو ، وهي البادئة بطاليس والمختومة بافلاطون . ولغة الفلسفة الصينية تتحدد أيضاً برسوم هذه الحقبة وإن لم يمنع ذلك من الاستفاضة في البحث والمحاججة مع ما اتصفت به المذاهب الفلسفية من الشمول والاستغراق.

ومن الانجازات الكبرى للفلسفة الصينية المنطق الديالكتيكي ، ويرجع الى التاويين في المقام الأول تجاوز العلاقات الشكلية بين الأشياء كما يترسمها منطق أرسطو الى التداخل والتفاعل من جهة والتضاد من جهة أخرى . فليس من شيء في الوجود مستقل عن الآخر في الذهن التاوي ، وليس من شيء في الوجود إلا وله ضد هو أساس تمايزه وسر

وجوده . فكل شيء يوجد إنما هو نتيجة وجود الضد وهو لا يبقى إلا مع بقاء الضد . ولا يعترف المنطق التاوي بقانون عدم التناقض الأرسطي حتى في حالاته المعقولة التي يستدعيها التمايز الضروري للأشياء . فإذا كان الأبيض عند ارسطو ضد للأسود فهما عند التاويين شيء واحد . وقانون التحول من ضد الى ضد هو من أصول المنطق التاوي فالموت يأتي من الحياة والحياة تأتي من الموت ووجود احدهما يستدعي وجود الآخر بدلاً من أن يلغيه حسب قانون أرسطو ، وليس في مقولات التاويين مايصدق عليه استثناء الثالث المرفوع . التاوي لا يقول إن الجبل اما ثابت أو متحرك ولما كان غير متحرك فهو ثابت . فالحركة والثبات هما حالتان نسبيتان فليس هناك متحرك بالمطلق ولا ثابت بالمطلق لأن الطبيعة جوهر سيال كما سيقول الشيرازي فيما بعد . وقد أدرك التاويون صعوبة استيعاب الديالكتيك كما أدركه الشيرازي من بعدهم ، ومثلما قال الأخير ان ادراك ذلك يحتاج الى بصيرة ثابتة ترى بنورها ماهو زائل هو الباقي ، قال الأولون ان استبصار هذه الحقائق يتجاوز التعامل الاعتيادي مع الأشياء وأن النوع البشري تحير طويلاً بهذه التغيرات لتعذر استيعاب أبعادها الحقيقية . ويشير ذلك الى الصعوبة في متابعة العلاقات المتبادلة في تضادها وتداخلها . وهذه الصعوبة تسم المنطق الديالكتيكي في سيرورته الحية ، ربما دون تقنياته التي تبدو أبسط من نظائرها في منطق أرسطو .

إن من يتعود منطق التاويين يسهل عليه الانتقال الى منطق هيغل وماركس خلافاً لمن ينتقل اليهما من منطق أرسطو رأساً . ويمكن أن نضع ضمن هذا المعيار اتقان الشيوعيين الصينيين ، لاسيما ماوتسي تونغ وبالخصوص قبل الثورة الثقافية، للقضايا المتعلقة بالتناقضات التي انطرحت عليهم في مراحل مختلفة من نشاطهم السياسي ، وقدرتهم على التعامل السليم مع هذه التناقضات بمستوى يفوق ماكان عليه السوفييت الذين أظهروا الكثير من التخبط في هذا المضمار . وقد عرف عن قادة الحزب الشيوعي الصيني تشبعهم بالكلاسيكيات

الصينية التي تشكل محور التراث الفلسفي الصيني . ويرجع قدر كبير من نجاح ماوتسي تونغ وكفاءته القيادية الى هذه الملكة التاوية الموروثة فيه والتي ظهرت في وقت مبكر بتحليله الهام والمتبصر لطبقات المجتمع الصيني في أحد مؤلفاته المشهورة ، وهو المؤلف الذي اعتمدت عليه استراتيجيته في حرب التحرير .

الانجاز الكبير الآخر للفلسفة الصينية هي سياسياتها . وهذه فرعان : مايتعلق بتنظيم الدولة والمجتمع ، وقد برع فيه الكنافشة وشون تسه والشرائعيين . وما يخص قضايا العدل الاجتماعي والديمقراطية التي تخصص فيها التاويون والموهيون وشاركهم أفراد من شتى المدارس الفلسفية . وفي هذه وصلنا تراث مفلسف من السياسيات المشاعية النزوع في مبادئ محددة تخص التوزيع العادل للثروات وارساء علاقات ديمقراطية بين الدولة والرعايا وفي داخل المجتمع مابين أفراده . وفي الفرع الأول يتكافأ أهل الصين مع الاغريق والرومان أولاً والمسلمين لاحقاً . أما في الفرع الثاني فيصعب العثور على أمثلة مقاربة عند الاغريق والرومان إذا تعدينا ديمقراطيات المدن اليونانية التي هي ديمقراطية أقلية من الأحرار . بينما لا نجد مضارعات في الوعي المشاعي ، الذي لم تجربه أوربا كما جربته آسيا . وإنما يتضارع مع الصينيين هنا أهل آسيا الغربية من الفرس الساسانيين حيث الحركة المزدكية والعبرانيين حيث نبوة يسوع ، ثم المشاعيين المسلمين في تلاوينهم وأطوارهم المختلفة .

وتقوم السياسيات الصينية على أولية الانسان على الطبيعة ، وهو المبدأ الذي يقف وراء تفوق رقعة التفلسف الأخلاقي - الاجتماعي في الصين على فلسفة الطبيعة ، مع اتجاه عام لدى فلاسفة الطبيعة الى توصيف استنتاجاتهم في خدمة أولوية الانسان . وفي هذا المنحى يتلاقى مع الصينيين متصوفة الاسلام بنزوعهم المشاعي والديمقراطي المناوئ لسلطة الدولة والدين والمال . ويجد المتابع على طرفي آسيا الشرقي والغربي نمو ميتافيزيقيا انسانية تعاقب على تأسيسها فلاسفة

الصين وأقطاب التصوف الاسلامي في خطوط متماثلة تكرس تماثل خطوط التطور في آسيا دون أن يكون لاحدها اتصال بالآخر .

عوض عن التقلص النسبي في رقعة الفلسفة الطبيعية نشاط علمي وتكنولوجي تميزت به المدنية الصينية على سائر مدنيات العالم القديم . وارتباطاً بهذا النشاط ، ظهرت المخترعات الصينية المعروفة : الورق والطباعة والبوصلة والبارود . وتطورت مكننة الزراعة باختراعات متوالية شملت آلات الحرث والبذار والعزق . وأخذت الصناعة الحرفية والتعدين مديات متفوقة على نظائرها في آسيا الغربية وأوربا ، مما جعل الصين دولة مصدرة للمعادن والمصنوعات الحرفية والفنية في وقت مبكر من نهوض التجارة العالمية . وكانت خبرة أهل الصين في الفنون والصناعات معروفة لدى المسلمين في عصورهم . ولما صنف علماؤهم خصائص الأمم أشاروا الى اختصاص أهل الصين بالصنعة والهند بالحكمة ، مما يشير الى معرفة المسلمين بصناعة الصين وجهلهم بفلسفتها . وفي هذا الجانب تتحدد مساهمة الصين في المدنية الحديثة التي انطلقت من الطباعة والبارود والبوصلة فضلاً عن الورق . وهي مخترعات أساسية لم ترثها الرأسمالية الأوربية من صلب القارة حيث بدت مدنيتا الاغريق والرومان عاجزتين عن الوصول بالمهارات الصناعية الى المستوى الذي بلغته الصين . ولو أن الصين بدورها ظهرت عاجزة عن استثمار مهاراتها الصناعية التي ذهبت فيها أوربا الى المدى المطلوب في احداث تطور جذري على أوضاعها المرهصة آنذاك بالنمو الرأسمالي .

علينا أن نذكّر أخيراً بخصوصية الفلسفة الصينية كخط تطور مستقل في تاريخ الفكر البشري . لقد شرعت تتكون في غضون النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد منطلقة من تراكمات الخبرة الاستذهانية في مداها الأسطوري والفولكلوري وتجارب نشوء الدول المبكرة في الصين ، واستمرت تتطور في نفس الخط حتى نهايات القرن الثالث عشر الميلادي كمنحى تفلسف أصيل ، ثم كنشاط للشراح حتى

أوائل القرن العشرين . ولم يغير فتح طريق الحرير مابين الصين وآسيا الغربية وأوربا هذه الوتيرة اذ لم يحصل تماس يذكر بين التفلسف الصيني واليوناني واقتصرت نقليات طريق الحرير على تجارة محدودة مع أوربا . وبعد ظهور الاسلام ونشوء الدولة الاسلامية صارت الصين مجاورة للاسلام في حدود مشتركة طويلة استغرقت شمال الصين وغربها .. وتنامى تبادل سياسي واقتصادي عريض واقتبس الاثنين من معارف وصناعات بعضهما الا الفلسفة حيث ظل فلاسفة الصين مجهولين في الاسلام وفلاسفة الاسلام مجهولين في الصين . كما لم ينتقل شيء من فلسفة الصين الى الهند ولا من الهند الى الصين . وكان الاقتباس الوحيد من الهند هو الفكر البوذي المتلبس بالدين والذي لم يجد له فلاسفة صينيين من درجة الكنافشة أو التاويين . ولما أطل العصر الحديث على الصين واصل الشراح نشاطهم في رحاب تراثهم العريض متجاهلين وجود فلسفة حديثة قد تكون وصلت من الغرب مع الأفيون والجيوش الغربية . ثم تغير الحال مع ظهور جيل جديد من المثقفين الذين تأهلوا بالفكر الحديث ، بدأ ذلك من فونغ يولان ، الذي سعى لتطوير مذهب فلسفي مزيج من الفلسفة الصينية والحديثة فلم يوفق ، فقرر الانصراف الى تأرخة الفلسفة الصينية ليصبح مصدرها الأرأس لكل من جاء بعده من دارسيها المحليين والأجانب . ويرجع فشل فونغ يولان كفيلسوف الى أن الفلسفة الصينية كانت قد تحولت منذ وقت بعيد الى تراث . وكان عليه من ثم أن يسعى لتأسيس مدرسة فلسفية تنطلق من الفكر الحديث بعد أن يسخر له التراث ليجعله من عناصر حيوية هذا الفكر وليس كمقابل له . وهو ماقام به أخيراً ماركسيو الصين الذين نجحوا في صياغة ماركسية صينية تستمد أساسياتها من ماركس وتلامذته الغربيين ، وحيويتها من التراث الفلسفي المحلي . وهذه فيما يخص الماركسية الاجتماعية ، أما الماركسية كمنهج علمي فلم تصل بعد الى الصين .

هوامش

١- المدخل ص٣٢ .
٢- المختصر ص١٣٨ .
٣- نيدهام ٢/٢٤٢ - ٢٤٣ .
٤- نيدهام ٢/٢٦٧ .
٥- التوهج العظيم ص٣١ .
٦- ويغر . ص ١٥٨ - ١٥٧ .
٧- خلاصة من الفصل ١٨ لكتاب تشوانغ تسه من ترجمة هيوز ٢٠٨ - ٢٠٩ .
٨- موسع فونغ يولان ١/ ١٠٦ .
٩- حول الـ تي راجع الهامش في ختام هذا الفرع .
٩- الرسائل ص ١٢٠ .
١٠- الانسان الكامل ط القاهرة ١٣٣٤ هـ - ص ١٦٣ .
١١- ص ١٦ .
١٢- موجز فونغ يولان ص٤٦ .
١٣- نيدهام ٢/١٢ .
١٤- نيدهام ٢/١٠ - ١١ .
١٥- ٢/٢٣ . ينبه نيدهام ان الفيلسوفين الصيني والاغريقي ظهرا قبل فتح طريق الحرير بقرن ونصف . ويجعله سبب لتحاشي القول بالاقتباس . والحق أن الوضع لم يتغير بعد فتح طريق الحرير لأن حضارة الصين وحضارة اليونان لم تتصلا قط . وليس هناك أي تأثير متبادل بينهما .
١٦- ويغر 276 .
١٧- ٢/ ٢١٣ .
١٨- نفسه ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .
١٩- وضعه الأستاذ هيوز على قائمة هتلر وموسوليني . وكان قد عاصر صعودهما في المانيا وإيطاليا ص٣٣.
٢٠ - ويغر ٢١٩ .
٢١ - SCIENCE AND THE MODERN WORLD N.Y. 1956 . P. 144 - 145.
٢٢- الموسع ١/ ٨٨ .
٢٣- نيدهام ٢ / ٣٧١ .
٢٤- ويغر ٣٢٣ .
لي : وحدة قياس المسافات البعيدة . ويعادل خمسمئة متر .
٢٥- نيدهام ٢/٤١١ .

مراجع

التأليف العربي في الفلسفة الصينية مايزال في بدايته . ولعل أقدم مساهمة فيه هو كتيب شحاته سمعان (كونفشيوس) القاهرة ١٩٥٧ . وقرأت في وقت لاحق نبأ صدور مجلد لمحمد فؤاد شبل في القاهرة بعنوان (حكمة الصين) ولم أوفق في الحصول على نسخة منه . والترجمة الوحيدة لأساسيات الفلسفة هي ما أجريته بالتعاون مع الصديق الدكتور سامي مسلّم لكتاب لاوتسه (تاو تي تشينغ) وقد صدرت له طبعة مشوهة عن دار ابن رشد ببيروت .

ترجع عناية الغربيين بالفلسفة الصينية الى أيام الجزويت الطليان ، الذين بدأوا بالتوافد على الصين في منتصف السادس عشر . وقد نقلوا بعض المراجع الأساسية ومنها مؤلفات كونفوشية أصيلة . ووفر هذا الجهد الأولي فرصة اطلاع على الفكر الصيني للفيلسوف الألماني الكبير لايبنتز فكتب رسالة أظهر فيها اعجابه بأخلاقيات كونفوشيوس ومذهبه في العلاقات الخمسة ودعا الى الاستفادة منها في تنظيم المجتمع الغربي . واطلاعه ناقص بلا شك وقد صدر فيما كتب عن ضيق أفق في تقييم الفلسفة الاجتماعية – الصينية التي تتجاوز مجرد العلاقات الخمسة الى آفاق رحيبة كشفت عنها الدراسات والترجمات اللاحقة مما أوجزناه في تحقيقنا المجمل هذا .

النقل المنظم والمتكامل للفلسفة الصينية حدث بعد منتصف التاسع عشر حيث امتد النفوذ الامبريالي الى داخل الصين بقنواته ووسائله المعروفة . وجاء مع الامبريالية مبشرون ومستشرقون وعلماء تفرغوا لدراسة الحضارة الصينية تحت مختلف الدوافع . وأثمرت هذه الدراسة ترجمات للعديد من أساسيات الفكر الصيني وعدد أكبر من الدراسات الهامة باللغات الأوربية الكبرى . وفي وسط هذا الجو سعى الدارسون الصينيون من جهتهم الى تقديم تراثهم الفلسفي للقارئ الأجنبي وكانت الريادة للعالم الكبير فونغ بولان . وهذا مسرد بالمؤلفات التي رجعت إليها في دراستي لهذه الفلسفة ومنها أيضاً أخذت مقتبسات الفرعين التاليين من هذا الباب :

FUNG YU LAN

1 - A HISTORY OF CHINESE PHILOSOPHY

سفر موسع في مجلدين ترجمه الى الانجليزية باشراف المؤلف DERKE BADDE وطبع في ليدن – هولندا – 1953

2 - A SHORT HISTORY OF CHINESE PHILOSOPHY

كتبه فونغ بولان بالانجليزية رأساً . وطبع في نيويورك 1948 .

3 - LEO WIEGER - A HISTORY OF THE RELIGIOUS BELIEFS AND PHILOSOPHICAL OPEINIONS IN CHINA , FROM THE BEGINING TO THE PRESENT TIMES

الأصل بالفرنسية وترجمه الى الانجليزية EDWARD CHLNESS WERNER وطبع في مدينة شيْان الصينية 1927 .

والمؤلف من الإرساليات التبشيرية . وقد أظهر تحامل شديد على الفكر الصيني يظهر من العنوان الذي تجنب الإشارة الى فلسفة صينية وذكر بدلها : آراء فلسفية .. وهو غرار فاضح للمستشرقين كما عرفناهم حتى الآن . وقد أخذت من نصوصه ما ترجمه مباشرة عن الأصول دون اعتبار لتخريجاته .

4- NEDHAM JOSEPH

SCIENCE AND CIVILIZATION IN CHINA V.2 (HISTORY OF SCIENTIFIC THOUGHT) CAMBRIDGE UN - PRESS 1956 .

جوزيف نيدهام من نوادر المستشرقين في موضوعيته ومنهجه العلمي . ومهما تعددت المؤلفات في تاريخ الفلسفة الصينية فإن مجلده الثاني هذا سيبقى أهم مرجع موثوق فيها بعد مؤلفات فونغ بولان (ترجمت هذه السطور لصديقي الكبير اسرائيل ابشتاين فأورد عليها أن نيدهام لا يندرج في عداد المستشرقين لأنه درس الثقافة الصينية من داخلها .

5 - E.R. HUGHES : CHINESE PHILOSOPHY IN CLASSICAL TIMES , EVERYMAN'S LIBRARY , LONDON , 1982 .

صدر الكتاب لأول مرة في 1942 . ويشتمل على ترجمات لنصوص مختارة من المراجع الكبرى للمدارس الفلسفية الأرأس مع مدخل تقييمي سعى فيه المؤلف لابراز مكانة الفلسفة الصينية في تاريخ الاستذهان العالمي . ورغم نزاهته العالية وقع المؤلف في العقيدة الشائعة عن حدسية الفكر الصيني .

6 – كتاب منشيوس

ضمن مجموعة الكتب الأربعة الكونفوشية THEYFOUR BOOKS ترجمة قديمة طبعت في تاي بيي ، حاضرة تايوان أجراها جيمس ليغ ، لم يكتب عليها التاريخ الميلادي .

7 – كتاب هونغ لي (التوهج العظيم

-تأليف ليوان ، امير من سلالة الهان استصبأته الفلسفة التاوية فصار من أعلامها وتسمى برسم الفلاسفة : هواي نان تسه .

الترجمة أجراها ايفان موزعان بعنوان THE GREAT LUMINENT طبعت في شانغهاي 1933 .

النسخة التي أطلعت عليها محفوظة في مكتبة دار النشر باللغات الأجنبية في بيجبنغ وعليها اهداء بخط المترجم مؤرخ 1934 إلى H.S. LEOO والكتاب من لوامع الكتب التاوية .

8 - AN INTELLECTUAL HISTORY OF CHINA

اصدار معهد التاريخ في أكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية .

دار النشر باللغات الأجنبية ، بيجبنغ 1991 .

كتاب يعبر عن الأديولوجيا الرسمية للحزب الشيوعي الصيني . منظم وفق توضيبة المراحل الخمسة الستالينية ضمن فهم ميكانيكي مسطح للتاريخ . لكنه يتمتع بأهميته كتزمين للمدارس الفلسفية .

9 - AN OUTLINE HISTORY OF CHINA

مجموعة مؤلفين . تحرير BAI SHOUYI وهو مؤرخ من قومية هوي المسلمة . والكتاب كسابقه يعبر عن الاديولوجيا الرسمية للحزب الشيوعي ولا يتمتع بقيمة علمية كتفسير للتاريخ وإنما كتزمين لتطور المجتمع الصيني من خلال حكم الأسرات . ويحتوي على تفاصيل هامة للمنجزات العلمية والفلسفية .

صدر عن دار النشر باللغات الأجنبية في بيجبنغ 1982 وتحت الطبع ترجمة للكتاب أجريتها بناء على طلب من دار النشر المذكورة .

حول الـ تي :

يكتب في الترجمات الانجليزية بصيغتين : TE و DE . ولفظ الياء قريب من الفرنسي لا الانجليزي أي انه يقارب الفتحة عندنا . وقد اخترت تعريبه الى تي ، بالمد ، ليكون أكثر انسجاماً مع قانون الصرف العربي . أما معناه فيترجم الى VERTUE و NORM وكلاهما لا يعبر عن مضمونه الفلسفي فارتأيت ابقاءه بأصله الصيني دون ترجمة كما فعلت مع معظم المصطلحات مثل لي ، يي ، تشي .. لأن ذلك يوصلها الى القارئ محملة بمقاصد الفيلسوف الصيني دون تدخل من طرف غريب قد يشوش هذه المقاصد باخضاعها لمصادراته اللغوية.

الفرع الثاني

نصوص من فلسفة الطبيعة

١ - ترتيب الكائنات ومايميز الإنسان عنها
شون تسه

الماء والنار لهما أرواح لطيفة وليست لهما حياة .

الزروع والأشجار لها حياة وليس لها ادراك .

الطيور والحيوانات لها ادراك وليس لها احساس بالعدل .

الإنسان يملك هذا أجمع ، ومن هنا فهو سيد الكائنات على الأرض .

نيدهام ٢٣ .

٢ - المطلق الصيني
كتاب تشوانغ تسه

للتاو واقع ودليل ولكن لا فعل ولا صورة . ينفُذ خلال الأشياء ولكن لا يمكن تلقيه . يتحقق ولا يُرى . وُجد بنفسه وبواسطتها : قبل السماء والأرض . هو الذي أعطى الأرباب الوهيتهم ومكّن العالم من الظهور . ليس عالياً مع انه في السمت ولا واطئاً مع انه في الحضيض . ورغم سبقه للسماء والأرض فهو مش - قديم . ورغم أنه أقدم من كل القدماء فهو مش - قديم . . .

نيدهام ٤٦ - ٤٨ .

٣ - وحدة وجود

تشوانغ تسه

التاو في كل مكان .

ولما سألوه أن يمثله لهم قال :

انه هنا في هذا النمل . . في الأدغال . . في الآجر والقرميد . . وفي الروث أيضاً .

نيدهام ٤٧ .

٤ - محاكمات منطقية

كونغ سون لونغ
مدرسة الأسماء

الحصان الأبيض ليس حصاناً . إن كلمة حصان تشير الى الشكل وأبيض الى اللون . ومايشير الى اللون لا يشير الى الشكل . ومن هنا قلت أن الحصان الأبيض ليس حصاناً .

حين يكون الحصان هو المقصود فإن الأبيض والأسود تأتي فيما بعد . ولكن حين يكون المقصود حصان أبيض فإنها لن تأتي . وبالتالي فإن الحصان الأصفر والأسود هي أشياء من نفس النوع ويمكن اطلاقها على الحصان ولكن ليس على الحصان الأبيض . وعليه ينتج أن الحصان الأبيض مش حصان بقدر ما نقصد الحصانية .

نيدهام ١٨٦ - ١٨٧

شرح فونغ بولان :

يفرق كونغ بين كليتين : الحصانية والحصانية البيضاء . الحصانية هي الجوهر المشترك لجميع الخيل وهي لا تتضمن لوناً وإنما الحصان كما هو . وبهذا تنفرق الحصانية عن الحصانية البيضاء . إن هذا هو مؤدى قولنا أن الحصان في حد ذاته ينفرق عن الحصان الأبيض في حد ذاته . وبالتالي فالحصان الأبيض مش حصان .

الأبيض بما هو أبيض لا يحدد (لا يصنِّف ، لا يقوم) ماهو أبيض لكن الحصان الأبيض يحدد يصنف ، يقوم) ماهو أبيض (وذلك هو الحصان الذي هو أبيض) بينما الأبيض بما هو أبيض مش أبيض . أما الأبيض المحدِّد (المقوم) فهو الأبيض الملموس الذي ينشاف في هذا وذاك الموضوع الأبيض الجزئي .

وهكذا فـ البياض لا يتقوم بأي موضوع أبيض مخصوص أي جزئي وبالتالي فالبياض غير محدِّد (غير مقوِّم) .

الموجز ٨٨

٥ - تباينات الأشياء وديالكتيك خواصها

فيلسوف تاوي

في حالات عديدة تبدو الظواهر من نوع واحد بينما هي في الواقع أنواع متفاوتة بالتمام . إن هذا سبب سقوط العديد من الدول وفقدان العديد من الأرواح .

النحاس هش والقصدير هش . ولكن إذا مزجتهما يتصلبان . وإذا سخنتهما يعودان مائعين . وهكذا لو رطبت شيئاً يصير يابس وصمل وإذا سخنت شيئاً صملاً يصير مائع . ومن هنا لا يمكن لك أن تعرف خواص الأشياء من مجرد معرفة خواص أصناف مركباتها .

إن مربعاً صغيراً هو من صنف المربع الكبير . وحصاناً صغيراً هو من نوع الحصان الكبير . لكن معرفة قليلة ليست من صنف معرفة كبيرة .

نيدهام ٧٢ .

٦ - من شروط الحكمة

فيلسوف تاوي

أن تدري أنك لا تدري : ذلك منتهى الحكمة . إن خطيئة من يرتكب الغلط هي ظنه أنه يدري وهو لا يدري .

نيدهام ٧٢ .

قارن مع قول المسلمين :

كلمة لا أدري نصف العلم.

٧ - الكلي والجزئي

مدرسة الأسماء

إن كون الـ تـشي غير موجود في الزمان والمكان ينتج من حقيقة أن جميع الأشياء لها أسماؤها (ماهياتها) الخاصة بها لكنها ليست بنفسها تشي .

لا يوجد في الزمان والمكان تشي ولكن لا شيء يمكن أن يقال عنه أنه بدون تشي . وهذا لأن كل جزئي يتجلى فيه تنويعة من الكيفيات الكلية المختلفة .

نيدهام ١٨٦ .

٨ - نفس المدرسة

الكلي (العام) لا يتغير . وإنما يتغير الجزئي

نيدهام ١٨٨ .

٩ - التغير الدائم - الامتداد المكاني

المدرسة الموهية

حدود الكون المكاني تتغير دائماً . والسبب هو الامتداد . ثمت جنوب وشمال في الصباح وجنوب وشمال في المساء . المكان دائم التبديل لحيّزه . والمواقع المكانية هي أسماء لما قد مضى للتو .

نيدهام ١٩٣ .

١٠ - اللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصغر

مدرسة الأسماء

الأكبر ليس له شيء خارج ذاته ويسمى وحدة كبرى

الأصغر ليس له شيء ضمن ذاته ويسمى وحدة صغرى .

نيدهام ١٩٠ .

قلت : هذا هو نص نيدهام . لكن فونغ يولان في موجزه يضعها على هذا النحو : خُوي شيه - من المناطقة : الأكبر لاشيء خارجه ، والأصغر لاشيء في داخله .

تشوانغ تسه : الأكبر مالا ينحصر والأصغر ما لا صورة له .

ويعلق فونغ :

قضية خوي تحليلية لأنها تعنى بالإسم ولا تهتم بما هو الأكبر فعلاً والأصغر فعلاً . قضية تشوانغ تسه تركيبية لأنها تحدد أن السماء والأرض هما الأكبر وأن أسلة الشعرة هي الأصغر وهذا هو الشبه (الواقعي) . ولا تجري تحليل لأسماء الوقائع (منغ) وهي تعتمد على التجربة فيكون صدقها عارض لا ضروري . ففي التجربة كل ماهو كبير وصغير نسبي . يقول تشوانغ تسه : إذا قلنا عن شيء أنه كبير فلأنه أكبر من شيء ما آخر إذ ليس في العالم شيء ليس كبيراً . وإذا قلنا عن شيء أنه صغير فلأنه أصغر من شيء ما آخر إذ ليس في العالم شيء ليس صغيراً .

وهكذا – يستطرد فونغ – لا يسعنا بالاعتماد على التجربة تعيين ماهو صغير أو كبير وإنما يسعنا أن نقول بالإستقلال عنها أن الكبير هو ما لاشيء خارجه والصغير مالا شيء داخله .. إن الصغير والكبير هنا مفهوم مطلق لا متغير ومن هنا تحقق خوي من أن كيفيات الأشياء الملموسة واختلافاتها نسبية ومتغيرة (خلافاً لأسمائها – ماهياتها المطلقة) .

قلت أن خوي يلتقي عند هذه النقطة مع تشوانغ تسه فيفرق بين المفهوم المطلق ، الماهية المطلقة وبين الملموس والمتشخص ويتحدث عن النسبي المتغير مقابل الكلي وهو محور عناية الأسمائيين من أصحاب خوي حيث شدد رائدهم سون لونغ على حقيقة أن الأسماء مطلقة ودائمة . ويتوضح في هذه المداخلات سعي الفلسفة الصينية الى بحث التغير وسط الثبات وتحديد الكليات والماهيات مقابل الوقائع أو مايسميه المسلمون الأعيان ، أي الموجودات الفعلية .

١١ - تصيرات العناصر
شين غوا

بعد أن تحدث عن امكان تحول العناصر والمواد الى بعضها قال :

تبعاً لـ سو وِن (مأثور طبي) ثمت خمس عناصر في السماء وخمسة في الأرض . . تشي الأرض حين يكون في السماء يكون ندياً . والأرض كما نعلم تنتج المعدن والحجر .

وهنا نرى أن الماء يمكن أيضاً أن ينتج الحديد والمعدن . مثلاً :

في كهوف معينة يقطر منها الماء تتشكل الحليمات العليا بكثرة . وفي الاعتداليت الربيعي والخريفي يشكل الماء المأخوذ من آبار معينة الـ شي خْوا (أزهار الصخور ، الأغرة) وذلك بالتبخر . ومن محلول شديد الملوحة يتشكل حجر خلاصة الين الدائم الرطوبة . كل هذه ملموسات تغيرت في الماء .

كذلك تشي الخشب ، الذي يكون في السماء ريحاً : الخشب يمكنه انتاج النار والريح يمكن أن تديمها .

تشي الخشب هنا يأخذ وضع الجوهر المنفصل

- يعلق نيدهام على مقالة شي غوا :

عرفت هذه التحولات في اسبانيا المسلمة (الأندلس) وفي الصين في القرن الثالث عشر على الأقل . ومن أمثلتها استخلاص النحاس من السوائل المنجمية بعد خلطها بخردة الحديد .

ص٢٦٧ .

١٢ - الموجودات من جنس واحد تنشّط بعضها .

نص من القرن الثاني ق .م .

الماء يجري على الصعيد المنبسط فيتنكب الجاف ويتجه نحو البليل . الشب إذا تعرض للنار امتدت الى يابسه دون أخضره : جميع الأشياء تبتعد عن المُغاير وتتْبع المماثل .

١٣ - رقمية كونفوشية

نص بعنوان استحالات الحياة :

السماء ١ الأرض ٢ الإنسان ٣ ينتج عنه :

٣ × ٣ تؤلف ٩

٩ × ٩ تؤلف ٨١

رقم الشمس ١٠ والواحد يحكم الشمس وبالتالي يولد الانسان في الشهر العاشر من نموه .

٨ × ٩ تؤلف ٧٢ . هنا شَفْع يتبع وَتْر . . الوتْر يحكم الزمن . الزمن يحكم القمر . القمر يحكم الحصان . ومدة حمل الحصان أحد عشر شهر . ٩×٧

تؤلف ٦٣ . ٣ تحكم الدب الأكبر (بنات نعش) وهذه الكوكبة تحكم الكلاب .
ومن هنا يولد الكلب في ثلاثة أشهر .
٩ × ٩ تؤلف ٥٤ . ٥ تحكم النوطات الموسيقية . النوطات تحكم القرد .
ومن هنا يولد القرد بعد ٥ أشهر .

تْسُنغ شِن كونفوشي يرجح أنه من القرن الأول م

١٤ - بيان ضد الخرافة

شون تشينغ

إذا استسقى الموظفون فامطروا فكيف تم ذلك ؟ أنا أجيب : ليس من سبب لذلك . إذا هم لم يستسقوا فسيأتيهم المطر . . متى مامنع الموظفون الشمس والقمر من أن يؤكلا (بقرع الأجراس عند الخسوف) أو متى استسقوا أو متى عزموا على أداء مهمة بعد الكهانة فهذا ليس لأنهم يفكرون أن هذه الطريقة ستحقق لهم مايبتغون بل لأنها مجرد مسألة متعارف عليها . . الأمير يفكر أنها شيء متعارف عليه . لكن الناس يعتقدون أنها فوق - طبيعية . من يعتقد أنها مسألة متعارف عليها فهو محظوظ ومن يعتقد أنها فوق طبيعية فهو الخائب .

١٥ - وبيان ضد البوذية

خو يِن

البوذية تعلي شأن الخواء وترى الوجود وهماً . وعلى من يتعلم التاو الصحيح أن يأخذ عبرة من ذلك . . نحن نرى الشمس والقمر في كل يوم يلفّان في السماء . والجبال والأنهار موتَّدة في الأرض . بينما الناس والحيوانات تلوج في العالم : لو ظهر عشرة آلاف بوذا مرة واحدة فلن يقدروا على تدمير الوجود أو منعه من الحركة . من بدء الزمان والشمس تصنع النهار والقمر يصنع الليل والجبال راسية والأنهار تجري والانسان والحيوان تتوالد . هذه الأشياء لن تتبدل وعلى الانسان أن تقر عينه بذلك : ان يندثر شيء ينشأ آخر . . بدني سينحل لكن النوع البشري سيمضي صعداً . وهكذا ليس هناك شيء خاوي .

نيدهام ص٤١١ .

١٦ - رموز في مفارقات

خوي شيه

الجنوب له حد ولا حد في وقت واحد .(١)

الذهاب الى دولة يوي اليوم ، الوصول أمس (٢) . أنا أعرف مركز العالم :

انه شمال دولة . . لي وجنوب دولة يؤي (١)

بيضة لها ريش .

طير له ثلاث سيقان .

ينغ عاصمة دولة تشو تحوي العالم كله .

الكلب يمكن اعتباره خروف .

الخيل تبيض .

النار مش حارة .

الجبال تخرج من الأفواه .

الدواليب لا تمس الصعيد .

العيون لا تبصر .

الـ تشي لا يصل . ولكن ما يصل هو مش - نهائي .

السلاحف أطول من الأفاعي .

مربعات السجاجيد مش مربعة . والبوصلات لا يمكنها صنع الدوائر .

المخارز لا تلائم مقابضها .

ظل الطير المحلق لا يتحرك .

ثمت أوقات يكون فيها السهم المنطلق لا ساكن ولا متحرك .

الحصان الأسمر والثور الأسود يكونان ثلاثة

الكلب الأبيض أسود

الصبي اليتيم لم نكن له أم قط

اذا قطعت عصا طولها قدم نصفين كل يوم فسيبقى لها ما تخلفه بعد عشرة آلاف جيل(٣) .

نيدهام ١٩٢

- هذه المفارقات حارت فيها افهام الشراح الصينيين . رأى بعضهم ان الأولى بفرعيها ربما اريد بها كروية الأرض . لكن الأرض في الفلك الصيني مربعة. ورجحوا أن الثانية قد يراد بها اختلاف الوقت باختلاف المكان . وسكتوا عن الباقي . وأرى من جهتي أن المفارقة المهمشة(٣)، الأخيرة منها ، تشير الى الانقسام اللامتناهي للجسم وهو المذهب الذي اشتهر به الفيلسوف المعتزلي ابراهيم النظّام .

١٧ - توجيه نحو السببية

هواي نان

لماذا يصب النهر الأصفر في البحر رغم ان له تسعة انعطافات ؟ هذا لأن له منبع لا ينضب في جبال كون لون . . مياه الفيضان تتجمع فوق القيعان ولكن اذا لم ينزل مطر لعشرة أيام أو شهر تجف لأنها لا تملك منبع .

نيدهام ٧١

- دعا هواي نان الى الاهتمام بأصول الظواهر لتجنب الأغلاط في المعرفة والأخطاء في السلوك .

١٨ نقد نظام الطبيعة

وانغ تشونغ

الحراثة العزق ، البذار أفعال مصممة . لكن نمو البذور وعدمه يعتمد على الصدفة والفعل العفوي . كيف نعرف ؟ اذا كانت السماء قد ذرأت مخلوقاتها لغاية فقد كان يجب عليها أن تعلمها كيف تحب بعضها بعضاً لا أن يفترس ويدمر بعضها بعضاً . ومثل هذا الاعتراض يمكن جره على طبيعة العناصر الخمسة اذ أن السماء لما برأت جميع الأشياء أشربتها بـ تشي العناصر الخمسة فراحت تتقاتل ويدمر أحدها الآخر .كان على السماء أن تملأ مخلوقاتها بـ تشي عنصر واحد فقط وتعلمها الحب المتبادل فلا تسمح لها بالاقتتال وتبادل التدمير .

نيدهام ٣٧١

١٩ - نظرية تاوية في أصل الوجود

تشوانغ تسه
ليه تُسه

الأرض أصل جميع الأشياء . جذر وبستان كل الحياة . والماء هو دم ونَفَس الأرض يفيض ويتواصل في جسدها كما في العروق والأطناب . من هنا نقول أن الماء هو المادة الخام التمهيدية لجميع الأشياء .

كيف عرفنا ذلك ؟

الجواب إن الماء ينتج النظافة واللدونة ويجب أن يغسل شرور الانسان . هذا يمكن أن يسمى : معروفه . هويبدو أسود حيناً وأبيض حيناً . وهذا يمكن أن يسمى جوهره . وعندما تقيسه لا تقدر على جعله يستوي في الأعلى لأنه متى ما امتلأ الاناء يفعل ذلك بنفسه .وهذا يمكن تسميته : انتصابه . لا يوجد فراغ لا يجري فيه ولما يبلغ مستواه يتوقف . هذا يمكن أن يسمى : انصافه الناس جميعهم يحبون الذهاب الى الفوق لكن الماء يسرع الى القعر . إن مبدأ النزول الى القعر هو قصر التاو وأداة الحاكم الحق . فهو القعر الذي يذهب اليه الماء ويقيم .

مقياس منسوب الماء هو أبو المقاييس الخمسة . اللون الأبيض هو أس الألوان الخمسة . اللاطعم هو أصل الطعوم الخمسة . وهكذا فالماء هو المستوى القياسي لجميع الأشياء . والعامل المشترك لكل الحياة .ومن هنا ليس من شيء لا يمكن للماء أن يملأه ويقيم فيه . هو ينتج في الصخور والمعادن ويتجمع في الكائنات الحية بأسرها . وهكذا فهو الكائن الخفي والسحري .

بالجملة فهو يعطي جميع النباتات والحيوانات شكلها ونموها وبالتالي فلا شيء يمكن أن يذرأ الأشياء كما يذرأها هو .

نيدهام ٤٤ .

قارن مع المذهب السومري حول الماء . ونظرية أول فلاسفة اليونان .

النزول الى القعر أداة الحاكم الحق وهو قصر التاو : نزول الحاكم الى جذور العشب ، نفض الاستعلاء على الناس . قصر التاو مقابل قصر

الامبراطور . قارن : نزول علي بن أبي طالب في الاخصاص ونفضه قصر الامارة في الكوفة .

٢٠ - فكرة الخالق

تشوانغ تسه :

أنه ليبدو ممكناً أن ثمت ديّان حقيقي . إلا أننا لا نجد أثر لوجوده . ويمكن للمرء أن يتصور أن هذا الديان قد تمكن من الفعل إلا أننا لا نرى صورة فعله .

تاوي آخر :

سبيل الناس مشروط بسبل الأرض . وسبل الأرض بسبل السماء وسبل السماء بسبل التاو . والتاو جاء الى الوجود بنفسه .

نيدهام ١٠١ - ١٠٢

٢١ - نسبية وتبادل

تشوانغ تسه

مامن شيء غير عظيم ومامن شيء غير صغير . أن نعرف أن السماء والأرض شيء أكبر من أصغر حبة رز وأن منبت الشعرة في حجم الجبل يعني أن نفهم نسبية المعايير .

مرة أخرى : باختبار الخدمات التي تقدمها الأشياء إذا سمينا نافعاً ما هو أكثر نفعاً فما من أحد غير نافع ، وبنفس الطريقة : مامن أحد غير عديم النفع .

نحن نعرف أيضاً أن الشرق والغرب متقابلان وأن فكرة واحد ما لا توجد كذلك بدون فكرة الآخر . وبهذا تتحدد الخدمة المتبادلة .

نيدهام ٢/ ١٠٣

٢٢ - الطبيعة الواحدة للموجودات وتداخل الظواهر

خوان ينغ تسه

الطبيعة يمكن مقارنتها بمحيط هائل تقع فيه الاف التغيرات . . التماسيح والأسماك هي جوهرياً من مونة واحدة كالماء الذي تعيش فيه . الانسان يحتشد مع عشرة آلاف الأشياء في التغير الأعظم وطبيعته واحدة من تلك

الأشـياء الطـبيـعـية . دارياً أنـني من طـبع واحد كـبـقيـة الموجـودات أدري انه ليـس في الواقع نـفـس منـفـردة ولا شـخصـية مـنـفـردة ولا موت مطـلق ولا حياة مطلقة .

نيدهام ٢ / ٤٤٤

٢٣ - الوحدة الجوهرية المطلقة للتاو

كتاب تشوانغ تسه

التاو تـنتج الملأ والخلاء لكنها ليست ملاء ولا خلاء

تـنتج الذبول والهلاك لكنها ليست ذبول ولا هلاك

تنتج الجذور والأغصان وهي ليست جذور ولا أغصان

تـنتج التراكم والتفرق وهي ليست متراكمة ولا متفرقة

٢٤ - الوجود واحد والموجود متنوع

كتاب تشوانغ تسه

أ - الحياة تابـعةالموت والمـوت سابق الحياة . ولـكن من يدري دورانـاتـهمـا والترابط مابينهما : التاو ؟

حـياة الانسـان مديـنـة لتكـتل الـ تـشي فـإذا مـا تـفـرق ، حدث الموت . ومـادام الموت والحيـاة يعتـمدان على بعـضهمـا لماذا يـنبغي عـلي أن أحسب احـدهمـا شراً ؟

تحسـب الحيـاة جميلة لأنهـا شبـه الروح ومدهـشة . الموت يـحسب شـراً لأنه نتن عفن . لكن النتن العفن يصير بالتعاود شبه الروح ومدهش . ثم يقع التغير المعـاكس ثانية . ومن هنا يقال أن في العـالم تشي واحد . ومن هنا أيضاً بجلَ الحكماء تلك الوحدة .

ب - الانسان يـعود ثانيـة الى النطفـة . جـميع الموجـودات تـأتي من الـنطفـة وتـعود الى النطفة .

٢٥ - نظرية الارتقاء التاوية

كتاب تشوانغ تسه

جـميـع الأنواع تحتـوي علـى نُطفـ . هـذه النطف تـتصيـر في الماء ضـفـدعـاً ومحارة ، على الشاطئ تـصير مخلوقات نباتية عفنة يـتطور قسم منها الى

حشرة . بعد ألف يوم تصير الحشرة طيراً . وتستمر التصيرات متسلسلة لتنتهي الى الحصان الذي ينتج عنه الانسان .

نيدهام ٧٩

قارن : انكسيمانس : يتطور الانسان عن سمكة

المسلمون : تتسلسل المخلوقات من بعضها حتى تنتهي الى أرقاها وهو الانسان دون تحديد مخلوق معين تطور عنه .

دارون : تتسلسل المخلوقات عن بعضها حتى تنتهي الى أرقاها وهو الانسان مع الميل الى تحديد أصل مشترك للانسان والقردة العليا .

٢٦ - جدلية التكوين

كتاب تشوانغ تسه

الين واليانغ تنعكس على بعضها ، يغطي بعضها بعضاً ويرتكس بعضها في بعض . الفصول الأربعة يتخلى بعضها لبعض ، ينتج بعضها بعضاً وينهي بعضها بعضاً . الحب والكره تتضمن التنكب عن هذا والتوجه الى ذاك ، ثم الظهور في جميع تجلياتها . . . ومن هنا يأتي الانفصال والاتحاد بين الذكر والانثى . ثم : ماتراه الآن آمن وتراه الآن محظور في تغير متبادل . التعاسة والسعادة ينتج أحدهما الآخر . السيرورات الوئيدة والسيرورات المنطلقة تتدافع .

هذه الأسماء والسيرورات يمكن تسجيلها وفحصها مهما تكن دقيقة . المبادئ تحدد النسق الذي تتابع فيه . وتأثيراتها المتقابلة تفعل الآن مباشرة ، تتداور الآن ، وحينما تتلاشى تنبعث ومهما انقضت بدأت من جديد . . هذه خصال تعودالى الأشياء . يمكن وضعها بالكلمات ويمكن الوصول اليها بالمعرفة ولكن ليس خارج الحد الأقصى لعالم الطبيعة .

تنبيه - يختم الفيلسوف التاوي مداخلته بموقف لا أدري :

أولئك الذين يدرسون التاو لا يسعهم متابعة التغيرات الى الغاية القصوى ولا أن يستقصوا بداياتها الأولى . هذا هو الموضع الذي نضطر فيه الى وقف الخصومة .

نيدهام ٢ / ٤٠

٢٧ - وحدة الكون التاوية

أحد فلاسفتهم

جوهر الأشياء واحد والمتخالفات متطابقات . كل متخالفين هما المنحى المزدوج للموضوع المفرد .

ويفر ١٤٩

لاوتسه

الموت والحياة وجهان . كائنات لا تحصى تأتي من المش -كائن ، ثم ترجع اليه . تظهر لوقت ثم تختفي . ترتد الى جذورها في حال الاستراحة . ومن هذه الاستراحة تُصدران الى مصير فعال آخر . وهكذا بلا نهاية .

ويفر ١٥٠

٢٨ - التكوين

تشوانغ تسه

المبدأ لاينشاف ، ولا ينفهم ، ولا يُحَس . أي أنه لا يوصف . في البداية الكبرى للأشياء كان ثمت صورة منفية ، كائن غير محسوس ، غير مدرَك . بلا اسم . الموجود الأول كان هو التاو : الوحدة الغير محسوسة : المبدأ . والقوة التي تفيض من الوحدة والتي تتولد منها الكائنات هي الـ تي . وبمضاعفة نفسها تفيض بلا نهاية في منتجاتها فإن هذه القوة تسمى في الأرض مَنغ .

الـ تي بالتركز والامتداد المتناوب يولد الأشياء ، وفي الأشياء المتولدة خطوط معينة تجدد صورها الجسمانية التي يكمن فيها المبدأ الحيوي . كل كائن يؤلف بأسلوبه الخاص به سجيته الخاصة به . ومن هنا تَحدَره من المبدأ .

(أما العودة الى المبدأ فتحصل بالثقافة الأخلاقية والذهنية التي تقود الكائن الجزئي الى التطابق مع القوة الكونية الفعالة والاتحاد مع المبدأ الأول الذي هو الفراغ العظيم ، الكل العظيم) . .

ويفر ١٦٠

قارن : الفناء والحلول والاتحاد في التصوف القطباني .

٢٩ - إتحاد النهايات بالبدايات

كتاب تشوانغ تسه

الين واليانغ بصدورهما عن المبدأ يؤثران في بعضهما ، يدمران بعضهما ، ينتجان بعضهما .

ومن هنا : العالم المادي مع تعاقب الفصول الأربعة ينتج ويعدم بعضه بعضاً .

ومن هنا : العالم الأخلاقي بانجذابه وتنافره ، بمرغوباته وممقوتاته .

ومن هنا : التمييز بين الجنسين واتحادهما للنسل .

ومن هنا : الحالات المتداخلة والمتعاقبة كالرخاء والشظف والأمن والخطر .

ومن هنا : المفاهيم المجردة للتأثير المتبادل والسببية التبادلية ، والارتقاء الدوراني الذي تخْلف فيه البدايات والنهايات . .

٣٠ - لا أدرية

كتاب تشوانغ تسه

القول أن للعالم صانعاً أو أنه جاء من لاشيء هو فرض مجاني . وبالنسبة لي فعندما أتطلع الى الأصل أراه ضائعاً في مسافة غير متناهية . وحين أتطلع الى المستقبل لا أرى نهاية . وكلام الانسان لا يتسع للتعبير عما هو غير محدود وغير متناهي . هو قادر فقط على التعبير عن شئون هذا العالم المحدود والأشياء المتغيرة .

ويفر ١٦٢

وقبلها كتب تشوانغ تسه :

من يعرف المبدأ لا يذهب الى أبعد منه فلا ينظر في طبيعة الصدور الأول ولا في النهايات الأخيرة لنسق الموجودات . هذه أمور لا حل لها . ومحاولة حلها عبث ، يقول تشيه تسه أن العالم هو صنع مبدع سابق للوجود ويقول تشي تشن أنه جاء من لاشيء . كلاهما غلطان .

٣١ - من مسائل المنهج

شون تسه

الحقيقة تدرك بتقليص الأشياء الى الواحدية . بالتركيز . الانسان العادي

يضاعف الأشياء وبسبب ذلك تكثر الأخطاء . والانسان الفطِن يقلصها الى وحدة يحكم منها على الكثير . التركيز صعب . الأذهان التحليلية كثيرة وبسببها تمتلئ الدنيا بالأخطاء . والأذهان التركيبية أقل كثيراً ويسبب ذلك شحة الحقائق .

الحقيقة تتجلى فقط للعقل التركيزي ، الخلي والساكن ، وتنكشف له بالحدس الفجائي كايماضة البرق .

لا يجوز قبول الا مايقبله العقل . يجب عرض جميع المسائل على العقل وتمحيصها قبل الاقرار بها .

ويفر ٢٧٢ .

٣٢ - رأي في العبقرية

شون تسه

الأستذة هي ثمرة للدراسة وليس للعبقرية

ويفر ٢٧٥

٣٣ - إلحاد

تشوشي

لا إله . لا كائن أعلى . لا ديّان . . لا عناية إلهية . العالم وجميع كائناته مؤلف من مبدأين أزليين هما اللي والتشي .

ويفر ٦٦٨

٣٤ - الوجود والماهية

كونغ سون لونغ

الأرض والسماء وما ينتجانه هو الموجودات . ومابه الكائن يكون كائناً هو الماهية . ومابه الماهية تكون ماهية يحدد موقعها في ميزان الكائنات . وهذا الموقع مثبّت بالقانون (المنطقي) .القانون يحدد الماهية التي تتشخص معبراً عنها بالاسم . اذا كان الاسم واضحاً فالموجود معرّف جيداً ومتمايز عن الغير . هذا هذا وذاك ذاك .هذا لا يؤخذ لذاك ولا ذاك لهذا . عدم الدقة في التسمية يسبب الغلط والتشويش . بالتسمية الواضحة يعرف

المرء مايعود اليه ولا يعزو له ماليس منه ، ولا يقول عن هذا ماهو ملائم لذاك ، ولا يعزوا لذاك مايعود لهذا . وهكذا أعطى القدماء اهتمام كبير بدراسة الماهية والاسم من أجل تسمية مضبوطة (تعريف مضبوط) .

ويغر ٢١٩ .

* الماهية : هكذا وردت في الترجمة الانجليزية . ولم أتوصل بعد الى الاصطلاح الصيني .

* للمقارنة مع منطق الأصوليين المسلمين راجع الفرع الأول من هذا الباب .

٣٥ رقمية

شاو يونغ

السماء والأرض لهما أعدادهما . وتطور الكون يتبع هذه الأعداد .ان التوافق الذي نستخلصه من وحدة العالم حقيقته أن الكل صادر عن الواحد .

ويغر ٦٦٠

٣٦ - الروح الحيوية

شاو يونغ

الروح الحيوية للسماء تصدر عن الشمس . وللانسان من القلب في اليقظة ومن أعضائه التناسلية في النوم . الشمس هي الكون الأكبر والقلب هو الكون الأصغر .

ويغر ٦٦٠

٣٧ - تعريفات

مدرسة التاوشيَيَنْ

الـ كُوي والـ شِين هما حالتان للمادة . الأول هو أوج الين والثاني هو أوج اليانغ .

الروحان هُون وباي ماديتان أيضاً . الهون مادة ساخنة والباي باردة ، الهون هي طاقة التنفس والباي طاقة المني .

يجب عدم التفريق بين مادتين بل بين حالتين للمادة هما السكون والحركة ، الين واليانغ . في الانسان المني هو الين والنَفَس هو اليانغ . الباي ين (سالب) والهون يانغ (فعال) .

٣٨ - تسخيف الأدعية والتراتيل

وانغ تشونغ

بلاهة .. السماء لا تسمع مايقول البشر ولا ترى مايعملون . إنها عالية جداً تبعد عنا عشرات الألوف من اللي . هل بامكان الانسان الذي يقف فوق برج أن يسمع حركات النمل تحت أقدام البرج ؟ والأكثر من هذا أن الغرباء لا يفهمون اللغة الصينية فانى للسماء وهي ليست صينية ولا هي انسان والتي هي من طبيعة أخرى تماماً أن تفقه شيئاً مما نقول ؟

ويغر ٣٢٣

٣٩ - المحرك والمتحرك

من مذاهب تاوية أسرة تانغ

كل ماهو متحرك جاء من الغير متحرك . التحرك هو سجية آلة الكون . اللاتحرك هو سجية الوحدة الأولى ، الجذر ، المصير . (البقاء وسط التغير) .

ويغر ٥٧٣

٤٠ - النشأة

خلاصة من لي يوكو - تشوانغ تسه - ليه تسه

في البدء كان ثمت كائن فرد ليس عاقلاً بل قانون قَدَري . ليس روحياً بل مادياً . لا يُدرك لفرط لطافته ، غير متحرك . وجاءت هنيهة ، لا ندري لماذا . شَرَع هذا المبدأ يُصْدر فضيلته التي اتخذ فعلها حالتين متناوبتين هما الين واليانغ . وهذان بدورهما أنتجا بالتكثيف السماء والأرض والهواء بينهما ، والقوى المش - عاقلة التي انتجت الكائنات الحساسة . المبدأ في الكل والكل في المبدأ . الانسان لا يختلف عن سائر الكائنات إلا في أنه أكمل . هذا فقط .

ويغر ١٤٦

٤١ - ماهي السماء ؟

شياو يونغ

السماء لم تتكلم قط

ولا تسكن في اللازورد

ولا هي عالية ولا بعيدة

وإنما ذلك تخيل الانسان في قلبه

ويفر ٦٦٢

قارن مع نفي الجهة في الفكر الاسلامي . وقول ابن رشد (في فصل المقال) من ظن أن الله في السماء فليس من أهل البرهان .

٤٢ ـ مسألة أخرى حول الجهة

سُو مابياو

العالم ليس له حد وبالتالي فكل مكان هو مركز كما هو حال الدائرة .

موجز فونغ يولان ٨٧

٤٣ ـ الوحدة المطلقة

لو جيو يوان

العالم هو عقلي وعقلي هو العالم .

إن كلمات مثل شعور ، طبيعة ، عقل ، وقدرة كلها تعني شيء واحد بنفسه .وأنها لصدفة محضة أن أيساً واحداً يشار اليه باصطلاحات مختلفة .

موجز فونغ يولان ٣٠٧ ـ ٣٠٨

٤٤ ـ من المنطق الشكلي

موهيون

قالوا في الرد على نهي لاوتسه عن نقد الآخرين :

ان ادانة النقد متضاربة . السبب معطى في عدم الادانة .

ان تُدين النقد هو أن تدين إدانة واحد ما خاصة به للنقد . وإذا لم يقم أحد بادانتها فليس هناك مايكون مداناً . وإذا المرء لم يستطع ادانتها فهذا يعني أن لا تدين النقد !

موجز فونغ يولان ١٢٧

قلت : ان منطق أرسطو الشكلي لم يصل الى الصين . وهذه الممارسة المنطقية تأتي في سياق عناية الموهيين بالجدل دون تأثر بمصدر خارجي.

٤٥ - كليات

تشينغ بي وتجو شي

الاختلاف في الأشياء يرجع الى الاختلاف في الـ لي . فالورقة والزهرة يجسدان على السواء تكاثف الـ تشي . لكن ذلك لا يفسر اختلافهما الذي يرجع الى أن الزهرة تكونت بموجب لي ها الخاص . . وكذلك الورقة . الـ لي خالد لا يزيد ولا ينقص . لا ينعدم ولا ينوجد الـ لي مش واحد فلكل شيء لي .

عالم مافوق الأشكال خاوي ، بلا شيء ، ومملوء مع ذلك بالكل .

شرح فونغ يولان : أنه خاوي من الملموسات (الجزئيات . . .) مملوء بالـ لينات .
الـ لي خالد سواء وجد له مقابل في العالم الواقعي أم لا .

ص ٢٨٥ - ٢٨٦

٤٦ - تحديدات للـ تشي

جانغ تْساي

١ - عندما يتكاثف الـ تشي يكون ظاهر ومرئي فتنشأ حينئذ الأشكال . وعندما ينتشر لا يكون مرئي وبالتالي لا تكون هناك أشكال .

٢ - إذا عرف المرء أن الخالي هو تشي عرف أنه ليس ثمت وو (عدم) فالخالي ليس في الحقيقة خلاء مطلق ، إنه ، ببساطة ، الـ تشي في حال انتشاره التي لا يكون فيها مرئي .

حول الأول : قارن : التخلخل والتكاثف عند انكسيمانس .

حول الثاني : انكار العدم المطلق عند فلاسفة الاسلام . وقول الملا صدرا أن الليس المطلق غير قابل لشيء .

٤٧ - أزلية العالم

تشوانغ تسه

ليس ثمت ماضي ولا حاضر ولابدء ولا انتهاء .

أورد فونغ يولان في الموسم شرحاً على هذا القول منسوب الى كوشيانغ أو شيانغ شيو :

ليس فقط أن الوو (العدم) لا يمكن أن يصير وجود (يو) إنما الوجود أيضاً لا

يمكن أن يصير عدم . ولو أن الكائن يتحول آلاف المرات فمن المحال تحوله الى عدم . وعلى هذا لم يكن وقت كان فيه عدم . الكائن موجود أبداً .

موسم فونغ يولان ٢ / ٢٠٩

* يو بامالة الواو

٤٨ - الخالق عند التاويين

في الشرح على تشوانغ تسه

بعض الناس يقول أن شبه الظل يعتمد على الظل ، والظل على الصور الجسمية ، والصور الجسمية على الخالق . لكني أغامر بالسؤال عما اذا كان الخالق أيس أم ليس . فإن يكن ليس كيف يقدر على خلق الأشياء ؟ وإن يكن أيس فهو كواحد من هذه الأشياء لا قدرة له على خلق كتلة الصور الجسمية . وعليه بعد أن نتحقق من أن كتلة الصور الجسمية هي أشياء لنفسها يمكننا فقط أن نبدأ الكلام عن خلق الأشياء . ومن هنا فمن خلال حكم الأشياء ليس ثمت ماهو داخل في الخفاء ، حتى شبه الظل غير المتحول ذاتياً . وبالتالي فإن خلق الأشياء ليس له رب . كل شيء يخلق نفسه . كل شيء ينتج نفسه ولا يعتمد على أي شيء آخر . هذا هو السبيل السوي للوجود .

موسم فونغ يولان ٢ / ٢١٠

٤٩ - العالم في العالم

تشوانغ تسه

إذا أخفيت العالم في العالم لا تبقى فيه فسحة قابلة للخلاء .

في الشرح عليه :

الانسان الكامل ينغمر في الأشياء وينسى التمايزات ولا يبقى لديه داخلي وخارجي بل يتطابق مع العالم ويذوب في أطواره .

موسم فونغ يولان ٢ / ٢٣٣

قلت : هذا تفسيره أخلاقياً . لكن النص يشتمل على مفهوم كونيّاني يمس مسألة الخلاء والملأ .

٥٠ - مركب العلاقات المتداخلة
تشوانغ تسه

كل شيء هو بعض لشيء وجيد لشيء . ليس من شيء لا يكون بعضاً لشيء أو لا يكون جيداً لشيء .

أن تقوم بتمييز هو أن تقوم ببعض التركيب ، لكن البناء كالتخريب . وبالنسبة للأشياء ككل ليس من بناء أو تخريب فهي تجنح الى الاتحاد وتصير واحدة . (إذا جعل أحد من الخشب طاولة فمن وجهة نظر الخشب يعتبر هذا تخريب . ومن وجهة نظر الطاولة بناء) وهذه نظرة أحادية من الخشب والطاولة كلاهما . ومن وجهة نظر التاو الفروقات نسبية .

موسم يولان ٢ / ١١٢ - ١١٣

٥١ - نص أخر عن العلاقات المتداخلة
تشوانغ تسه

ليس في العالم أوسع من قطر شعرة . على أن جبل التاي صغير ! السماء والأرض وأنا جئنا الى الوجود معاً . وجميع الموجودات معي واحدة .

هذا هو ذاك وذاك هو هذا . وهذا وذاك لهما ند ق للخطأ والصواب : هل من فرق حقيقي بينهما ؟ ان امتناع هذا وذاك عن التعارض هو الجوهر الحاسم للتاو .

موسم فونغ يولان ١١٢

٥٢ - قاعدة منهجية
وانغ تشونغ

ليس في الأشياء أوضح بياناً من النتائج وليس في البراهين أحسم من الدليل

الموسم ٢ / ٢١٨

٥٣ - الحقيقة العليا - اتحاد الوجود والعدم
تشي شانغ

يرى العامة جميع الأشياء على أنها موجودات (يو) ولا يعرفون شيئاً عن الوو (العدم) ومن هنا أفهمهم البوذيون أن جميع الأشياء هي بالفعل

معدومة وفارغة . وعلى هذا المستوى فإن القول بأن جميع الأشياء موجودة هو حقيقة محسوسة عامة وان القول بانها معدومة هو حقيقة محسوسة عامة .

ان القول بأن جميع الأشياء موجودة أحادي الجانب . والقول انها معدومة أحادي الجانب . كلاهما أحادي لأنهما يعطيان الناس انطباع مغلوط بأن العدم ينتج فقط من غياب أو زوال الموجود . بيد أن الموجود في الحقيقة الفعلية هو في نفس الوقت ماهو معدوم . والحقيقة المحسوسة العامة هي أن الوجود والعدم متساويان وأن السبيل الأوسط الغير أحادي يكمن في فهم ان الأشياء لا موجودة ولا معدومة . هذه هي الحقيقة الحسية العليا .
لكن هذا أيضاً حقيقة حسية عامة . أما الحقيقة العليا فهي أن تقول ان الأشياء لا موجودة ولا معدومة وليست لا موجودة وليست لا معدومة . وبالتالي فإن السبيل الأوسط لا هو أحادي الجانب ولا هو غير أحادي الجانب .
موسم فونغ يولان ٢ / ٥٤٢

٥٤ - تجريد التاو

شيانغ غو

أنكر لاوتسه وتشوانغ تسه وجود خالق شخصي باحلال التاو الغير شخصي محله . لكن التاو هو في الواقع لاشيء . ان قول التاويين الأوائل ان الأشياء تنشأ من التاو يعني ببساطة ان كل الأشياء تنشأ من نفسها . ومن هنا قالوا ان التاو قادر على اللاشيء . ان القول بأن أي شيء منبثق من التاو يعني انه منبثق من نفسه .

موسم فونغ يولان ٢ / ١٢٢

٥٥ - الخلق التلقائي المستمر

شيانغ غو

في الوجود : ماهو السابق للأشياء ؟ اننا نقول ان الين واليانغ سابقان للأشياء . لكن الين واليانغ هما نفسيهما شيئان . فما هو السابق للين واليانغ ؟ قد يقال ان الطبيعة سابقة للأشياء ، لكن الطبيعة هي ببساطة

طبيعة الأشياء أو يقال ان التاو سابق للأشياء لكن التاو هو لاشيء . وإذ يكون لا شيء كيف يكون سابق للأشياء ؟ نحن لا نعرف ماهو السابق للأشياء مادامت الأشياء في خلق مستمر .

ان هذا يظهر لنا ان الكائنات هي ماهي عليه بالتلقاء .

الموسم ١٢٢

٥٦ - جدلية الولادة

شيانغ غو

عندما يولد الانسان مهما يكن ضئيلاً فانه يمتلك الخواص التي يجب أن تكون له وهو يحتاج الى العالم بأسره كشرط لوجوده . ولا يخلو العالم بأسره من التأثير عليه . وإذا نقصه عامل ما فقد استحال وجوده .

الموسم ٢٢٢

٥٧ - وتبادل هذا وذاك

شيانغ غو

في العالم كل شيء يعتبر نفسه هذا . ويعتبر الأشياء الأخرى ذاك . الهذا والذاك يعملان كل لنفسه بحيث انهما يظهران متباعدين كتباعد الشرق والغرب . مع ذلك فإن الهذا والذاك لهما علاقة ببعضهما تشبه العلاقة بين الشفتين والأسنان . ان الشفاه لم توجد لأجل الأسنان ، لكن إذا فقدت الشفاه تشعر الأسنان بالبرد (مثل صيني) . ومن هنا فإن فعل الذاك لنفسه يساهم كثيراً في مؤازرة الهذا .

٥٨ - جبرية تنتهي الى حرية :

شيانغ غو

لم نأت الى الحياة بمفاجأة . وليس بالصدفة كانت حياتنا ماهي عليه . الكون عظيم الامتداد . الأشياء شديدة التنوع ونحن فيها ما نحن عليه بالتمام . ما لسنا نحن لا نقدر أن نكونه . مانحن عليه لا يمكن إلا أن نكونه . ماليس لنا أن نفعله لا نستطيع أن نفعله . ما نستطيع أن نفعله لا نستطيع إلا أن نفعله . دع كل شيء يكون ماهو عليه فسيكون السلام .

نفس المصدر ٢٢٣ .

٥٩ - ماقبل اللم ؟

تشوشي

قبل الأسمى يجب أن تكون دنيا . تماماً كما ان ليلة أمس تمر في / إلى نهار اليوم .

٦٠ - مثالية ذاتية

يانغ تشيانغ (تشينغ تشون)

ان سيرورة التغير هي النفس لا غيرها .

الكون هو كوني الخاص بي . وتحولاته هي تحولاتي الخاصة بي . فهي ليست بحال خارجة عن النفس .

الأرض شكل يكمن في طبيعتي الخاصة بي . السماء رمز يكمن في طبيعتي الخاصة بي .

في السماء رموز تكمن هناك . وفي الأرض أشكال تتشكل هناك . . وجميعها من انتاجي .

الموسم ٢ / ٥٨٢ - ٥٨٣

٦١ - نشكونيات

تشوشي

العلي الأسمى يحتوي المبادئ التي تحكم الحركة والسكون . وبسبب هذه المبادئ يقبل الأثير الحركة والسكون حيث ينشط فيصير اثير يانغ ، ويخمل فيصير أثير ين .

الحركة والسكون تناوبهما جذر لبعضهما . ثمت حركة فسكون ، وسكون فحركة . ينفتحان وينغلقان . يأتيان ويذهبان . يعقب أحدهما الآخر دون توقف . ثمت انقسام الى ين ويانغ وصورتان تنشأن عليهما . هاتين الصورتين هما الأرض والسماء . حين تكونان بعد في حال العماء واللاتمايز يكون الأثير يانغ والأثير ين متمازجين وغامضين . وبانفصالهما يأتي الانتشار والاستنارة . ومن ثم تنشأ الصورتان .

في مقام آخر يقول تشوشي :

يبدو لي أنه في البداية حين كانت السماء والأرض في الشواش كان الماء

والنار . ومن الماء تكونت الأرض بعد ما ترسب .

دليل ذلك ان من صعد الى شاهق رأى الجبال على شكل أمواج مما يوحي لنا أن الماء كان قد جرى في هذه المسالك .

موسم يولان ٢ / ٥٤٨ .

٦٢ - دورات النشأة

كانغ تشيه

وجود العالم يخضع لدورات (يوان) كل يوان يستمر ١٢٩ ألف وستمئة سنة والدورات متعاقبة في سيرورة أبدية مش - متناهية يتبدل فيها عالم بأخر .

ويفصل تشانغ تساي هذه السيرورة :

التكاثف المرئي للتشي من الخواء وانحلاله اليه يشبه انجماد الثلج من الماء وذوبانه اليه . ما ان نتحقق من أن الخواء العظيم هو شيء ما مثل التشي (المرئي) فإنه يتحقق لنا أنه لا وجود للعدم .

التشي يتكاثف بفيض الين واليانغ وتفاعلاتهما فتنشأ منه موجودات عالم الطبيعة .

الخواء العظيم لا يمكن إلا أن يتألف من الـ تشي . الـ تشي لا يمكن إلا أن يتكاثف ليشكل الأشياء . وهذه الأشياء لا يمكن الا ان تنفرط لتشكل الخواء العظيم . ان ديمومة هذه السيرورات دورياً هي أمر محتوم .

الموسم ٤٨٠ / ٤٨٤

٦٣ - الموت - بين فهم الطبيعة والجهل بها :

تشيه شيه صديق لاوتسه يندد بالنياحة عليه بعد موته :

هذا هو الخرق لمبدأ الطبيعة وزيادة انفعال الانسان ، ناسين ما أخذه من الطبيعة . وتسمى هذه عند القدماء عقوبة خرق مبدأ الطبيعة . لما جاء السيد فلأنه أخذ المناسبة لأن يولد . ولما ذهب فقد اتبع ببساطة مجرى الطبيعة . أولئك المُثْبتين عند المناسبة الخاصة ويتبعون مجرى الطبيعة لن يتأثروا بفرح أو غم . انهم أتباع الآلهة الذين تحرروا من العبودية .

تعقيب الشارح التاوي :

ان الجهل بالطبيعة يسبب الانفعال . وفهمها يساعد على تشتيت التوترات .

الموسم ٢ / ١٠٨

٦٤ - منطقيات مُوهية

موتسه

- السبب هو الذي به يحصل الشيء .

- السبب سببان :

سبب أصغر وهو الشيء الذي لا يكون بـه الشيء هكذا بالضرورة . لكن بدونه لا يكون . مثال ذلك النقطة في الخط .

سبب أكبر وهو مايكون بـه الشيء هكذا بالضرورة . وبدونه لا يكون . كما في حال الرؤية التي تنتج عن النظر .

- تتألف المعرفة من السماع بالشيء أو لا . والمسموعات لها معنيان مختلفان : المسموع من الآخرين والمسموع بنفسك .

إذا قلت رأيت ذلك بعيني فهذه شهادة شخصية من نفسك (يعني أنها أقل وثاقة من السماع لأن فيه مشاركة من الغير) .

- ان طريق معرفة ما اذا كان الشيء موجود أم لا تعتمد على شهادة عيون وآذان العامة . إذا سمعها البعض أو رآها فلنا أن نقول انها موجودة والا فهي مفقودة .

- النار حارة . السبب معطى في التمثيل . . حينما يقول المرء أن النار حارة فذلك ليس لحرارتها فقط وإنما لأني أقرن بين حاسة النظر الى الشيء وحاسة اللمس .

- التماثل المتبادل للأشياء هو من فا - (ناموس) واحد يعم كل أفراد ذلك النوع .وهكذا فالمربعات مشابهة لبعضها . والسبب معطى في المربعة . جميع المربعات لها فا واحد . ولو انها متباينة ؛ فبعضها من خشب وبعضها من حجر . لكن ذلك لا يمنع من تطابق تربيعها المتبادل .

- لكن الـ فا المختلفة (النواميس المختلفة) لها تماثلات . هذا يمكن

ملاحظته . اذا استقصيناها وقلبناها توصلنا الى وجوهها الأساسية (أسبابها الأساسية) .

ان تماثلات الفا المختلفة (النواميس المختلفة) ينبغي انتقاؤها ، ملاحظتها استقصاؤها ، وتقليبها .

- حين نقول ان بعض الناس أسود من بعض فيجب أن تكون هناك نقطة تبدأ عندها الوضاءة ويتوقف السواد .

- إن القول بأن الثور والحصان ليست ثيران والقول انها ثيران هو سواء . السبب معطى في العموم .

لا يجوز القول ان الثور والحصان ليست ثيران ، ولا القول انها ثيران . هذا جائز من وجوه وغير جائز من وجوه .

أكثر من ذلك ان الثور ليس اثنين والحصان ليس اثنين بينما الثور والحصان اثنان . ثم انه لا صعوبة في أن الثور ليس إلا حصان والحصان ليس إلا ثور . لكن الثور والحصان ليسا ثوراً ولا حصاناً .

موجز فونغ يولان ١٦٩ - ١٧٨

٦٥ - رد على الموهيين

وانغ تشونغ انتقد الموهيين لحصرهم المعرفة في المسموع والمرئي . وانكار ماوراء ذلك . أي عدم تحكيم العقل فيما وراء الحس . بينما يصرون على ان الحقائق تثبت بمعطيات السمع والبصر لعامة الناس .

٦٦ - مداخلات منطقية :

هوي شيه (الأسماء)

السماء واطئة كالأرض . الجبال في نفس مستوى البطاح . الشمس في الزوال هي الشمس بعده . الكائنات الوليدة هي الكائنات الميتة .

شرح ذلك

ان التماثل الكبير يختلف عن التماثل الصغير . هذا يسمى تماثل واختلاف صغيرين . جميع الموجودات متشابهة من جهة ومختلفة من جهة . هذا يسمى التماثل والاختلاف الكبيرين . حينما نقول ان جميع الناس حيوانات

فاننا نُقر بأن جميع الكائنات البشرية متماثلة من حيث انها كائنات بشرية ومتماثلة أيضاً من حيث انها حيوانات . وهذا لان كونها كائنات بشرية يتضمن كونها حيوانات . لكن كون الشيء حيوان لا يتضمن بالضرورة كونه بشر لأن ثمت أنواع من الحيوانات تختلف عن الانسان . وهذا الضرب من التماثل والاختلاف هو التماثل والاختلاف الصغيرين .

الكائنات في كليتها تتماثل لكن أفرادها تتخالف . وهذا الضرب من التماثل والتخالف يسمى التماثل والاختلاف الصغيرين .

٦٧ - خلود العالم

لاوتسه

السماء والأرض ماكثتان الى الأبد
لماذا تمكث السماء والأرض الى الأبد
لانهما غير مخلوقتين
ولذلك تعيشان الى الأبد

كتاب تاوتي تشنغ

٦٨ - نشكونيات

لاوتسه

شيء ما تشكل في السر
ولد قبل السماوات والأرض
في الصمت والخلاء
أحدياً ، لا متغيراً
حاضراً أبداً ومتحركاً أبداً
قد يكون هو الأم للعشرة آلاف شيء
أنا لا أعرف اسمه
لكني أسميه التاو
ولأني لا أجد كلمة أفضل أدعوه ذو الجلال
وهو من جلاله يجري
يجري بعيداً بعيداً

حتى اذا بلغ الغاية القصوى قفل راجعاً .

تاوتي تشنغ

٦٩ - البسيط المطلق

لاوتسه

التاو لا سبيل الى تعريفه قط

وهو من الصغر في حالة اللاتشكل بحيث يتعذر الامساك به .

تاوتي تشنغ

٧٠ - التشكل

لاوتسه

كل الأشياء تأتي من التاو

وتترعرع بالـ تي

وتستمد صورتها من المادة

وشكلها من المحيط

تاوتي تشنغ

- التاو هنا هو المطلق المجهول الذي ينتج عنه الـ تي - الماهية ؟ - الذي تتشكل فيه المادة لتكوين صورة الشيء المستفادة في كيفية تشخصها (هويتها) من الوسط ...

٧١ - نشكونيات

كتاب التوهج العظيم

- كانت هناك البداية . كانت هناك بداية تسبق هذه البداية . كانت هناك بداية أسبقية حتى قبل بداية هذه الأسبقية .

كان ثمت وجود . كان ثمت اللاوجود . كان ثمت ليس بعد بداية للاوجود . كان ثمت ليس بعد بداية لما هو ليس ثمت بعد بداية للاوجود .

- **تفصيل عما يعادل الطور الأخير :**

السماء والأرض غير مقسمتين . الفصول الأربعة لم تنفصل بعد . عشرات ألوف الأشياء لم تولد بعد . الصور غير منظورة .

- المرء يقول بامكاني تقييم اللاوجود لكن لا وجود اللاوجود أعمق من أن

أتصوره . الجواب ان هذه المجريات عظيمة الخفاء بعيدة عن حدود الذهن .

ص ٣١ - ٣٣

٧٢ - خلود العالم

التوهج العظيم

إذا كان العالم يختفي في العالم فليس من امكانية لحجبه . بكلمة أخرى : التاو متمادة مع الكون وهي أمنة من التغير والفساد .

ص ٣٣

٧٣ - نشوئيات

التوهج العظيم

اللاصورة تنتج الصورة

ص ٤٢

٧٤ - وحدة وجود

التوهج العظيم

الانسان والسماء والأرض تتمازج وتتداخل بالتبادل

ص ٦٠

٧٥ - نشوئيات

التوهج العظيم

- بدون فعل جاءت الأشياء الى الوجود تحت وحي التاو . ليس من صوت أو كلام يدل على الفعالية - النشوءات المتعاقبة تتتابع من ألواحها التي تتخلل الكل .

ص٣

- في البدء حصّلت القوتان ين ويانغ جوهر التاو وصارتا قوى منظمة مركزية . وقد حددت الهيتهما ونفوذهما تحولات السماء وركون الأرض .

ص ٣

٧٦ - الكون الأصغر

التوهج العظيم

جسم الانسان كون صغير . صورة مصغرة للعالم . والأطراف الأربعة وجميع

الأوصال لها نظائر في العالم الأكبر . (خلاصة)

ص ٦٠

قارن مع قول الفيلسوف المسلم يخاطب الانسان :

وتحسب انك جِرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر

٧٧ - تعدد العوالم

ليه تسه

توجهتُ الى الشرق حتى ينغ وسالت : ماذا بعد هذا ؛ فاجبت نفس ماهنا

وتوجهتُ الى الغرب حتى ين وسالت : ماذا بعد هذا فاجبت : نفس ماهنا

.

استخلصت من هذه التجربة ان اصطلاح بحار أربعة وأقاليم أربعة قد لا يكون مطلقاً . فلابد أخيراً من الوصول الى اللامتناهي ، المش - محدود .
ان يكن كوننا (الأرض والسماء) محدود (متناهي) أليس هو متواصل من غير نهاية مع أكوان أخرى ؛ من يدري أن كوننا ليس أكثر من فرد في لامتناهي .

ويفر ص ١٦٧

قارن:

١ - تعدد العوالم عند الرازي

٢ - قول امام الشيعة جعفر الصادق ان هناك اثني عشر الف عالم كعالمنا الأرضي وانهم يعبدون الله مثلنا ...

(كانت لجعفر عناية بالعلوم على هامش اشتغاله في الفقه)

الخصال للصَدوق . فصل الاثني عشر

٧٨ - نفي الغائية

في كتاب ليه تسه

أقام السيد تيان . من أهل دولة تشي وليمة في قصره حضرها ألف صيني . وكان يجلس في وسطهم فصارت أصناف السمك والطرائد تمر من أمامه فقال باستمتاع شديد :

كم هي سخية السماء على الانسان ! تصنع خمس أصناف من القمح . وتجلب قبائل مزعنفة ومريّشة مخصوصة لمنفعتنا .

صفق جميع الحاضرين ماخلا ابناً للسيد باو في الثانية عشرة قال : الأمر ليس كما قال سيدي . ان العشرة آلاف مخلوق في العالم ونحن أنفسنا ننتمي الى نوع واحد . وفي هذا النوع لا يوجد نبيل ووضيع . فقط بسبب الحجم والقوة أو المكر ينال احدهما السيادة على الأخر . ويتغذى أحدهما بالأخر . وليس من أحد بينها خُلق لخدمة أغراض الأخر . الانسان يصطاد ويأكل ماهو ملائم لطعامه ولكن كيف يصح اعتبار ان السماء أوجدتها له بالضبط ؟ ان البعوض يمتص من دمه والنمور والذئاب تلتهم لحمه غير أننا لا نقدر على القول ان السماء خلقت الانسان لمنفعة البعوض والذئاب والنمور ...

٧٩ - وقائع اضطهاد للفلاسفة :

١ - تشين شي هوانغ ، أول أباطرة أسرة تشين (أول امبراطور صيني) أمر بدفن الكتاب الكونفوشيين أحياء لمعارضتهم سياسته .

٢ - اضطهد المغول في أسرة يوان فلاسفة التاو وكهنة الدير التاوي وصدر فرمان في ١٢٨١ بحرق كتبهم عدا تاوتي تشينغ . بدون سبب واضح سوى احتمال أن يكون رد فعل ، حسب تخريج نيدهام ، لاحتلال التاويين بعض المعابد البوذية . وكانت البوذية في فرعها اللاموي هي المعتقد الرسمي لأسرة يوان المغولية .

نيدهام ١ / ١٤٢

الحقيقة ان مجرد احتلال بعض المعابد لا يعطي المبرر الكافي لهذا الاجراء . وإنما كان ذريعة لمجابهة المقاومة الصينية للمغول . وقد أورد نيدهام بدوره ان التاوية اضطرت الى الاشتغال سراً كديانة وطنية ضد التسلط الأجنبي . مما يعني ان المقاومة قد اتخذت من الدين التاوي ايديولوجيا مضادة لعقيدته الرسمية وانها شكلت بالتالي حافز نضال ضد المحتل وديانته .

٣ - الفيلسوف الحدسي وانغ يانغ مينغ (١٤٧٢ - ١٥٢٩) غضب عليه

امبراطور مينغ فنفاه الى قويتشو وهي مقاطعة منعزلة بعيدة عن المدنية فقيرة قليلة السكان . وهناك حصل له الاشراق ووضع نظرياته على أساس الحدس .

موسم فونغ يولان ٢ / ١٠٧

٨٠ - تطور المعرفة

التوهج العظيم

الكتب تأتي من الكلمات . الكلمات تأتي من المعرفة . والمعرفة تتبدل . المكتبة تصبح جِذلاً ميتاً .

ص ١١٦ م .

٨١ - جوهر التاو

انظر . تجدها غير ممكنة الرؤية - في منأى عن الصورة
اسمع . تجدها غير ممكنة السماع - في منأى عن الصوت
أمسك . تجدها غير ممكنة الامساك - غير قابلة للمس
هذه الثلاثة لا تُعرف
ومن هنا فهي مندمجة في واحد
من الأعلى ، هي ليست مضيئة
من الأسفل ، ليست معتمة
خيط غير مقطوع . يمتنع وصفه
وانها لتئول الى اللاشيئية
شكل اللاصورة
بعيداً عن التعريف .. بعيداً عن الخيال
قف قبلها لا ترى بداية
كن بعدها لا ترى نهاية .

تاوتي تشنغ

٨٢ - مطلقيةالتاو

عابر السبيل قد يتوقف للموسيقى والطعام الجيد
لكن وصف التاو هو أنه :

دون مونة ولا طعم

غير ممكن الرؤية . غير ممكن السماع

وبالتالي فهو لا ينفد

تاوتي تشنغ

٨٣ - درجات المعرفة وأنماط الأذهان

تشوانغ تسه

المعرفة العظيمة تشتمل على كل شيء . المعرفة الصغيرة منحصرة . الكلام العظيم لا لذوعة له .الكلام الضنيل يمكن يكون لاذع ، إلا أنه مجرد هذيان .ما إذا كان الناس في حال النعاس والروح تتآصر مع الروح . أو ما إذا كان الناس في حال اليقظة والبدن متحرر وتواصلاته هي أس التجامع ، فالذهن ينخرط يوماً فيوماً في الصراع . ثمت خَوَر ، أحزان ، تحفظات ، مخاوف صغيرة تقود الى التشوش ومخاوف كبيرة تقود الى التهور .

خذ الذهن : لدى بعض الناس ينطلق قُدُماً كالسهم مسيطراً على الصواب والخطا . عند بعضهم يُحجم مكتفياً بحراسة ما اكتسبه . عند بعضهم يتحلل مثل انحدار السنين .بكلمة أخرى يتفتت يوماً بعد يوم الى اللاشيء . لدى البعض يغرق في نشاط مبدع لا يسعه الانفلات منه . ولدى بعضهم يُختم عليه بالمقت ، بكلمة أخرى مثل وشل قديم مخنوق بالوحل .

هيوز ١٧٢

٨٤ تداعي ديالكتيكي

تشوانغ تسه

لا يختلف الشيء في اتصافه بما يجعله ماهو عليه ولا في اتصافه بما يجعله ممكن . لا يوجد شيء ليس هو ماهو عليه ولا ماهو غير ممكن ومن هنا توجد عوارض السقوف بجانب الأعمدة المتينة ، الدمامة بجانب الحسن .

نفسه

٨٥ - النشأة

المعاودة هي حركة التاو

الاذعان هو سبيل التاو

العشرة آلاف شيء متولدة من الكائن
الكائن متولد من اللاكائن
مسلسل الخلق
التاو تنسل الواحد
الواحد ينسل الاثنين
الاثنين تنسل الثلاثة
الثلاثة تنسل العشرة آلاف شيء
العشرة آلاف شيء تحمل الين وتحتضن اليانغ
وتحقق انسجامها بالدمج بين هاتين القوتين

تاوتي تشينغ

٨٦ - مطلقات تاوية
أحد فلاسفتهم

المبدأ الذي فيه الأشياء مودع فيها . وهو لا نهائي ولذلك فهو غير مدرَك المحرك هو المحدود ، المتناهي ، فقط .

ويغر ١٦٢ - ١٦٣

٨٧- العناصر الخمسة للوجود المادي

في نقش على مقبض سيف من اليشب حوالي ٤٠٠ ق.م :
العناصر أو الفضائل الخمسة تشمل : النار ، الخشب ، الأرض ، المعدن ، والماء ويقول النقش اليشبي :
عندما يستقر تشي العناصر يكون التكاثف . هذا التكاثف يكتسب روحاً . بعد أن تحرز الروح تهبط (تولد ؟) وبعد ماتهبط تغدو ثابتة (تامة في كل أجزائها) . وبعدما تغدو ثابتة تكتسب قوة . ثم مع القوة تأتي الفطنة ومع الفطنة يأتي النمو . النمو يقود الى القوام الناجز . وبالقوام الناجز تكون انساناً بحق .

نيدهلم ٢٤٢

٨٨ - العناصر أيضاً : خواصها - فعلها - طعمها

خلاصة نص من القرن الثالث ق .م

العنصر	الفعل	السجية	الطعم
الماء	انسياب . قَطْر . هبوط	سيولة . فيوضة . ذوبان	ملوحة
الخشب	قبول التشكل بالخضوع للقطع والحز	صلابة مع مطاوعة .	حموضة
النار	تسخين . حرق . صعود	حرارة . احتراق .	مرارة
المعدن	قبول الصورة بانصبابه مائعاً . وقابلية تبديل الصورة بإعادة الصهر والصب .	صلابة مع تخثر	حرافة
الأرض	انتاج الخضار المأكول .	الاغتذاء	حلاوة

ترتيب العناصر من حيث أوليتها غير متعين هنا .

نيدهام ٢٤٣

٨٩ - لا ادارية

ليه تسه

الجزم بأن الأرض والسماء ستزولان إسراف . والجزم بأنهما سوف تستمران إسراف . من المتعذر أن نعرف يقيناً ماذا سيحدث لهما بنعم أو لا .

ويغر ١٦٧

الفرع الثالث

نصوص من الفلسفة الاجتماعية

١ – أصل الدولة وغايتها

موتسه

كان الناس يعيشون في دولة الطبيعة وفق معايير فردية : لكل فرد معياره . فوقعت الفوضى والتخبط . ثم توصلوا الى الدولة لتوحيد المعايير : معيار واحد للجميع يُمنع من تجاوزه الى معيار آخر . فالدولة نشأت بإرادة الناس . وقد أرادت السماء والأرواح منها جلب المصالح للناس ودرء المفاسد عنهم وإغناء الفقراء وتكثير القليل ولم تريد لهم المناصب العالية . وتبعاً لذلك تكون الدولة قد نشأت بإرادة السماء (لا بإرادة الامبراطور) .

موجز فونغ يولان ٥٨ – ٥٩

٢ – من شروط اللابشري

مينشيوس

من ينقصه حس المواساة مش بشر

من ينقصه الحياء والكرم مش بشر

من ينقصه التواضع والخشوع مش بشر

من يـنقصه الإحساس بالحق والباطل مش بشر

موجز فونغ يولان ٧٠

٣ - الجمع بين الأنانية والغيرية

يانغ تشو

لا أعطي شعرة من رجلي ولو كان فيها صلاح العالم . الحياة أهم كل الأشياء المشهور بقدرته ونفعه هو مثل الزيتونة التي تقطع لزيتها . الإنسان لكي يصون حياته يجب أن لا يكون شريراً . ولكن بقدر ذلك ان لا يكون مسرفاً في الخير ولـيسلك طريقاً وسطاً بين الخير والشر . وعليه أن يسعى ليكون عديم الفائدة حتى يجلب النفع الكبير لنفسه !

موجز فونغ يولان ٦٤ - ٦٥

٤ - يسوعيات

خْوي شيه

أحبب جميع الأشياء بالتساوي . الكون كله جسد واحد

٥ - تغير العادات

التوهج العظيم

العادات والممارسات تتغير . وماهو للحاضر قد يكون غير مجدي لزمان قادم .

ص ١١٦ .

قارن مع حكيم اسلامي : لا تقسروا أولادكم على أدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

٦ - الاستغناء عن الدولة

تشوانغ تسه

إذا لم يدنّس الناس جبلّتهم ولزموا جانب الـ تي فهل من حاجة الى حكومة ؟

موسم فونغ يولان ١٠٦

٧ - تنظير القمع

هان فَيْي

قليل من الناس يفعلون الخير من ذاتهم . فلابد من القانون الذي يمنع

ارتكاب الخطأ .

طبيعة الاسنان شريرة . ومن المتعذر ان يهتدي لما يجب أن يفعل بغير السلطة والقانون .

- هان فيي هو أبو الشرائعيين دعاة الدولة التسلطية .

موجز فونغ يولان ١٦٢

٨ - فكرة تطورية

هان فيي

مع ظهور ظروف جديدة ينبغي البحث عن حلول جديدة

موجز فونغ يولان ١٥٩

٩ - من التصوف القطباني

حدد تشوانغ تسه شروط الحكيمية (المثقفيةالكونية في : عدم المعرفة ، النسيان . عدم التمييز . وقوع الأوصال في اللاعصب ، والذهن في العتمة . والانتقال من ثم الى حضن اللانهاية : وفي هذا الطور يغادر المرء جميع مواقع الاحساس .

موجز فونغ يولان

١٠ - المثقف الكوني والحاكم

تشوانغ تسه

أرسل اليه ملك دولة وَيْ مبعوثين مع هدايا ليدعوه الى بلاطه . فتضاحك ثم قال لهم :

اغربوا عني . لا تدنسوني . أنا أفضل التمتع بارادتي الحرة .

موجز فونغ يولان ١٠٤

١١ - تنظير تاوي للاستبداد

وانغ يي

من التاويين المتأخرين :

الكثير لا يسيطر على الكثير فلابد من الرجوع الى المفرد .

النشاط لا يسيطر على النشاط بل هو الثابت الفرد الذي يسيطر على نشاطات الدنيا كلها ؟

يخلص وانغ من هذا الى أن كل شيء يجب أن يخضع لحاكم فرد .وفكرته غير مستمدة من أصول تاوية .

موسم فونغ يولان ١٨٠

١٢ - ادراة شرائعية

شانغ يانغ

الموظف يجب اختياره لعدم رحمته . ان الموظف الفاضل يجعل الناس يحبون علاقاتهم الخاصة . أما الشرير فيجعلهم يحبون القوانين .

نيدهام ٢ / ٢٠٨

١٣ - مرفوضات شرائعية

يعتبر الشرائعيون المبادئ التالية وظايف طفيلية :

الاهتمام بالقديم . العيش على الآخرين . الجمال . الحب . الطموح . السلوك الفاضل .

نيدهام ٢٠٨

١٤ - العقوبة أولاً :

هان فيي

الناس يخافون العقوبات القاسية ويكرهون العقوبات الثقيلة . وتبعاً لذلك يجب على الحكيم اتباع مايخافون واتيان ما يكرهون لضمان أمن الدولة .

ان الحياء والحب والعطف والاحسان لا تستأهل الالتفات .

لو لم تقم الصغائر لم تقم الكبائر . عاقب بقسوة على الصغائر .

نيدهام ٢ / ٢٠٧

١٥ - مرفوضات شرائعية أخرى

هان فيي

إن مايضعف الدولة التسلطية هو :

دراسة الشعر (الغنائي) أو كلاسيكيات التاريخ .

الطقوس

الموسيقى

طاعة الوالدين والواجب الأخوي

الثقافة الأخلاقية . الإخلاص والإيمان . العفة . الإحسان . الاستقامة . نقد الجيش . والخجل من القتال .

نيدهام ٢ / ٢٠٨

١٦ - وصفة للتسلط

جانغ تشون شو

إن إزاحة القوي بواسطة القوي تجلب الضعف . وإزاحة القوي بواسطة الضعيف تجلب القوة .

يقصد ان الاستناد الى شعب قوي لازاحة سلطة قائمة يضعف الحاكم فيجب أن يحكم الأمير شعباً ضعيفاً .

نيدهام ٢ / ٣١٣

١٧ - تمرين ضد القمع ومن أجل الحوار الديمقراطي وحرية التفكير

تشوانغ تسه

افرض أنك تجادلت معي . فاذا غلبتني بدلاً من أن أغلبك فهل أنت بالضرورة على حق وأنا بالضرورة على باطل ؟ وإذا غلبتك بدلاً من أن تغلبني فهل أنا بالضرورة على حق وأنت بالضرورة على باطل ؟ هل أحدنا محق والأخر مخطئ ؟ أو هل كلانا محق وكلانا مخطئ ؟ لا أنا ولا أنت نعرف ذلك بل ولا سوانا . من ينبغي أن نسأل ليعطي قرار صحيح ؟ قد نسأل أحداً يتفق معك . ولكن مادام يتفق معك كيف يمكنه صوغ القرار ؟ قد نسأل أحداً يتفق معي . ولكن مادام يتفق معي كيف يمكنه صوغ القرار ؟ قد نسأل أحداً يتفق مع كلانا ولكن مادام يتفق مع كلانا كيف يمكنه وضع القرار ؟ قد نسأل واحداً لا يتفق مع كلانا ولكن ما دام لا يتفق مع كلانا كيف يمكنه وضع القرار ؟

عندمايتكلم الانسان يعبر عن وجهة نظره الشخصية وهي نظرة أحادية الجانب .وعندما يجادل الناس تبعاً لنظراتهم الأحادية الجانب فما من طريق للوصول الى نتيجة نهائية ولا لتعيين أية جهة صائبة وأيها مخطئة . ويعني هذا بدوره انتفاء وجود مرجع يحكم على الأشياء بالخطأ أو الصواب وتكون له سلطة تعيين المحق والمبطل من الناس . والمراد ليس انتفاء

الحقيقة على مذهب الشكاك وإنما سحب المسوغ الأديولوجي للقمع .

موسم فونغ يولان

١٨ ـ المطلوب من الحكيم

قاعدة تاوية

الحكيم يمنح نفسه البقاء : أمان . سلام . عقل . كبت العواطف كلها . الامتناع عن كل ما ينهكنا ويمزقنا . اختيار العزلة والخمول (عدم الشهرة) . وإذا سُحب بالإكراه من عزلته الى الادارة فهو يحكم ويدبّر تبعاً لنفس المبادئ دون ارهاق ذهنه .

ويفر ١٤٦ يقارن : اكراه الفقهاء في القرنين الأول والثاني على الاشتغال في القضاء لكسر حركة المقاطعة ضد الخلفاء الأمويين والعباسيين .

١٩- الحرية

ليه تسه

سأل ين بنغ تشونغ كوان يي وو : كيف نديم (نغذي) الحياة ؟ فقال يكفي أن تتركها طليقة لا تكبحها ولا تعوّقها . سأل ين : ماذا عن التفاصيل ؟ أجاب كوان :

دع الأذن تسمع ماتحب . والعين ترى ما تحب . والأنف يشم مايحب . والفم يقول مايحب . والبدن يتمتع بالراحة التي تعجبه ، والذهن يفعل مايحب .

والآن ! فما تهواه الأذن هو الأنغام وما يمنعها من أن تفعل ذلك هو ما أدعوه عائق السمع .

وما تهواه العين هو الألوان الجميلة ، ومنعها من ذلك هو عائق النظر .

وما يحب الأنف أن يشمه هونبات الفلفل والسَحْلَب ومنعه من ذلك هو عائق التنشق .

ومايريد الفم أن يقوله هو الخطأ والصواب ومنعه من ذلك هو عقبة الفهم .

والراحات التي يحبها البدن هي الملابس اللطيفة ومنعه من اتباع ذلك هو عائق مايجده موافقاً .

ومايريده الذهن هو أن يكون طليقاً وفي يسر ومنعه من ذلك هو ما أدعوه

عائق سجيته .

جميع هذه العوايق هي أسباب المحنة الكبرى .

أن يتخلص الإنسان من هذه الأسباب وينتظر من ثم في حالة من السعادة طروق الموت في يوم أو شهر أو سنة أو عشر سنوات ؛ ذلك ما أدعوه ادامة الحياة .

موسم فونغ يولان ١٩٩٦

٢٠ - أسلوب حكم

شون تسه

الحكام العقلاء يعرفون أن الشعب يمكن أن يتحد بالتاو الملكي . وهم يهدونه الى الحقيقة ويذكّرونه من وقت لآخر بالمراسيم وايضاح الحقايق له بالكلام الكاشف ، وينهونه عن الإنحراف بالعقوبات . وبهذا يتهيا للناس أن يهتدوا الى الحقيقة بنفس ماسيهديهم اليه السحر الإلهي . أية حاجة اذن ستكون لهم الى البرهان والجدال ؟

نيدهام ٢ / ٢٨ - ٢٩

لوامع من كتاب منشيوس

٢١ - تانيب ملك هوي :

- كلابك وخنازيرك تأكل طعام الناس ولا تعرف أنت اتخاذ أي اجراء . لديك بشر يحتضرون في الطرقات من الجوع ولا تعرف أنت فتح اهرائك لهم . حين يموت الناس تقول : ليس ذلك مني بل من الموسم . بماذا يختلف هذا عن طعن انسان وقتله ثم قولك : مش أنا قتلته بل السلاح . كف يا حضرة الملك عن لوم الموسم وسياتيك الناس حالاً من جميع أنحاء المملكة .

ص ٤٤٠

- هل من فرق بين قتل انسان بالعصا أو بالسيف ؟

كلا

هل من فرق بين ارتكاب ذلك باسيف أو بأسلوب الحكم ؟

كلا

في مطبخك لحم سمين وفي اصطبلاتك خيل سمان لكن شعبك تظهر عليه

سيماء الجوع . وفي البراري من ماتوا جوعاً . إن ذلك مايغري الضواري بافتراس الناس .

٢٢ - وصفة للتعويض عن صغر مساحة الدولة :

شكا له نفس الملك من تقلص مساحة مملكته فقال له :

- إن بقعة مساحتها مئة لي مربع كافية للهيبة الإمبراطورية .

إذا حضرتك أقام حكومة فاضلة للناس تكون مقتصدة في استخدام العقوبات والغرامات وتجعل الضرائب والجبايات أخف ، مهيئةً من ثم للحقول أن تحرث بعمق وتعزق بعناية . ولذوي الأبدان المتينة أن ينمّوا في أوقات الفراغ ولاءهم البَنَوي ، احترامهم الأخوي ، إخلاصهم وصدقهم ، خادمين بذلك ، في المنزل أباءهم واخوانهم الكبار ، وفي الخارج من هم أعلى وأسن - سيكون لك ناس يمكن استخدامهم لمجابهة الدروع المتينة والأسلحة الحادة لجحافل (دولتي) تسين وتسو بالهراوات التي صنعوها بأيديهم .

- لا يمكن لدولة يلبس فيها ابن السبعين الحرير ويأكل اللحم الطري ولا يعاني فيها الشباب من الجوع والبرد أن لا تحقق الهيبة الإمبراطورية .

٤٤٠ - ٤٤١

٢٣ - الحكام النهابون

حكام هذه الدول يسرقون ناسهم ، ناس زمانهم . فلا يتركوهم يحرثون ويعزقون حقولهم لاعانة ابائهم . أباؤهم يكابدون البرد والجوع وزوجاتهم وأطفالهم هجّوا وتشردوا .

٤٤٥

٢٤ - نقائض ملكية

قال للملك سي ين ، ملك دولة تسي

هب أن أحداً كتب الى حضرتك . قوّتي تكفي لرفع ثلاثة الاف كاتي إلا انها غير كافية لرفع ريشة . حدقة عيني حادة بما يكفي لفحص نقطة في رأس جبل إلا أني لا أرى حمل عربة من الحطب . . . هل ستسمح له بهذا الكلام ؟

أجاب : كلا . فاستطرد الآن توجد شفقة كافية للوصول الى الحيوانات ولا يصل منها شيء الى الناس .

كاتي : وحدة وزن صينية قديمة .

٤٦٢

٢٥ - معيشة الناس أولاً :

إذا لم يكن للناس مستوى معيشة مقبول فلن تكون لهم قلوب راسخة وبالتالي لن يمنعهم مانع من سقوط النفس واعوجاج السلوك ... ومعاقبتهم على الجرائم في مثل هذه الحالة هو تفخيخ .

٤٦٣

ويستطرد منشيوس فيؤكد جملة أمور في هذا المنحى :

١ - الحاكم العاقل يضمن للناس الشبع في سني الرخاء وعدم الهلاك في سني القحط . فيضمن سعيهم للخير .

٢ - أنى لنا أن نطالبهم وهم جياع يخافون الموت والتلف أن يكونوا فضلاء .

٣ - هيبة الإمبراطورية مناطها اشباع حاجات الناس المعاشية والتعليمية .

٤٦٤ - ٤٦٦

٢٦ - طبول الملك

قال وقد سأله ملك هوى عن الموسيقى

سيقول الناس وهم يسمعون طبولك ويرون مواكب صيدك كم يحب مليكنا الموسيقى ؟ ولكن لماذا ينزل بنا الى هذه الهوة من الكروب والمحن ؟ إنهم لن يكونوا سعداء حين يرونك سعيداً بينما هم مشتتون : الأخوة الكبار والأخوة الصغار ، الزوجات والأولاد ، لا يستطيعون رؤية بعضهم .٤٧٠

قارن : تجمير الجنود في الدولة الساسانية والخلافة الأموية .

٢٧ - الحكومة المثالية

قال وقد سأله ملك تسي عن الحكومة الملكية الحقة :

الجواب في حكومة تشي - الملك ون ، حيث المزارعون يفلحون تُسع القيمات للحكومة التي تعطي رواتب لأحفاد الضباط في الممرات والأسواق . الغرباء يفتشون لكن البضائع لا تعشّر . ليس ثمت تحريمات فيما يخص البرك والسدود . مترملون . وعجائز بلا أزواج أو أرامل ، مسنّون بدون أولاد

أو عـزاب ، صـغـار بدون لباء أو أيتـام . هـذه الطبـقـات الأربعـة هم أكـبـر المحـرومين فـي الناس ولم يكن لهم مـن يبلّغ عن احـتـيـاجاتـهم ، جـعلهم الملك ون همه الأول . ٤٨٦

قارن وصية علي للاشتر حول العجائز وذوي العاهات .

٢٨ - تقـنين حكم الاعدام باخضاعه لرأي الشعب :

في خطاب لأحد الملوك :

عندما يقول كل أولئك الذين حولك : هذا الانسان يسـتحق الموت فلا تستمع اليهم . عندما يقول جميع موظفـيك الكبار : هذا الانسان يستحق الموت فلا تستمع اليهم . حينمـا يقـول الشعب كـله : هذا الانسان يسـتـحق الموت ، عندها حـقق في القضـيـة فاذا رأيت أنه يسـتحق للموت فافـعل وتبعاً لذلك سيقال : الشعب قتله .

. ٤٩٢ - ٤٨٣ .

قارن : معارضة مثقفي الإسلام (عدا الشعراء) للقتل الكيفي .

٢٩ - فن الحكم

كونفشيوس

سأله مريده تسولو عن الحكم فقال
كن زعيماً لهم. واشتغل بجد من أجلهم
وطلب منه المزيد فقال :
في أي ظرف تحمل المشقة لفعل ذلك.

٣٠ - المربعات التسعة / مشروع منشيوس للاصلاح الزراعي
١ - تقسم القيعان في القرى الى قطع مساحة الواحدة لي مربع (نصف كيلومتر مربع).
٢ - تقسم القطعة الواحدة الى تسع مربعات متساوية.
٣ - يخصص المربع المركزي للدولة ويستثمره فلاحو المشروع لحسابها وهو حصيلة مايجب عليهم دفعه مقابل استثمارهم بقية المربعات لحسابهم.
٤ - توزع المربعات الثمانية الأخرى على ثمان أُسر أو عوائل تستقل كل واحدة باستثمار مربعها المخصص لها ويكون لها ماينتجه من زروع وحيوانات.
٥ - تلتزم كل أسرة أو عائلة أن تغرس أشجار التوت حول منزلها لتوفر الحرير لشبابها وعجائزها. وأن تربي دواجن وخنازير لتوفير اللحم الكافي.
٦ - تدار المربعات التسعة من الأعلى درجة (من أهل المدن) ليحكموا أهل الريف وينبغي عليهم التأكد من مراعاة الحدود وضبطها. ويعطى هؤلاء المتولون للادارة حقل من خمسين مو مقابل أجورهم.
يسمى هذا المشروع أيضاً حقل البير. واعتبره منشيوس تطبيق للقلبية الانسانية. وقد خاض من أجل تحقيقه محاورات مع الملوك لاقناعهم بتبنيه. ولكن بدون جدوى.
كتاب منشيوس ٦١٩ - ٦٢٠
موجز فونغ يولان ٧٥
٣١ معرويات :
١ - الشاعر بي شوبي
من قال أن حياة الحيوان ليست شيئاً مذكوراً ؟
هو مثلنا له عظم ولحم وجلد
لا تضربوا العصافير في رؤوس الأغصان

فصغارها تنتظر في أعشاشها عودة أمهاتها.
٢٠٠/١
من : عبد المعين الملوحي / تاريخ الشعر الصيني.
– المعري –: ولا تفجعنْ الطيرَ وهي غوافل
بأبنائها فالظلم شر القبائحِ
٢ – الشاعر سوتانغ بو
فتحت ستائري لتدخل البلابل الصغيرة
ثقبت ورق نافذتي ليخرج البعوض المسكين
أحب الفئران فاترك لها دائماً شيئاً من الرز.
نفسه ١ / ٢٤٠
قلت : دافع المعري عن حقوق البرغوث ولم يذكر الفئران. ولاشك أنه كان يشمئز منها. ويلاحظ هنا أن النظافة من العناصر الجوهرية في حضارة الاسلام. ولم تكن كذلك في معظم الحضارات الأخرى. ويلحق بالنظافة النفور من الحيوانات القذرة. وأعتقد فوق ذلك أن المعري لو كان يعرف علاقة البرغوث بالطاعون لما فضله على ملوك كندة !

٣٢ – ضد الشعائر الكونفوشية

في نقد التاويين له قالوا ان كونفوشيوس دعا الناس الى : مراعاة الاحتفالات الطقوسية بصرامة حتى لو تعفن اللحم في المحافظ ولو تحمض الخمر في الأكواب...
التوهج العظيم ٧٥
قارن مع تعفن لحم الأضاحي في الحج. وقول زنديق مسلم وقد سئل عن عيد الأضحى : وباء يقع في البقر والأغنام...

٣٣ – التمدن لمن : وضد من ؟

في التوهج العظيم

حديث مؤثر مسهب عن آثار المدنية على الانسان والطبيعة يتناول تشويه الطبيعة وتقسيم الجبال والجداول الى تخوم

ونواحي وبذل الجهود الخارقة مقابل نتيجة بائسة هي : زيادة ترف وبذخ الحكام مقابل عدم وصول الناس الى ضرورياتهم...

٨١ - ٨٣

٣٤ - غاية الدولة عند التاويين

التوهج العظيم

الخير، الطقوس، الواجب، والموسيقى لها قابلية تخليص الناس من الانحلال إلا أنها ليست الوسائل الأكمل في فن الحكم.

الخير يعني استنقاذ الناس من الحرب.

الواجب يعني استنقاذهم من فقدان الطبيعة.

الطقوس هي استنقاذهم من مجون الحياة.

والموسيقى لتحرير أذهانهم من الغم والكرب.

٨٥ التوهج العظيم

٣٥ - تفاقم جشم الملوك والاقطاعيين

التوهج العظيم

قديماً كان الملك يأخذ الف لي مربع، والملاك الاقطاعيون مئة لي. وهذا كافي لهم. أما الآن فممتلكاتهم لا تعرف الحدود. وهم يتصارعون من أجل توسيعها ويستخدمون الجنود لهذا الغرض حتى لقد أجروا انهاراً من الدماء.

٣٦ - قدرية فلسفية لمجاراة الطبع

تشوانغ تسه

تناوب الموت والحياة مكتوب مثل تناوب الليل والنهار. دع الانسان يكل أموره للقدر فلن يحدث مايخالف رغبته.

ويغر ١٧٣

٣٧ - أيها الأصوب ؟

يقول فونغ يولان

إن منشيوس والكونفوشيين يرون أن المحبة (الـ جين) مش متساوية متدرجة. فالانسان يحب أبويه أكثر مما يحب أبوي سواه ويحب طفله أكثر من محبته لطفل الآخر.

الموهيون يرون أن المحبة يجب أن تكون متساوية. ومنشيوس يقول انها تتدرج وتنمو طبيعياً حتى تتساوى. وإن كان لا يقر بالمساواة الكاملة فانه في جميع الأحوال يجب أن يحب المرء أبويه أكثر ما يحب سائر الناس.

الموهيون على أن الحب مصنوع لا مطبوع وانه يأتي من الخارج أي بالوازع الديني والسياسي. وانه يقوم على المنفعة. أما عند الكنافشة فهو مطلق لذاته.

الموجز ٧٢ – ٧٣

٣٨ - تعريف للرجعي :

التوهج العظيم

المحافظ (الأصولي، السلفي) هو كمن يحاول ترهيم الوتد المربع على الثقب المدور.

١٥٢

٣٩ - ضد القمع الشامل

التوهج العظيم

١ – الوسائل التي يتبعها الكونفوشيون لارهاب الدنيا لن يتبعها الانسان الكامل.

٢ – المقاييس العنيفة والعقوبات الغليظة ليست أدوات ملائمة لا للطاغية ولا للملك.

٤٠ - وضد القوة

التوهج العظيم

الليونة أساس القدرة والثبات.

وضرب مثلاً في كون الاسنان أقوى من اللسان لكنها تفسد وتتساقط بينما يبقى اللسان مادامت الحياة...

٤١ - **مذهبات في العنف والتسامح**

- لاوتسه: الانسان الاعتدائي لا يموت موتة طبيعية.
- الكنافشة : الطبيعة تنتج في الربيع وتقتل في الخريف.

قلت : هذا ليس من مذهب كونفشيوس وانما هو قول بعض أتباعه ممن انخرط في رغبات الأباطرة.

عن مدخل الترجمة الانجليزية للتوهج العظيم.

٤٢ - **طوبى تاوية**

التوهج

دخل القدماء في حكم التاو : الرغبة مضبوطة والعاطفة مسيطر عليها، فلم تسقط الروح في الغربة. استمدوا الراحة من سكون الخلق ولم يزعجهم تأثير المذنبات ولا ذيل الدب الأكبر.

أثناء تلك المدة كان الناس في حالة من البساطة الكبرى يأكلون ويتنزهون يمتعون بطونهم ويتمتعون، ينعمون معاً ببركات السماء وينالون من ثمرات الأرض لا يتشاحنون ولا يتتاهمون، ولا يتنازعون على الخطأ والصواب. السلام والوفرة حاصلان. هذا هو مايصح تسميته الحكم الأمثل.

٤٣ - **ومضات من التوهج العظيم**

- الترف يهيج الذهن ويقلقل الارادة ويعكر النفس ويلهب العواطف.

٩٦

- الحروب المستديمة تستنفد الشعب.
- الانتصارات الدائمة تجعل السادة يسكرون بالفخر.والمزيد من الفخر هو المزيد من استنزاف حيوية الشعب في حروب مزهوّة.

١١١

- متى ماكان الناس راضين عن أعمالهم، ورغباتهم مشبعة،

يمكن لقبعة الضابط أن تصبح قبعة الأستاذ.
١٤٥
- القلاع لا تصون الدولة حين تتعسف بالشعب وتعامله بطريقة غير شرعية.
١٦٠
- ينشأ الصراع من عدم توزيع المنتجات بالتساوي.
١٨٢
حين تكون الأمة آيلة الى السقوط تسقط حتى لو كانت تمتلك قوة عظيمة
١٥٨
- دولة التاو لا تحتاج الى السلاح.
١٨٨
- الغضب العظيم يخرب القوة السالبة (الين) لطبيعة الانسان والمرح العظيم يربك الموجبة (اليانغ).

٤٤- الحق في الثورة

منشيوس

اذا كان الحاكم تنقصه الفضائل فهو ليس الحاكم الجيد وللشعب حق أخلاقي في الثورة عليه. إن الشعب هو العضو الأهم في الدولة.
موجز فونغ يولان ٧٤

٤٥ - موجز لمذاهب الفطرة الخيرة والشريرة .

كونفشيوس وبعض أتباعه : الخير فطري. الانسان خير بالفطرة.
كاوتسه : أكد الحياد الأخلاقي في الفطرة. وإن الانسان يحتاج الى المران والصهر ليكتسب الخير. والناس عنده شتى : بعضهم طبيعته خيرة وبعضهم شريرة.
شون تسه : في طبيعة الانسان ميل باطن الى الشر. والخير

يعتمد على التربية بمعناها الأوسع الذي يشمل السلطة.
وان تشونغ : طبيعة الانسان مزيج من الخير والشر.
يانغ شيونغ : في الانسان جانبين : جانب خير وجانب شرير.
إذا استزرع الأول كان خيراً واذا استزرع الثاني كان شريراً.
هان يو (كونفوشي) : طبائع الانسان ثلاث طبقات :
العليا : هي التي تريد الخير في جميع الظروف.
الوسطى : مزيج من الخير والشر.
السفلى : شر خالص ميئوس منه.
وجعل لكل طبقة مثال من الفلاسفة. فالعليا هي طبقة منشيوس (الخير الثابت) والثانية هي يانغ شيونغ (الآنف ذكره) والثالثة السفلية : فنغ تسه وهو سلفي متشدد.
يقول مؤرخ الفلسفة تاي تشي ان الأكثرية تأخذ بأقوال منشيوس. وأقوال منشيوس ليست كونفوشية خالصة فهو لا يقول بمطلق الفطرة الخيرة وانما يخضعها للتعليم.
موجز فونغ يولان ١٦ – ٢١
٦٩ – ٧٣
أخرج البخاري الحديث التالي :
يولد الانسان على الفطرة وانما يهوده وينصرّه ويمجسه أبواه.
وهذا طباق لمذهب كونفشيوس.. وأقوال المفكرين المسلمين تتفاوت في ذلك شأن الصينيين.

٤٦ – المساواة في المفهوم التاوي

رغم الاختلافات العظيمة بين الأشياء فكل شيء متساوي مع الآخر من جهة كونه ماهو. والعالم وأشيائه تؤدي وظائفها بحسب طبيعتها الذاتية. وليس هناك هذا الذي يسمى حق أو باطل. دع الخادم يكون خادم بحسب طبيعته وذوي المواهب

يكونون حكام بحسب طبيعتهم. لكن الخادم والحاكم سواء من جهة كونه ماهو. كذلك الكلب والانسان لا أفضلية لاحدهما على الآخر اذ لكل وظيفته - أو مركزه - بحسب طبيعته.

موسع فونغ يولان ٢٢٧ - ٢٢٨

عن شرح تاوي لاحق لجيل الأوائل

قلت أن افراط التاويين في مطلب العودة الى الطبيعة جعل بعضهم يتقبل مفهوم مختل للمساواة تبعاً لاختلاف الطبائع. وقد ظهر ذلك في متأخريهم بعد جيل التأسيس ممن مثلوا دور الشراح دون الفلاسفة الخلص.

٤٧ - انكار التمايزات في القيم

تشوانغ تسه

دعنا ننسى الحياة. دعنا ننسى التمايزات الأخلاقية. ولنجد المتعة في ظل اللامتناهي ونقف هناك.

في الشرح عليه :

الحكيم يساوي بين الموت والحياة، بين الخطأ والصواب. ولا يعرف التمايزات الأخلاقية.وهذا هو المبدأ الأسمى، الذي يقود الى المش - محدود، الى اللامتناهي. ومن يبلغ هذا الطور فهو الانسان الكامل تشيه رن الذي لا يعتمد على أي شيء آخر.

موسع فونغ يولان ٢٣١.

قارن مع التصوف القطباني : الفقير هو من لا تكون له حاجة الى الناس ولا الى الله ! على أن فونغ يولان يفسره بعدم الاحتياج الى الغير لكون الجزئي لا يخلق الجزئي لكنه لا يتضمن انكار العلاقات. وبهذا المعنى يروي الشيعة عن أحد أئمتهم أنه سمع رجل من أصحابه يقول : اللهم اغنني عن خلقك. فردّ عليه : الناس بالناس. ولكن قل : اللهم اغنني عن

شرار خلقك.. وثمت مع ذلك مايميز الحكيم عن سائر الناس، اذ المطلوب بحسب خصوصيته ان يكون أقل احتياجاً الى الغير وبالتالي أكثر استقلالاً عن الناس..

٤٨ - من مبادئ كونفشيوس الأخلاقية

١ - الاستقامة (يي)

٢ - المنفعة (لي)

٣- التعاطف أو المحبة (جين)

الأول يفرضه الوضع الخاص لكل انسان. وهو يتعارض مع الثاني (المنفعة). الانسان الكبير يتبصر الأول والصغير يتمسك بالثاني. والأول كما يشرح فونغ يولان هو الجوهر الصوري للوظائف. أما الجوهر المادي لها فهو الثالث. وهو الفضيلة الكاملة.

الموجز ٤٢

قلت ينبغي أخذ اصطلاح الجوهر الصوري والجوهر المادي بحذر لأن الكونفوشية لم تتوسع في هذه المباحث. يمكن أن نقول بأقرب من هذا أن الأول هو شكل الالتزامات الاجتماعية أما الثالث فهو جوهرها ولبها.

٤٩ - يسوعيات

كونفوشيوس

لا تفعل للغير ما لا تحب أن يفعلوه لك.

الموجز ٤٣

٥٠ - بيروقراطية

تزوسّو حفيد كونفشيوس

اخدم حاكمك كما تحب أن يخدمك تابعك.

الموجز ٤٤

٥١ - تمايزات كونفوشية

سماء - أرض

زوج – زوجة

ملك – رعية

أعلى – أوطأ

الوجود الطبيعي والاجتماعي مقسم كونفوشياً بحسب هذا التمايز الجاسي الذي لا تنخرق حدوده وهو قائم على موجب – سالب، ذكورة – انوثة، آمر،مأمور. طبقة عليا – طبقة سفلى..

٥٢ - من مبادئ الحكم عند كونفوشيوس

– سأله تشي جانغ :ماهو فن الحكم ؟ فأجاب :

الحكم هو التقويم.. اذا أنت اقتفيت الصراط فمن يجرأ على تنكبه ؟

وسأله حاكم آخر عما ينبغي أن يفعل وقد أزعجه اللصوص :

فقط اذا حررتهم من الرغبات فلن يسرقوا.

– وقال لحاكم آخر :

أنت هنا لتحكم لا لتقتل. اذا رغبت في الخير فسيكون الناس أخياراً.

– وسأله آخر عن خدمة الأرواح فقال له :

اذا كنت لا تقدر على خدمة البشر كيف تقدر على خدمة الأرواح ؟

نيدهام ٢ / ١٠ – ١٣

٥٣ - علاقته بالسماء (نبوته ؟)

كان كونفوشيوس يقول أن السماء عرفته وتقبلت جهاده.

نيدهام ٢ / ١٢

٥٤ - من جوهر التاوية ومنحاها الاجتماعي

تشوانغ تسه

.. انها المعرفة المصنوعة المش – طبيعية هي التي سببت جميع الشرور في هذه الدنيا والتعاسة التي عمت أهلها.. إن

اختراع القوس والسهم والرمح سبب الشقاء لطيور الجو. واختراع الصنارة والشبكة جلب الشقاء الى السمك في الماء. واختراع الفخ والشرك والزبية أدخل الشقاء إلى ذوات الأربع في أجسامها. واختراع السياسة والمغالطة (السفسطة) والفنون والطقوس والقوانين جلب الشقاء للبشر.

دعونا نعود الى الطبيعة ؛ نحول اليشب واللؤلؤ الى طحين حتى نقطع دابر السراق. نحرق العقود ونكسر الأختام وسيعود الناس الى شرفهم. نتخلص من المقاييس والأوزان فلن تبقى حروب. نحطم بحزم كل المؤسسات المصنوعة للحكماء فسيستعيد الناس وضعهم الطبيعي. نلغي سلالم الألحان، نكسر الالات الموسيقية فسيستعيد الناس وضعهم الطبيعي. نبطل موازين الألوان وأصول الصبغ، نقلع عيون الصباغين فسيستعيد الناس رؤيتهم الطبيعية. نحرم استعمال الفرجار والمربع، نكسر أصابع النجارين فسيستعيد الناس ممتلكاتهم. نطرد الخفراء نلجم المتنطعين، ننفي تلاميذ كونفشيوس مع مواضعاتهم المصنوعة فستعود السجايا الضائعة الى ممارسة فعلها الخفي الموحد للانسان.

أجل ! دعونا نعود الى الطبيعة وستكون نهاية جميع الفلاسفة المخادعين.

ويغر ١٩٩ – ٢٠٠

قلت : – لغة التاويين جامحة، غير بسيطة، ولا منضبطة بقوانين المنطق. وينبغي فهمها كنمط بلاغي يجمع بين الرمز الفلسفي والبلاغة الأدبية. ومن هنا يسهل علينا ان نعرف أن تشوانغ تسه لا يريد المعنى في دعوته الى كسر أصابع النجارين وقلع عيون الصباغين وانما الدلالة.

الصفيق يصبح غنياً. اللبق يُضحي موظفاً كبيراً. اللصوص الصغار يوضعون في السجن. لكن اللصوص الكبار يصبحون سادة اقطاعيين وهناك على أبواب سادة الاقطاع ستجد علماءك المحقين !

نيدهام ٢ / ١٠٢

رأى شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد سارقاً تقطع يده فقال :

إنا لله ! سارق السر يقطعه سارق العلانية...

كان أحد الفقهاء ينتظر الدخول على خليفة فاستفتاه أحد مجالسيه عند الحاجب فقال له الفقيه : ليس هذا مكان الفتوى. فرد عليه السائل : وهل هذا مكان الفقيه ؟

٥٦ - يسوعيات

منشيوس

لتغذية القلب لا يوجد أفضل من تقليل الرغائب.. هنا انسان قليل الرغائب لا يقوى في بعض الأمور على الاحتفاظ بقلبه. لكنها ستكون أمور قليلة. وانسان كثير الرغائب يقوى في بعض الأمور على الاحتفاظ بقلبه. لكنها ستكون أمور قليلة.

كتاب منشيوس ١٠٠٥

٥٧ - حقيقة الأمر

التاوي ياوجنغ ين

يقول الكنافشة أن السماء خلقت الناس ونصبت النبلاء فوقهم. ولكن لماذا ينبغي اقحام السماء المتلألئة في القضية ؟ ولماذا يجب عليها اصدار مثل هذه التعليمات.

القوي يغلب الضعيف ويخضعه. الذكي يمخرق على البسيط ويحمله على خدمته. هذا هو أصل النبلاء والموظفين وبداية التسيد على الناس. السلطة فرضها الأقوياء على الضعفاء والدهاة على السذج. ولم يكن للسماء ما تفعله ازاء ذلك.

نيدهام ٢ / ٤٣٥

٥٨ - ضد الاكراه - دع الطبيعة تأخذ مجراها

فيلسوف تاوي :

الخلق العظيم، وهو جماع التاو والاستقامة والمتخلل كل مابين السماء والأرض يجب أن ينمو طبيعياً، لأن أدنى ارغام يودي الى الفشل.

وضرب مثلاً لذلك رجلاً خاف أن لا تنمو حبوبه بسرعة كافية فعمد الى الحقل وسحب النبتات الى الأعلى. ثم عاد ليعلن للناس أنه تعب هذا اليوم لانه ساعد الحبوب على النمو. وهُرع ابنه لينظر اليها فرآها قد ذبلت كلها...

موجز فونغ يولان ٧٨ - ٧٩

٥٩ - تساوي الناس في الحكمة

نفس الفيلسوف

طبيعة الانسان واحدة لأن جسده واحد. وكل انسان مؤهل لأن يكون حكيم اذا ترك لطبيعته أن تنمو نمواً كاملاً.

موجز فونغ يولان ٧٩

هذا هو ماكرره الرازي في دعوته لتعميم الفلسفة

٦٠- عظمة الـ لي وروحه الطبقية الجاسية

•شون تسه

الـ لي هو حيثما تتعين السماء والأرض، حيثما تكون الشمس والقمر متألقين حيثما تنتظم الفصول الأربعة، حيثما تدور النجوم في أفلاكها، حيثما تجري الأنهار، حيثما يثري كل شيء، حين يكون الحب والبغض هوناً ما، حيثما يحتل السخط والرضا موضعهما الملائم لهما. هو الذي يجعل الطبقة السفلى مطيعة والعليا متلألئة.. وفي وسط آلاف التقلبات، يحمي من الضلال. واذا ما انفصل المرء عنه يتحطم.. اليس الـ لي هو المبدأ الأعظم ؟

نيدهام ٢٧

٦١ ـ مبادئ اللصوص الصغار

التوهج العظيم

سئل تشي : هل للصوص مبادئ ؟ فقال :

من غير الممكن أن لا تكون لهم مبادئ. ان الذي يعرف مكان الكنز هو انسان متفوق ومن يدخل أولاً شجاع. ومن يخرج آخراً بطل. وفي توزيع المسروقات هناك قدر من العدل. وعضو العصابة الذي يعرف متى يتصرف (يتحرك) هو انسان ذو دراية.

ومن هنا يجب أن يقال أن ذهن اللص في حاجة الى استعارة تعاليم الحكماء للقيام بمهمته.

قارن مع تعاليم وأفكار عثمان الخياط حكيم اللصوص الصغار في القرن الثالث الهجري. بعض التفاصيل في المستطرف الجديد ١ / ٢١٠، ٣ / ٥٢، ٥ / ٤٦، ٤٧، ٦٢.

٦٢ ـ الجنس عند التاويين

مبادئ عامة

– الجماع تغذية للحياة

– ووسيلته المثلى هي المشاركة الايجابية من الذكر والانثى / المساواة في اللذة.

– تهيج المرأة يرفع من القوة الحيوية للرجل.

– وإذا أريد عدم الحمل يضغط عند القذف على جذر الذكورة لتسريب المني الى المثانة.

تتناقض هذه الوسيلة مع مبدأ تاوي يجعل عدم القذف عند الجماع وسيلة لجعل المني يعود ليغذي الدماغ. لأن المني الـ ذاهب الى المثانة يطرح مع البول !

لم أهتدي الى تفصيل يوضح كيفية هذه العملية الغريبة ومعروف طبياً انها لا تتم الا بعد ازالة البروستات.

قيم جوزيف نيدهام مبادئ التاويين في هذا الباب بانها أنسب للذكر والانثى وللخلفية الكونية من الضغط الأبوي الصارم للكونفوشية (النموذجي لاخلاقية الاقطاع) كما هو أفضل من

الأخروية الباردة للبوذيين حيث الجنس منبوذ، غير طبيعي ولا جميل.
٢ / ١٥٢

٦٣ - ابن السماء والأرض الذي يموت بالارادة

نص تاو شيوي

يولد الانسان بين السماء والأرض. وهو يحمل تشيء السماء والأرض في جسده ويشترك في لي السماء والأرض بفضل طبيعته. لو تقصيناه حتى أصله لعرفنا كيف ينشأ ولو سرنا معه حتى نهايته لعرفنا كيف يموت. قال القدماء إن الانسان اذا لزم الحق اليقين أمكنه الموت بارادته. واذا فهم المرء التاو في الصباح تيسر له أن يموت في المساء بلا أسف.. الانسان يبحث عن التاو والـ لي، ومادام يشعر أنه فهم الكل فلن يغتم. واذ يموت هكذا فسيرضى أن يدع القوتين والأوائل الخمسة تنحل، تتفكك، تتلاشى. هذا هو الموت بسلام، والنمو الطبيعي الذي يتابع نفس تصيرات الأرض والسماء.

إن هذا هو أن تكون مريد للطبيعة. وبخلاف ذلك يكون ذو الرغبات الأنانية وحب الذات، الغير قادر على الفكاك منها : متناقض مع الطبيعة ولن يموت بسلام.

يندهام ٢ / ٤١٤

لوامع من كونفوشيوس

٦٤- الحياة أولاً :

عن هيوز :

سأله المريد تسو لو عن الموت فأجابه :

إن كنت لا تفهم الحياة كيف يمكنك ان تفهم الموت؟

٦٥ - لماذا هو غير سعيد ؟

في صمت اسعى لكي اعرف : اواصل التعلم دون إشباع . امضي في التعليم دون أن اكون مملاً . ماذا يجب أن يقال عني أكثر من هذا ؟ ... إن كوني لم اوظف بعد ، كامل القدرة الروحية عندي ، لم أُخرج للناس كل مخزون علمي ، غير قادر على زيارة أهل العدل الذين سمعت عنهم ، ولا على إصلاح الطالحين الذين سمعت عنهم : كل هذا يجعلني غير سعيد .

ص ١٦

٦٦ - يجب أن يكون للانسان أصدقاء وأعداء

سأله المريد تْسو كُونغ : ماذا تقول عن الناس الذين يحبهم جميع أبناء قريتهم ؟

فأجاب : هذا لن يكون .

وماذا عن الناس الذين يكرههم جميع أبناء قريتهم ؟

فأجاب : هذا لن يكون . انهم لم يمتلكوا بعد سجايا الناس الذين يحبهم الأخيار ويبغضهم الأشرار .

* سفيان الثوري قال : إذا رأيت المرء محبوباً في أقرانه محموداً في جيرانه فاعلم انه مداهن ... يعني ان من يحبه جميع الناس فهو مساوم . وقال عربي قديم :

لا خير في عيش من يحيا وليس له
ذوو ضغائنَ لا تخفى وأحقادِ

في مقام آخر يقول كونفشيوس :

فقط هو الانسان ذو القلبية الانسانية من له القدرة على الحب والبغض الصادقين .

٦٧ - الاصرار

بات المريد تسو لو في بوابة شيه فسأله البواب من أين جئت .

فأجابه : من دار كونفشيوس . فقال البواب .. انه الرجل ...
الذي يعرف انها لا يمكن أن تكون ومع ذلك يصر عليها ..

٦٨ - تراتبية كونفشيوس وتاييده للسخرة

وصف مريده تسو تشان بأنه يحوز على المزايا الأربعة لأهل الشرف فهو في قابليته الشخصية متواضع ، وفي خدمة المافوق شديد الاحترام ، وفي استعداده لتلبية حاجات الناس محسن ، وفي تنظيمه للسخرة عادل ...

٢١

قارن : استنكار السخرة عند المسلمين - المستطرف الجديد ٦٥/١ ، ٩، ١٦١ ، ٣٩٧.

٦٩ - تأثير سياسة الحاكم في سلوك المواطن .

١ - قال كونفشيوس :

اذا ماكرس ذوو المناصب العالية أنفسهم للشعائر ، فلن يجرأ أحد من العوام على عدم تبجيلها .

اذا كانوا محبين للعدل فلن يجرأ أحد من العوام على عدم طاعتهم . اذا كانوا جديرين بالثقة فلن يجرأ أحد من العوام على المراوغة .

واذ تكون هذه الحال (في الدولة) فسيأتي عوام الناس إليها من كل صوب حاملين أطفالهم على ظهورهم .

٢٥

٢ - وسأله تشي كانغ تسو عن الحكم قائلاً :

افرض أنه ترتب عليَّ قتل الناس البلا مبادئ من أجل استمالة أهل المبادئ فرد عليه :

مولاي ان لديك مكتب للحكم . أفي وسعك أن تفعل ذلك عن طريق القتل ؟ اجعل رغائبك صالحة فسيكون الناس صالحين . ان الريح هي صفة (مثال) الحاكم ، والعشب هو صفة

(مثال) العامة. حينما يقابل العشب الريح فإنه يميل الى الأنحناء .

٢٤

* قارن : تأثير السلطة في الأخلاق العامة عند المسلمين ، كما عرضته في «السياسة الاسلامية» بطبعته عن دار الطليعة ١٩٧٤ ودار صحارى ١٩٩١ .

* حول مثال الريح والعشب ، وردت عبارة كونفشيوس في كتاب منشيوس بهذه الصيغة :

ما يحبه المافوق يجب أن يحبه المادون . العلاقة بين المافوق والمادون تشبه العلاقة بين الريح والعشب . إذا هبت الريح وجب على العشب أن ينحني .

ص ٦٠٨ .

٧٠ - ملحوظة أخرى في نفس الباب

قال كنفشيوس : متى ماكان الحاكم حقاني في نفسه ، سارت الأشياء بدون أن يعطي أوامر . ومتى مالم يكن حقاني في نفسه فيمكنه اصدار أوامر دون أن يطيعه أحد .

٢٥

٧١ - عندما يزيد السكان

لما توجه السيد الى وَي كان سائق العربة دان يو . قال السيد : ما أكثر السكان (يريد سكان وي) فقال دان يو : حينما تتزايد الأعداد فأي مطلب يتوجب أن نقوم به ؟ وكان الجواب : إغنيهم . ولما سأل دان يو وماذا بعد ؟ كان الجواب علّمهم .

٢٦

* اشباع الحاجات قبل التعليم / مبدأ ماركسي تكلم به فردريك انجلز . وهو هنا من مبادئ المشاعية الآسيوية . وقد وضعه لاوتسه في صيغة صارخة : إفراغ الذهن وملء المعدة ! وهذا عند عموم الناس . أما عند الحكماء فالآية تنقلب .

يقول ذو النون المصري : مادخلت الحكمة معدة ملئت طعاماً .. يعني : الحكيم يجوع والمعدة كناية عن جسد الحكيم .

٧٢ - إشكالية قضائية

في محادثة مع السيد كونغ قال أمير شي : في ناحيتي ناس وجدانيون . مثلاً إذا أحدهم لم يرجع خروفاً ضالاً الى مالكه فان ابنه يقيم عليه الدليل . السيد كونغ قال : في ناحيتي يختلف أهل الوجدان عن هذا كثيراً : الوالد يستر ولده والولد يستر والده .

٢٦

* أورد الأستاذ هيوز عن هذا النص مايلي :

إن الحب الأبوي والبنوي المأمور به عند كونفشيوس يمنع من تلبية مطالب العدالة . قلت : هذا هو المعمول به في الفقه الاسلامي حيث لا تقبل شهادة الولد على الوالد ولا العكس .

٧٣ - ألوهية السماء

لما توفي ين يوان ، مريده المحبوب ، صاح السيد وهو حردان :

السماء تدمرني . السماء تدمرني .

ولما مرض مريده بو نيو ذهب لعيادته . وهناك أخرج يده من النافذة وقال هي تقتله . انها ارادة السماء . ولكن مثل ذاك الانسان ينبغي أن يصيبه مثل هذا السقام .

٢٧

٧٤ - النمط الثاني للمعرفة

قال السيد : قد يكون هناك من يشتغل بلا معرفة ، أنا لست كذلك أنا أسمع الكثير وأختار ماهو صالح مما سمعته وأقتفيه ؛ أشاهد الكثير وأعمل منه ملاحظات . هذا هو النمط الثاني من المعرفة .

٢٩

٧٥ - التعلم والتفكير

قال السيد : إذا المرء تعلم ولم يفكر فلن يكون شيئاً . واذا هو فكر ولم يتعلم فسيكون في حال الخطر .

٢٩

٧٦ - من مطالب الكمال

قال السيد : على المرء أن يتنشط بالشعر ، يقف راسخاً في الطقوس ، وكمال نفسه بالموسيقى .

٢٩

٧٧ - من شروط المعرفة

قال السيد : ان المرء الذي يُعيد تأنيم القديم ثم يتجه نحو معرفة الجديد يليق به أن يكون معلم .

* تأنيمIanimate – من الأنام : الأحياء ، المخلوقات ، مفردة مشتركة في القاموسين العربي والاغريقي .

٧٨ - يسوعيات

سأل تسو كونغ عما إذا كانت توجد كلمةواحدة تستحق ان يمضي الانسان حياته في التمرس بها ، فقال السيد : أليس المثل بالمثل هو هذه الكلمة ؟ ما لا تحب أن تفعله لنفسك لا تفعله للغير .

٣٠

٧٩- الابن النبوي - تصليب القيم

قال السيد : بينما والده في الحياة راقبْ اتجاه ذهنه . وبعد أن يموت والده راقب تصرفاته . إذا مرت ثلاث سنوات ولم يحيد عن درب والده فقد استوجب اعتباره ابناً بنوياً ..

٣٠

٨٠ - أصول الحداد على الأبوين

سأله تسو كونغ عن شعائر الحداد على الأبوين فقال :

أن تكون موقراً لهم فهو الأهم . الشعور بالأسي ثانوي

بالنسبة للأول . أما الانحاف (البدن بشدة الجزع) فهو الأدنى أهمية من الجميع .
٣١

* قارن الحديث النبوي : ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية .

٨١ - **المكابرة والواقع**

قال السيد : جميع الناس يقول أنا أعرف لكنهم يساقون في - إلى الشباك ، ينقفصون في الأفخاخ ، يَطيحون في الزُبى . ولا يعرفون كيف يتحاشون ذلك . جميع الناس يقول أنا أعرف ولكن حيث يجب عليهم اتباع الوسط في العقل يعجزون عن مواصلته على مدار شهر واحد .
٣٢

٨٢ - **العالم المادي محدود ، الطريق غير محدود**

في كتاب الطقوس الذي يحتوي على أفكار مختلطة لكونفشيوس وحفيده تزوتسو ان سبيل الانسان المتنور بيّن للغاية وخفي مع ذلك . ان الرجل والمرأة العاديين مهما كانا من الجهل يمكنهما معرفة شيء ما عنه ؛ في حين أنه في تماميته يجد حتى الحكيم أشياء لا يعرفها منه . لنأخذ الحجم الهائل للسماء - و - الأرض ؛ يمكن للانسان أن يظل يجد فيها فسحة للنقد . وهكذا حين يتكلم المتنور عن الضخامة الخارقة فانه لا يمكن احتواؤه ضمن عالم خبرتنا نحن ، ولا حين يتكلم عن الصِغَر الخارق يمكن استلالها من عالم خبرتنا في - الى اللاشيء . كما قيل في كتاب الأغاني : ان الباز يقطع الدرب صُعُداً الى كبد السماء ، والسمكة تغوص حتى تبلغ الأبيس. ويشير ذلك الى ان الأشياء يجري اختبارها من الأعلى ومن الأسفل . وهكذا طريق الانسان المتنور تظهر براعمه المبكرة الى الوجود لدى الرجل والمرأة

العاديين ، لكنه في مداه الأقصى انما يُمتحن في ضوء السماء – و – الأرض .
٣٤

٨٣ – قوة حضور الموتى العظام

قال السيد : أرواح الموتى العظام لها قوة روحية لا تكبح . تطلع اليها ، فهي ليست مما يمكن رؤيته . استمع اليها ، فهي مما لا يمكن سماعه . انها في الأشياء ولاشيء (يكون) بدونها . تحفّز جميع الناس في المجتمع العظيم لكي يصوموا ؟ ويتطيبوا ويرتدوا جلابيب الطقوس من أجل أن يستعدوا للتضحية لها ، هي تملأ الهواء كما لو كانت فوق أو كما لو كانت على الشمال أو كما لو كانت على اليمين . كتاب الأغاني قال : مجيء الأرواح ! لا تحصى ! ومع ذلك لا يمكن التغاضي عنها .
٣٦

٨٤ – قدرة الانسان على تغيير السماء والأرض

في كتاب الطقوس :

فقط هو الانسان الذي هو الواقعي (الحقيقي) كلياً في عالم خبرته ، من له قدرة على إعطاء التطور الكامل لطبيعته . واذا كانت له تلك القدرة فيلزم عنها ان له قدرة على إعطاء التطور الكامل لطبيعة جميع الكائنات. وهكذا من الممكن له أن يساعد على تحويل (تصيير) وتغذية السماء والأرض .. وحيث يكون ذلك كذلك فمن الممكن له أن يكون جزء من ثالوث القدرة (السماء ، الأرض ، وهو نفسه) ...
٤٠

قارن : قول الغزالي ان للنفوس قوة تأثيرية موجدة.
قول الفلاسفة المسلمين ان الانسان بقوته العاقلة يشارك الله في إدراك الحقائق .

٨٥ – قابلية الانسان على التنبؤ

في كتاب الطقوس :

ميزة الانسان الصادقي كلياً هي أنه قادر على الاستشراف . حين يكون بلد ما مقبل على الازدهار يكون فأل الخير هو الميل المتقدم .. حين يكون مقبل على التلاشي يكون فأل الشر هو المتقدم . وهذا مكتوب على سطوح الأوراق ودروع السلاحف ويؤثر على الأوصال الأربعة . حين تكون النكبات أو البركات في الدرب فإن (عناصر) الخير أخلاقياً والشر أخلاقياً في البلد تتأهل للمعرفة أولاً . وهكذا يكون للانسان الصادقي كلياً شبه بالالهي (بلغة المسلمين : يكون في الناسوت عنصر لاهوت) ٤١

دروع السلاحف أقدم قراطيس الكتابة في الصين.

* همش الأستاذ هيوز عى هذا المقتبس : ان فن العرافة الديني البدائي كان قد بدأ يتأخلق ويتعقلن في عصر تزوسّو. . وانه لممتع وهام ان نلاحظ كيف تحتفظ ديانة تزوسّو بتماسكها داخل ذهن فلسفي كذهنه .

قلت : ان التصوف القطباني عندنا يرتبط في طوره الأعلى بظهور اللاهوت في الناسوت حيث يتزود الانسان التام التجرد من علائق الجسد والكامل المعرفة بصفات القدرة الإلهية :

عبدي اطعني تكن مثلي . أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون . أو كهذه المعادلة المطلقة الحدين :

فأعبده ويعبدني

ويعبدني وأعبده

٨٦ – الحقيقية في صلتها باكتمال الأشياء

في كتاب الطقوس

١ – ان الحقيقية (الصادقية) هي اكتمال الذاتي والسبيل

اليها هو التوثق الذاتي . الحقيقية هي البداية والنهاية للأشياء اذ انه بدون الحقيقية لن يكون ثمت شيئي أبداً . وهو السبب في ان الصادق يكافئ على كل شيء يتوسم فيه شيئا كاملاً . ان اكتمال النفس الفردية يتضمن المروءة (رَن) واكتمال الأشياء في كليتها يتضمن المعرفة . والمروءة والمعرفة هما قوتان روحيتان (تي) متأصلة في الانسان وهما الجسر الموصل بين البراني والجواني . وهذا دليل ذاتي على وجوب استمرار الحقيقية في دنيونتها ..

٢ - النتيجة ان الحقيقية الكلية لا تتوقف لحظة . والآن ان حدث هذا فيجب أن تتمدد في الزمن ، وإن تمددت في الزمن . فهي قابلة للتجربة ، وإن كانت قابلة للتجربة تمددت في طول مكاني . وإن تمددت في طول مكاني تمددت في المسافة ، وإن تمددت في المسافة تمددت في الرؤية العليا (كاو - مينغ) وهذه الكيفية للاتساع في المساحة هي ما يجعل الأشياء المادية مسنودة من التحت ، وهذه الكيفية للاتساع في الرؤية العليا هي مايجعل الأشياء مغطاة من فوق ، بينما الاتساع في الزمن يجعلها قابلة للكمال . وهكذا تزدوج المساحة بالأرض ، تزدوج الرؤية العليا بالسماء ، واجتماع المكان والزمان يصنع اللامحدودية. ويكون ذلك هو طبيعتها ، فالحقيقية غير مرئية لكنها مرئية بوضوح ، لا تثير الأشياء ، ومع ذلك تغيرها ، لا تقوم بفعل ومع ذلك تكملها .

٤١ - ٤٢

* في هذه الفقرة ، كما في غيرها سعيت الى التطابق مع النص الصيني جهد الامكان حتى تكون فكرتنا أوقع عن طريقة تفكير الفيلسوف الصيني . وتبدو الفقرة في بعض عباراتها عسيرة الهضم وغير متسقة في قياس التفكير الفلسفي المعتاد لدينا .

٨٧ - فرادة الانسان

تزوسو

الانسان وحده هو الحقيقة كلياً في عالمه البشري ، الذي يقدر على صنع النسيج العظيم للحياة المتمدنة ، الذي يقدر على إرساء الأسس العظيمة للمجتمع المتمدن ، والذي يستطيع فهم سيرورات تغذية السماء والأرض . هل يمكن لأي متغيّرية أن تحل فيه ؟ ما أرسخ قلبيته الانسانية ! كم هو عسير سبر انفعاله ! وكم هي غامرة مروءته الفائقة ! من هو الذي يستطيع أن يتصور هذه مالم تكن له فطنة حادة وحكمة شبيهة بالحكماء ، ما لم يصل صعداً الى القوة الروحية للسماء ؟

٤٢

مختارات من كتاب تشوانغ تسه / هيوز

٨٨ - الخروج من البدن لصنم الامبراطور الحكيم

... ان الفضيلة في ذلك الرجل الروحاني هي أن جميع الأشياء عنده قليلة القيمة ، كل شيء واحد في نظره . العالم يتطلع الى أن يكون محكوماً ، ولكن لماذا يزعج نفسه حول المجتمع ؟ ذلك الانسان لا شيء يصيبه : ان كان ثمت فيضان فلن يغرق . وان كان ثمت جفاف عظيم وتحولت المعادن والصخور الى سائل ، والتربة والجبال احترقت فلن يكون حاراً .. ان النفي الكامل لبدنه هو مايصنع له الامبراطور الحكيم ..

ص ١٦٩

* نفي البدن في التاوية هو الفناء عند المتصوفة كشرط للانبعاث الحقيقي . وعبروا عنها في صيغ شتى ، كقول أبو مدين: ماوصل الى صريح الحرية مَن عليه من نفسه بقية ..

٨٩ - فن الحكم بالتاو

في المجتمع العظيم يوجد الكثير من أنصار فن الحكم ،وكل واحد يعتبر مالديه شيئاً لا يسمح بزيادة . السؤال هو : أيّ من كل هذا يأتي فن التاو الذي تكلم عنه حكماء الغابر ؟ الجواب : ليس من مكان ... مرة أخرى يجب أن نسأل : كيف ينزل الالهي (في الانسان) عليه ؟ كيف يظهر نور العقل ؟ (الجواب هو) ثمت شيء ما يستدعي (يجلب) الحكماء (الصادقين) الى الظهور وينتج الملوك (الصادقين) . ومصدر هذا كله هو في الواحد ، ان تكون على صلة لا تنقطع مع الأرومة الأَبَوَيْنية (لكل الحياة) هذا هو مايراد به الانسان السماوي . ان تكون على صلة لا تنقطع مع القوة المنشئة (في كل الطبيعة) هذا هو مايراد به انسان فوق طبيعي . ان تكون على صلة لا تنقطع مع الحقيقية (الصادقية) (عن الحياة؟) وجذر (الخير كله) هو قوة الشُخوصة ، والتاو هو الباب (لكل الحكمة ؟) مثلما أيضاً ان يساوق (يتابع) التغيرات والتصيرات وهي تجري (في الوجود) هذا هو مايراد به أن تكون حكيماً . وأن تجعل القلبية الانسانية رئيفة ، والعدالة مبدأ و (روح) الطقوسية العالية ديناً يومياً ، والموسيقى قوة الانسجام في المجتمع ، وان تكون كذلك شفيقاً بكل خلوص نية ، انسان لانسان ، هذا هو مايراد به ان تكون انسان مبادئ وهكذا ، عن طريق الأحكام العامة يصنع التفريقات ، وعن طريق الأسماء يصنع الدلائل (كمعرفة ماهي طبيعة الشيء) وعن طريق الخبرة الشخصية يصنع التجربة ، وعن طريق الاستقصاء يجعل المحاكمات في دقة حاصل الجمع . هذا هو مناط الارتباط مابين المئة مسؤول (في المجتمع) وبهذا فُهم (المئة مسؤول)(*) يمحضون واجباتهم اهتماماً صارماً ؛ يجعلون إكساء وإطعام الناس مبدأهم المرشد (**) (وهذا) مع انتاج الفائض وخزنه في مكان أمين ، ويكرسون اهتماماً

أخص للمسنين والضعفاء ، للعديمي الأب والأرامل . ان لديهم جميعاً نظاماً لاعزاز البشر (***) .

* المئة مسؤول ، كناية عن الكثرة وليست مقصودة للعدد .

** قارن قول عبد القادر الجيلي نظرت في الأعمال كلها فلم أجد أفضل من إطعام الطعام . وددت لو أن الدنيا في يدي لأطعمها الجياع .

*** العبارات مابين الأقواس والقويسات من النص الانجليزي . وقد وُضعت لاكمال النص الذي كتب في الأصل الصيني بعبارات مختزلة . وما تحته خط من الانجليزي أيضاً . وحصرت أنا بين قوسين مضلعين ما استدعاه الايضاح أو الإكمال أو الترجيح .

– شخوصة ، مصدر شخص . مثل رجولة من رجل ومروءة من مرء . اخترتها هنا مقابل PERSONALITY تبعاً لاستدعاءات السياق ومنحى كلام الفيلسوف .

٩٠ – الخروج من النفس

الانسان الكامل ليس له ذات . الانسان الممنوح روحاً لا فعل له . الحكيم لا سمعة له .

١٦٧

٩١ – العالِم الكامل

ان من يعرف كيف يتوقف في موضع لا يعرفه هو الكامل .

١٧٩

قارن مع قول المسلمين : كلمة لا أدري نصف العلم .

المقصود أن لا يتكلم فيما يجهل من الأمور حتى لا يضلل الناس الذين يثقون بأقوال العلماء .

٩٢ – توازن الصفات واحتياج الكمال الى النقص

التاو الأسمى لا يصلح للكلام والبرهان الأسمى لا يحتاج الى

كلام . وهكذا أيضاً الاحسان الأسمى ليس هو الصَدَقة بالضبط ، الطهر الأسمى ليس هو العزوف بالضبط . الشجاعة الأسمى ليست هي العنف الشديد بالضبط . لو أن التاو تبهرج فلن يكون هو التاو . الكلام الذي يحاجج يقصُر عما يجب أن يكون . الاحساس المنمط (المقلوب) لا يفوز . الطهر الذي لا صدع فيه لا يدعو الى الثقة. الشجاعة بدون اذعان تندحر في آخر الشوط .

١٧٩

٩٣- طريق الشر

الفضيلة يتلفها حب الشهرة. المعرفة تأتي الى الوجود من وراء الخصومة . كل من الفضيلة والمعرفة وسيلة للشر .

١٨٧

٩٤ - الباطني والظاهري والوزراء

الباطني لا يساوم . الظاهري يساوم . الباطني ابن السماء والظاهري ابن الناس : ينحني ويركع على طريقة الوزراء .

١٨٨

٩٥ - طفولة الحكيم في أعلى مراتبها

سأل نان بوتسه كْوي ، تْيُو تْشيُو : كيف له وهو الشايب وجه طفل ؟ فأجاب بُو لْيانغ يي له مواهب حكيم وليس له تاو حكيم ، وأنا عندي تاو حكيم وليست المواهب . أردت أن أعلّمه على أمل أن يصير حكيم حقيقي : أمسكته ثلاثة أيام في التعليم صار بعدها قادر على عدم الالتفات إلى عالم الانسان(١) وإذ بلغ هذه المرحلة أمسكته سبعة أيام صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى الأشياء البرانية من كل صنف . وإذ بلغ هذه المرحلة أمسكته تسعة أيام صار بعدها قادراً على عدم الالتفات الى وجوده هو(٢) . وبعد ذلك حصل له الاشراق . وبحصوله في طور الاشراق صار قادر على رؤية الأحدية(٣)

. وإذ صار قادراً على رؤية الأحدية صار قادراً على أن لا يكون له ماضي وحاضر(٤) . وإذ صار بلا ماضي ولا حاضر صار قادراً على الوصول الى اللاموت واللاحياة ؛ الحالة التي لا يكون فيها تدمير الحياة موتاً (٥) والزيادة في الحياة حياة . وبوصفه شيئاً فقد كان على الدوام في صحبة مع الأشياء الأخرى وعلى الدوام يرحب بها . على الدوام يتدمر وعلى الدوام يتكمل . ان اسم هذه المرحلة هو طفل شبيه بالسلام ، والانسان الذي في هذا السلام هو طفل في طريق الاكتمال (اكتمال الطفولة) .

ص ١٩٤ ومابعدها .

(١) الانقطاع عن الخلق بالاصطلاح الصوفي .

(٢) هنا جاء رجل يريد الدخول على أبو يزيد البسطامي فسأله أبو يزيد من داخل المنزل : من تريد ؟ قال : أريد أبا يزيد ... فرد عليه :

أبو يزيد في طلب أبي يزيد من عشرين عاماً فلا يجده.

(٣) الكشف بالاصطلاح الصوفي .

(٤) هنا سأل رجل أبو يزيد : كيف أصبحت ؟ فرد عليه :

لا صباح ولا مساء . انما الصباح والمساء لمن تأخذه الصفة . وأنا لا صفة لي .

(٥) قارن مع الملاصدرا الشيرازي :

الموت هو قوة تجوهر النفس واشتدادها في الوجود.

٩٦ – **في السيرة الفلسفية**

قصيدة شاو يونغ المسماة أغنية السعادة

اسم سيد السعادة مجهول

من ثلاثين سنة يعيش على ضفاف نهر لو

مشاعره هي مشاعر الريح والقمر

روحه على النهر والبحيرة
ليس عنده من فارق
بين المنصب العالي والمنصب الواطي
بين الفقر والغنى
لا يجري مع الأشياء ولا يساهم فيها
لا قيود لديه ولا تحريمات
فقير لكنه غير آسف
يشرب ولا يسكر
يستجمع وقت ربيع العالم في ذهنه
عنده بِرْكة صغيرة يقرأ عليها القصائد
وشباك صغير ينام تحته
وعربة صغيرة يسلي بها خاطره
وقلم عظيم ينّفذ به ارادته
مرة يعتمر بقبعة شمسية
ومرة يرتدي قميصاً بلا أكمام
وقد يتمشى على ضفة النهر
يتمتع بالنظر الى الناس الطيبين
والاستماع الى حكاياتهم عن السلوك الحسن
لذته في تحقيق الارادة الخيرة
لا يمدح أسياد الجان
ولا يثني على صاحب الطقوس السحرية
ومع أنه لا يخرج من داره
فهو مع السماء والأرض لوحده (*)
هو من لا يُرهبه الجيش العظيم
ولا يغريه الراتب العظيم
وهكذا ! فهو انسان سعيد
لمدة خمسة وستين سنة

موسع فونغ يولان ٢/٢٩١ – ٢٩٢

٩٧ – سياحة في الكون

تشوانغ تسه

الحكيم لا يعتمد على شيء .. هو يمتطي سوية الكون ، يركب على صيرورة العناصر الخمسة ويقوم هكذا بنزهة في اللانهاية . ومن هنا يقال أن الانسان الكامل لا نفس له ؛ فالانسان الروحاني لا انجاز له ، والحكيم الحق لا اسم له .

الموسع ٢ / ١١٠

٩٨ – بطولة الفيلسوف

قصيدة أيام الخريف

تشينغ هاو

في هذي الأعوام لم يأتي أي شيء
غير سهل أو بسيط
كل صباح تشرق الشمس من نافذتي
كلما استيقظ
جميع المخلوقات تُهرع لدورها في قناعة صادقة
كما لاحظتُ ذلك على مهل
بهجة كل فصل أثناء السنة
أتمتع فيها مع الآخر
وفي منأى عن السماء والأرض وكل ماله شكل
توحد التاو
الرياح والغيوم تتبدل من حولي وتتنقل
إن فكري هناك
بالقصر العالي والثروة لم أتدنس
لا الفقر ولا المنصب الواطي ينالان من سعادتي
ان انساناً كهذا هو في الحقيقة بطل

٩٩ - السعادة العقلية

الموهيون

راحة العقل هي اكتساب المعرفة دون اجحاف أو تنافر ، دون
تولع أو افتتان .

نيدهام ١٨٢

مختارات من تاو تي تشنغ

١٠٠- عزلة الحكيم واتحاده بالناس

السماء والأرض ماكثتان الى الأبد
لماذا تمكث السماء والأرض الى الأبد ؟
انهما غير مخلوقتين
ولذلك تعيشان الى الأبد
يبقى الحكيم في المؤخرة ولذلك فهو في المقدمة
ويظل منقطعاً فهو مستقل ، لكنه متحد مع الجميع
ومن خلال الايثار يبلغ الحكيم الكمال

١٠١ - حاجة النفس وحاجة العقل

في السكن كن قريباً من الأرض
في التأمل توغل بعيداً في الضمير

١٠٢ - ضد الثروة والامتلاء

خير لك أن تقتصر على القليل من الامتلاء حتى النهاية
بالغ في شحذ المدية تنثلم حالاً
كدس الذهب واليشب فلن تقدر على حمايتها
احتجن الثروة والجاه تقترب من الكارثة
انسحب عند انجاز العمل
هذا هو سبيل السماء

١٠٣ - الحكم بلا سلطة

أنتج ولا تمتلك
اشتغل لا لحسابك

قُدْ ولا تسيطر
هذا هو الـ تي البدئي

١٠٤ - عواقب الجهل بالتاو

حيث يكون التاو العظيم منسباً
تظهر الرأفة والأخلاق
حيث تولد الحكمة والفطنة
تبدأ المزاعم العظيمة
حينما ينعدم السلام داخل الأسرة
تظهر طاعة الوالدين والاخلاص
حينما تعم الفوضى
يظهر الوزراء المخلصون

* بتخلي الانسان عن تاوه تظهر سلطة الدولة ، والأخلاق ، والعائلة . ومع ظهور أهل الثقافة ينتفخ الانسان ، وهكذا : ان تكون تاوياً يعني أن تكون بسيطاً وان تكون بسيطاً يعني ان تخرج من سلطة الدولة وسلطة المجتمع ، وسلطة الثقافة .

١٠٥ - يزول البدن وتبقى التاو

فرغ نفسك من كل شيء
ودع الذهن يُخلد الى السلام
العشرة آلاف شيء تأتي وتذهب بينما ترقب النفس تعاودها
تنمو الأشياء وتزدهر وتنكفئ من ثم الى المنشأ
العودة الى المنشأ متداومة . إنها سبيل الطبيعة
وسبيل الطبيعة لا يتغير
معرفة الدائم من بُعد النظر
وعدم معرفته تقود الى المصايب
فبمعرفة الدائم ، الذهن مفتوح
ومع ذهن مفتوح يكون القلب المفتوح
واذ تكون مفتوح القلب يمكنك أن تتصرف بطريقة ملكية

وحيث تكون ملكياً تكون إلهياً
وحيث تكون إلهياً فأنت مع التاو يداً بيد
وكونك مع التاو يداً بيد هو السرمد
يزول البدن وتبقى التاو

١٠٦ - معرفة الجهل وسقم السقم

معرفة الجهل قوة
جهل المعرفة سقم
اذا كان المرء سقيماً من السقم فهو ليس سقيماً
والحكيم ليس سقيماً لأنه سقيم من السقم
وبالتالي فهو ليس سقيماً

١٠٧ - حزن الفيلسوف

توقف عن التعلم تضع حداً لمعضلاتك
هل من خلاف بين لا ونعم ؟
هل من خلاف بين الخير والشر ؟
أيجب علي أن اخاف مايخاف سواي ؟ .. يا للهراء !
يتمتع الناس في قناعة بعيد الثور القرباني
وفي الربيع يذهب بعضهم الى المنتزه ويتسلق الروابي
وأنا وحدي في مهب الريح ، لا أدري أين مكاني
مثل الوليد قبل أن يتعلم الضحك
وحيد .. لا مكان لي أذهب اليه
لدى الآخرين اكثر مما يحتاجون . أما أنا فلاشيء عندي
معتوه ، أوه ، نعم ! ومشوش
سواي واضح والمعي
وأنا وحدي ضعيف قاتم
سواي ذكي فطن

وأنا وحدي البليد الأبله
أواه ، أنساق كأمواج البحر
دونما اتجاه ، مثل ريح لا تهدأ
كل امرئ سواي مشغول
وأنا وحدي بلا هدف
مكبوت ... مختلف .. تغذيني الأم ذات الجلال

* هنيهة إحباط يمر بها الحكيم التاوي فيلوذ بالشكوى والبكاء . وكان المعري يبكي في خلواته . وكان كذلك أقطاب الصوفية الذين استنطقوا النبي محمد بهذا الدعاء : اللهم ارزقني عينين هطالتين . الشاعر الجواهري اعتبرها حالة سلب تثير الوجدان :

وللكآبة ألوان ، وأفجعها
أن تبصر الفيلسوف الحر مكتئباً

لكن الصوفية جعلوها من مقام العقل . فمن غير الممكن أن يترقى الانسان في مراتب الوعي العليا فيستمر على حاله من الضحك . هو كما يقول لاوتسه هنا قد ارتدّ بعد أن تأوج في تلك الذرى الى حالة الوليد قبل أن يتعلم الضحك . والانسان في هذا الطور مستغرق في مقام البكاء .

١٠٨ - سبل التكوين

الفضيلة العظمى أن تتبع التاو ، والتاو وحده .
التاو يروغ عن الحس
يروغ عن الحس ،
وتبقى ثمت صورة
يروغ عن الحس ،
وتبقى ثمت صيغة
هو قاتم وداجٍ ،
ويبقى ثمت جوهر

هذا الجوهر واقعي جداً وفيه يكمن الايمان
منذ البداية الأولى حتى الآن لم ينس أحد اسمه
هكذا أَفهمُ التكوين
وكيف أعرف سبل التكوين
بفضل هذا ..

١٠٩ - يسوعيات

إخضع ... تَغلب
إنحنِ ... تستقم
إفرغ ...تمتلئ
تعرَّ ... تكن جديداً
خذ القليل ... تربح
خذ الكثير ... تكن مشوشاً
من هنا : يلزم العقلاء الواحد
ويصبحون أسوة للجميع
لا يُضاهون بذواتهم ... ويتألقون
لا يُبرزون أنفسهم ... ويبرزون
لا يكابرون ... ويحظون بالاعتراف
لا يتبجحون فلا يتلعثمون
لا يختصمون فلا أحد يخاصمهم
من هنا فقول الغابرين : إخضع تَغلب
أهو كلام فارغ ؟
كن كلاً حقيقياً
وستأتي اليك كل الأشياء
....
من يقف على طرف أصابعه ليس راسخاً
من يمشي الوجيف يعجز عن مواصلة المشي
من يعدد مآثره للناس ليس متنوراً

البار بنفسه لا يستحق التبجيل
المتباهي لا ينجز شيئاً
والمُدلّ بنفسه جَزوع
تبعاً لأهل التاو ،
كل أولئك طعام زائد ومتاع عارض
لا يجلب السعادة ،
ولذا يجانبه أهل التاو

١١٠ - امتزاج الطبيعي بالاجتماعي

شيء ما تشكل في السر
ولد قبل السماوات والأرض
في الصمت والخلاء
أحدياً لا متغيراً
قد يكون هو الأم للعشرة آلاف شيء
أنا لا أعرف اسمه
لكني أسميه التاو
ولأني لا أجد كلمة أفضل أدعوه ذو الجلال
وهو من جلاله يجري ،
يجري بعيداً ، بعيداً
حتى اذا بلغ الغاية القصوى قفل راجعاً
من هنا : التاو جليل
السماء جليلة
الأرض جليلة
والملك أيضاً جليل
انها القوى الأربعة للوجود
والملك واحد منها
الانسان يتبع الأرض
الأرض تتبع السماء

السماء تتبع التاو
والتاو يتبع ماهو طبيعي

عن الملك التاوي انظر ٩٠ من هذا الفرع

١١١ - قوة السالب

المشاء الجيد لا يترك أثراً
المتكلم الجيد لا يزلّ لسانه
الحاسب الجيد لا يحتاج الى العداد
الباب الجيد لا يتطلب قفلاً
ومع ذلك فليس في مقدور أحد فتحه
الربط الجيد يتم دون عَقْد
ومع ذلك فلا سبيل الى تفكيكه
من هنا : الحكيم يُعنى بكل الناس
ولا يستثني أحداً
يُعنى بكل الأشياء
ولا يستثني شيئاً

الخياط العظيم قلما يستعمل المقص

١١٢ - ضد حروب الدولة

حينما ترشد حاكماً الى دروب التاو
أشر عليه أن لا يستخدم القوة ليفتح الدنيا
لأن ذلك يسبب المقاومة فقط
إن غابات القتاد تنمو أينما يمر الجيش
والسنوات العجاف تأتي بعد حرب ضروس
قم بما تدعو الحاجة الى القيام به
ولا تتخذ من القوة شعاراً

إحصل على نتائج
ولكن حذار من جعلها سبيلاً الى المجد
إحصل على نتائج
وإياك من التباهي
إحصل على نتائج
وإياك من التفاخر
إحصل على نتائج
فهذا هو السبيل الطبيعي
إحصل على نتائج
ولكن ليس بالقسر
فبعد القوة يأتي الوهن
وليس هذا بدرب التاو
إن من يسير خلافاً للتاو يُخترمْ على عجل

....

الأسلحة الجيدة آلات للخوف تمقتها جميع الكائنات
ولذا لا يستعملها أهل التاو قط
العاقل يفضل اليسار
وأهل الحرب يفضلون اليمين
الأسلحة آلات للخوف وليست أدوات العاقل الكيّس
فهو لا يستعملها إلا إذا لم يبق لديه خيار
السلم والسكينة عزيزان على قلبه
ليس النصر بسبب للفرح
إن من يفرح بالنصر يفرح بالقتل
ولئن فرحت بالقتل فلن يمكنك استكمال ذاتك
في المناسبات السعيدة تُعطى الأسبقية لليسار
في المناسبات الحزينة لليمين(*)
في الجيش يقف القائد الى اليسار

وضباطه الى اليمين
يعني هذا أن الحرب تدار على شاكلة الجنائز
عندما يُقتل عدد كبير من الناس
ينبغي النواح عليهم بمرارة
ما الفرق اذن بين النصر والجنازة ؟

* يشير الى تقليد صيني

١١٣ - معادلة الموت والفوت

.. أن تموت دون أن تهلك
يعني أن تكون أبدي الحضور

* فرق أبو مدين بين الموت والفوت. فجعل الموت كرامة والفوت حسرة وندامة . لأن الموت انقطاع عن الخلق والفوت انقطاع عن الحق . وبالاصطلاح التاوي يكون الموت بهذا المعنى حالة اتصال بالحياة تنقطع بالهلاك وهو التلاشي أو الانقطاع عن الحق بالاصطلاح الصوفي ولذلك يموت الحكيم ولا يهلك .

١١٤ - الحاكم الذي لا يحكم

التاو الجليل يجري في كل مكان ؛ الى اليمين واليسار على السواء .
العشرة آلاف شيء تعتمد عليه ، وهو محيط بكل شيء
يؤدي ماعليه بصمت ولا يدعي شيئاً
يغذي العشرة آلاف شيء
دون أن يدّعي السيادة عليها
صغير جداً ، وليس له غرض
إليه ترجع العشرة آلاف شيء
لكنه ليس بسيدها
هو في غاية الجلال

لا يبدي التاو جلال ذاته
ومن هنا فهو جليل حقاً

١١٥ – الضعفاء أولاً
الذي ينكمش
يجب أن يتسع أولاً
الذي يخيب
يجب أن يكون شديد البأس أولاً
الكسيف البال
يجب إعلاؤه أولاً
وقبل الأخذ
يجب أن يكون العطاء
هذا يُدعى ادراك سجية الأشياء
الضعيف الرخو يغلب الشديد الصلب
لا يستطيع السمك أن يغادر المياه العميقة
وينبغي أن لا تعرض على الناس أسلحة الدولة

١١٦ – من تفرعات اللافعل

الخيّر بحق لا يدري أنه خيّر
ومن هنا فهو خيّر
المعتوه يحاول ان يكون خيّراً
وهو لذلك ليس خيّراً
الخير بحق لا يفعل شيئاً
ولكنه لا يدع شيئاً غير مفعول
المعتوه يفعل دائماً
ويبقى الكثير محتاجاً الى الفعل
حينما يفعل الرحيم بحقٍ شيئاً ما لا يدع شيئاً غير مفعول

حينما يفعل العادل شيئاً ما يبقى لديه الكثير مما يجب فعله
حينما يفعل المرشد شيئاً ما ولا يستجيب أحد
يلوّح بأكمامه لفرض الانتظام.
من هنا : متى ماضاعت التاو كان الخَيْر
ومتى ماضاع الخير كانت الرأفة
ومتى ما ضاعت الرأفة كان العدل
ومتى ماضاع العدل كانت الشعائر

الخير طبيعة تفعل بدون تفكير . فاذا فقدت الطبيعة كان خيراً مصمماً . واذا فقد الخير المصمم احتاج الناس الى الرأفة . فاذا فقدوا الرأفة جاء دور العدل - الدولة - فاذا انفقد العدل لجأ الناس الى الشعائر . والأول هو التاو والأخير هو كونفشيوس .

١١٧ - **العالم الأزلي والأمراء اليتامى**

هذه الأشياء ذات الزمن السحيق نشأت من واحد
السماء كلية وصافية
الأرض كلية ووطيدة
الروح كلية ومتينة
الوادي كلي ومملوء
العشرة آلاف شيء كلية وحيّة
الملوك والسادة كليون ، والبلاد معتدلة الأحوال
كل هذه الأشياء حاصلة في فضيلة الكلي
صفو السماء يمنع سقوطها
رسوخ الأرض يمنع انشقاقها
أمانة الروح تمنع استنفادها
امتلاء الوادي يمنع جفافه
نمو العشرة آلاف شيء يمنع هلاكها

قيادة الملوك والسادة تمنع تدهور البلاد
من هنا : الوضيع هو جذر الشريف
الواطي أس العالي
الأمراء والسادة يعدون انفسهم يتامى ، أرامل ، عديمي الجدوى .
ألا يتوخون أن يكونوا متضعين ؛
النجاح الزائد عن اللزوم ليس امتيازاً
لا ترن كاليشب
ولا تطقطق مثل الأحجار

١١٨ - قوة السلب

الا لطف في الوجود
يغلب الأغلظ في الوجود
ماهو بدون هيولى يمكنه النفاذ في اللامكان
ولذلك فانا أعرف قيمة اللافعل
التعليم بدون كلمات ، والعمل بدون فعل
لا يفهمه إلا القليل جداً من الناس

١١٩ - الحرب والتاو

حين تكون التاو حاضرة في الدنيا
فالخيل تنثر السماد
وحينما تكون التاو غائبة عن الدنيا
فخيول الحرب تربى حول المدينة

في أخبار المهدي المنتظر ان الخيل ترخص والحديد يغلو . والخبر عن النبي . فقيل له كيف : فقال : ترخص الخيل لأنها لا تركب لحرب أبداً . ويغلو الحديد لأن الأرض تحرث كلها (فتحتاج الى المحاريث وأدوات الزرع) .

من غير أن تسافر يمكنك أن تعرف الدنيا كلها
من غير أن تطل من النافذة يمكنك أن ترى دروب السماء
وبقدر ما تذهب بعيداً تعرف قليلاً
وهكذا يعرف الحكيم دون أن يسافر
ويرى دون أن يحدّق
وينجز كل شيء دون أن يفعل

....

في متابعة التعليم تستجد كل يوم حاجة
في متابعة التاو ينقص في كل يوم شيء
افعل الأقل فالأقل
حتى تستكمل اللافعل
واذ لا تفعل شيئاً فلن يبقى شيء غير مفعول
العالم يقوم على ترك الأمور لمجاريها
ولا يمكن أن يدار بالتدخل

١٢١ - من صفات الحكيم

الحكيم خشوع ، متضع ، ويبدو أمام العالمين مشوشاً
ينظر اليه الأنام ويستمعون أما هو فيتصرف مثل طفل

١٢٢ - حافة الفظاظة وسياج التاو

مابين الولادة والموت
ثلاثة من عشرة هم أهل الحياة
وثلاثة من عشرة هم أهل الموت
والذين يمرون من الولادة الى الموت يعدون أيضاً ثلاثة من عشرة
لم كان هذا هكذا ؟
لأنهم يعيشون في حافة الفظاظة .
من يعرف كيف يعيش يمكنه أن يَضرب في الأرض

دونما خوف من الكركدن أو النمر
لا يمسه فرح في الحرب
ولا يجد الكركدن موضعاً فيه يطعنه بقرنه
ولا النمر موضعاً يُنشب فيه مخالبه
ولا الأسلحة مكاناً للطعن
لِمَ كان هذا هكذا ؟
لأنه لا يترك للموت مكاناً ينفذ منه

١٢٣ - الخوف من الموت

بداية الوجود
هي أم كل الأشياء
بمعرفة الأم يعرف المرء الأبناء
ومعرفة الأبناء مع بقاء الاتصال بالدم
تحرر الانسان من مخافة الموت

١٢٤ - السادة اللصوص

عندما يكتسي البلاط بالروعة
تمتلئ الحقول بالأدغال
وتصبح الأهراء فارغة
البعض يلبسون الثياب الفاخرة
ويحملون الصوارم
ان لديهم أكثر مما يستطيعون استعماله
اولئك هم السادة اللصوص
كلا ! ليس هذا بدرب التاو

الحروف المشتركة بين التاويين والغفاريين المسلمين القائلين بتحريم كنز الأموال .

١٢٥ - من النفس الى العالم

إغرس الـ تي في نفسك

يكن الـ تي حقيقياً
إغرسه في الأسرة
يكن غزيراً
إغرسه في القرية
يكن نامياً
إغرسه في الأمة
تجده في كل مكان

١٢٦ - انشودة الـ تي العليا

من يمتلئ بالـ تي يمكن أن يشبه الوليد
الهوام لن تلسعه
والسباع لن تمسك به
والجوارح لن تنقض عليه
ومع أن عظامه هشة
وعضلاته مرهفة
فإن قبضته شديدة
هو لا يعرف شيئاً عن اتحاد الذكر والانثى
لكن زبه ينتصب في بعض الأحيان
دليلاً على أن حيويته كاملة
وقد يبكي طوال اليوم دون أن يبح صوته
دليلاً على ان تناسقه تام
ان فهم التناسق هو فهم القوة الحيوية الغير مُحبطة
واذ تفهم عدم الاحباط فأنت متنور
والآن !
فبتكثيف الحياة الدنيوية للمرء فالمرء يستجلب الشؤم
وبالسماح للانفعالات القلبية والذهنية ان تستولي على التشي
يتردى الانسان في قساوة المنون
وحيثما ستؤول القوة والعنف الى الانحطاط

فلأن الجهد المفرط موجه ضد التاو
وحيثما توجهت ضد التاو
فذلك هو الخراب

١٢٧ فعل الدولة المدمِّر

مع المزيد من الأوامر والنواهي
يزداد الفقراء فقراً
مع الأسلحة الأكثر فتكاً
يكون المزيد من المشاكل في البلاد
مع المزيد من الأذكياء والبارعين
يأتي المزيد من الغرائب
ومع المزيد من الأحكام والتعاليم
يكون المزيد من اللصوص والنهابين
من هنا . يقول الحكيم :
لا اقوم بأي فعل
فينصلح الناس
التزم السلام
فيصبح الناس أنبل
لا أفعل شيئاً
فيصبح الناس اغنياء
لا تكون لي رغبة
فيعود الناس الى الحياة الطيبة البسيطة

١٢٨ - السلطة التي لا تستعمل سلطاتها

الحكيم حاد لا يقطع
مسنَّن لا يخدش
مستقيم لكن بوازع
لامع ولكن لا تعشى به العيون

حينما يدار البلد بلطف
فالناس بسطاء
وحين يدار بفظاظة
تخبث نفوسهم

- نظرية ظهرت في الصين وانبعثت في الاسلام وورثها عصر التنوير الفرنسي .

١٣٠ - مخازن الـ تي الوافرة

حيثما وجد مخزن وافر للـ تي فلن يبقى محال
وإذا لم يبق محال فلن تبقى حدود
واذا لم يعرف الانسان حدوداً صح له ان يكون حاكماً
المبدأ الأم للحكم يبقى سارياً زماناً طويلاً
ان هذا ليُدعى امتلاك جذور عميقة واتدة
ذلك هو تاو الحياة المديدة والرؤية الأبدية

١٣١ - التاو مقابل الامبراطور

بالكلمات الحلوة تشتري الشرف
بالأفعال الطيبة يبجلك الناس
واذا وجدت امرءاً رديئاً فلا تنبذه
من هنا : يوم تتويج الامبراطور
أو تنصيب الوزراء الثلاثة
لا تبعث هدية من اليشب أو فصيلاً من أربعة خيول
بل إلزم مكانك وأظهر التاو

١٣٢ - من سُلوب التاو

مارس اللافعل
اشتغل دون فعل
تذوق ملا ذوق له
عظّم الصغير وكثّر القليل

كافئ المرارة بالرعاية
أبصر البساطة في المركَّب
أنجز العظيم من الأشياء الصغيرة

الحكيم لا يجرب أي أمر عظيم
وبهذه الطريقة يحقق العظمة
ولأنه يواجه المصاعب دائماً
فهو لا يعانيها قط

١٣٣ ـ الانعتاق من الفعل والرغبة

من يفعل يخسر الهدف
من يُمسك يضيع
والحكيم لا يفعل فلا يخسر
ولا يمسك فلا يضيع
يفشل الناس عادة حين يوشكون على النجاح
فاعط النهاية من الاهتمام ماتعطيه للبداية
فبذلك تتجنب الاخفاق
من هنا
يبحث الحكيم عن الحرية في الرغبة
فلا يحتجن النفائس
ويتعلم أن لا يصر على الأفكار
فيعيد الناس الى ماضيعوه
ويساعد العشرة آلاف شيء في العثور على طبيعتها
لكنه منعتق من الفعل

١٣٤ ـ حكومة التاو

كيف تفرض الأنهار ملوكيتها على مئات الجداول ؟
لأنها أوطأ منها
ذلك ما يجعلها ملوكاً على مئات الجداول

فإذا شاء الحكيم أن يرشد الناس
فعليه أن يتضع
بحيث اذا كان فوقهم لا يُثقل ظهورهم
وحين يكون في الرأس لا يشعرون بالأذى
وعندئذ سيكون كل ماتحت السماء مسروراً لأنه مقود به
ولا يجدون توجيهاته مضجرة لهم

الحكيم لا ينخرط في منافسة
وبالتالي فلا أحد ينافسه

١٣٥ - أساسيات انسانية

الجندي الجيد ليس عنيفاً
المقاتل الجيد ليس غضوباً
المنتصر الجيد ليس انتقامياً
المخدوم الجيد متضع
هذا يدعى تي اللاجهد
يدعى قدرة التعاطي مع الناس
ولقد كان هذا معروفاً منذ القدم بأنه
الاتحاد التام مع السماء
....
قول يردده الجنود
لا أجرأ على القيام بأول خطوة ولكني أفضل لعب دور الضيف .
لا أجرأ على التقدم شبراً ومستعد للتراجع ذراعاً
هذا يدعى سيراً دون إظهار الحركة
التلويح بالأردان دون كشف الذراع
القبض على العدو من غير هجوم

التسلح بلا أسلحة
مامن رزية أرزأ من تقدير العدو بأقل من حجمه
بتقدير العدو أقل من حجمه أفقد التقييم
من هنا إذا حمي الوطيس
ينتصر المستضعفون
١٣٦ - محنة الفكر الحر
كلماتي سهلة الفهم سهلة الأداء
وإن كانت لا تجد تحت السماء من يعرفها أو يمارسها
لكلماتي بدايات سحيقة
وأفعالي مضبوطة
ولأن الناس لا يفقهون فهم لا يعرفونني
الذين يعرفونني قلائل
الذين يؤذونني مكرّمون
من هنا : يرتدي الحكيم أغلظ الثياب ويخفي الجواهر في قلبه
١٣٧ - تاو السماء
الشجاع الحاد المزاج هو إما قاتل وإما مقتول
الشجاع الحليم يصون الحياة دوماً
أي هاذين جيد وأيهما ضار ؟
بعض الأمور لا تحبها السماء . من يدري لماذا ؟
حتى الحكيم لا يعرف الجواب
تاو السماء لا تكدح ، ومع ذلك فهي متفوقة
لا تتكلم ولكنها مجابة
لا تطلب شيئاً ، وتحصل على كل ماتحتاج
تبدو في راحة من الفعل لكنها تسير وفق المنهاج
شبكة السماء تنتشر في الآفاق البعيدة
ورغم ان خيوطها غير محبوكة فلا شيء يخترقها .

١٣٨ - ثلاث أسئلة كبرى مع أجوبتها . . .

لماذا يجوع الشعب ؟
لأن الحكام يأكلون الأموال بالضرائب
ولذلك يجوع الشعب
لماذا يتمرد الشعب ؟
لأن الحكام يتدخلون أكثر من اللازم
ولذلك يتمرد الشعب
لماذا لا يعبأ الناس بالموت ؟
لأن الحكام يطلبون ثمناً باهظاً للحياة
لذلك يتقبل الناس الموت بسهولة

١٣٩ - يسوعيات

يولد الانسان رقيقاً واهناً
ويموت صلباً يابساً
يبدأ النبات غضاً مترعاً بالنسغ
ويموت ذابلاً جافاً
من هنا : اليابس وغير المنحني قرينان للموت
والرقة والطوعان قرينان للحياة
وهكذا : لن ينتصر جيش بلا مرونة
والشجرة التي لا تنحني سهلة الكسر
يسقط الشديد والصلب
ويعيش الناعم والضعيف

١٤٠ - وغفاريات

تاو السماء تشبه انحناءة القوس ؛
الأعلى مخفوض والأسفل مرفوع
اذا كان الوتر مفرط الطول يمكن تقصيره
واذا لم يكن كافي الطول يمكن تطويله
تاو السماء هو أن تأخذ من المكثرين وتعطي المقلين
ونهج الانسان على النقيض

فهو يأخذ من المقلين ويعطي المكثرين
من هذا الذي يملك أكثر من حاجته ويعطيه للعالم ؟
فقط هو انسان التاو
من هنا : يشتغل الحكيم دون إدلال
ويؤدي ماعليه دون إلحاف
ولا يحاول أن يُظاهر بمعرفته

- ماهو غفاري هو يسوعي . وإنما اختصصت المقتبس بالغفاري لاتفاق اللغة .

١٤١ من جذور الحكم التاوي

ليس تحت السماء أنعم وألين من الماء
وعلى الرغم من ذلك
فليس هناك أقدر منه على مهاجمة الصلب والشديد
الضعيف يمكنه التغلب على ذي البأس
ويمكن للأخضر أن يقهر اليابس
كل من تحت السماء يعرف هذا
لكن مامن أحد يضعه موضع التطبيق
من هنا يقول الحكيم :
من يتقبل ازدراء الناس به جدير بأن يحكمهم
من يتحمل مشاكل البلاد جدير بأن يكون ملك الدنيا
وكثيراً ماتبدو الحقيقة متناقضة

١٤٢ - تناصف الحقوق

بعد عراك مرير يتبقى شيء من الأشياء
ماذا يمكن أن نفعل
لهذا يحتفظ الحكيم بنصف ماله من المقايضة
ولكن دون أن يستوفي الاستحقاق

انسان بالـ تي يؤدي ماعليه
إنسان بلا تي يطلب من الناس الوفاء بما عليهم
ان تاو السماء عادلة
مع الأخيار في كل وقت

*****

- قال حكيم عربي :
تسامح ولا تستوف حقك كله
وياسر فلم يستوف قطُّ كريمُ ،

ونزعة الانصاف هذه توغلت في وجدان المجتمع الاسلامي في عصوره حتى امتدت الى اللصوص . (والكلام في ذلك لا يخص الدولة ومايتعلق بها) وقد أوصى عثمان الخياط أتباعه العيارين اذا سطوا على منزل ان يسرقوا نصف مافيه ويتركوا النصف الآخر يعيش به أهل المنزل !

١٤٣ - تفضيل الدول الصغيرة على الكبيرة والبساطة على المدنية

البلد الصغير قليل السكان
ورغم توفر آلات تشتغل أسرع من الانسان بين عشر مرات الى مئة
فهم لا يحتاجونها
ينظر الناس بجد الى الموت ولا يسافرون بعيداً
لديهم قوارب وعربات لا يستخدمونها
وأسلحة ودروع لا يُظاهرون بها
يرجع الناس الى عقد الخيط بدل الكتابة
طعامهم بسيط وجيد. ملابسهم بسيطة وجميلة
وبيوتهم آمنة
سعداء على طريقتهم
ومع أنهم يعيشون على مرأى من جيرانهم
وصياح ديوكهم ونباح كلابهم تسمع عبر الدروب
فهم يتركونهم في سلام حتى يشيخوا ويموتوا

١٤٤- تنافيات التاو

الكلمات الصادقة ليست جميلة
الكلمات الجميلة ليست صادقة
الأخيار يتجادلون
والذين يتجادلون ليسوا أخيار
الذين يعرفون ليسوا متعلمين
والمتعلمون لا يعرفون
الحكيم لا يحاول اكتناز الأشياء قط
وكلما زاد من اكتنازه للغير زاد مايملك
وكلما اكثر من عطائه للغير عظمت وفرته
تاو السماء مسننة لكنها لا تؤذي
تاو الحكيم هي العمل دون كد

*****

ملحق مترّخ بأسماء الفلاسفة المقتبس لهم
باو جنغ بن أواخر الثالث وأوائل الرابع الميلادي
تاي تشي ت ١٣٠ م .
تشو شي ١١٣٠ – ١٢٠٠م .
(تجو شي)
تشانغ تساي ١٠٢٠ – ١٠٧٧ م
تشي تسانغ ٥٤٩ – ٦٢٣ م
تشينغ يي ١٠٣٣ – ١١٠٨ م .
تشينغ هاو (اخوه) ١٠٣٢ – ١٠٨٥.
تشوانغ تسه ٣٦٩ – ٢٨٦ ق.م
خان (هان) يو ٧٦٢ – ٨٢٤ م .
خْواي (هواي) نان تـ ١٢٢ ق.م .
خْوان (هْوان) يِنغ تسه الثامن م .
خو (هو) ين ١٠٩٣ – ١١٥١ م .

خوي (هْوي) شيهْ النصف الثاني من ق ٤ ق.م
سو ما بياو الثالث م .
شانغ يانغ ت ٣٣٨ ق.م
شاو يونغ ١٠١١ – ١٠٧٧ م .
شيانغ شيو ٢٢١ – ٣٠٠ م .
شيانغ غو(*) الثالث م .
شون تسه ٢٩٨ – ٢٣٨ ق.م .
(شون تشينغ)
كاوْ تسه الرابع الثالث ق.م
كون سونغ لونغ ٢٨٤ – ٢٩٥ ق.م (؟) .
كْوان تشونغ ت ٦٤٥ م .
(كوان يي وو)
كو شيانغ ت ٣١٢ م .
كونفشيوس ٥٥١ – ٤٧٩ ق.م
(كونغ فو تسه)
لاوتسه (لاوتان) السادس ق.م.
لو جْيو يْوان ١١٣٩ – ١١٩٣ م .
ليه تسه ٤٥٠ – ٣٧٥ ق.م .
منشيوس (مَنْغ كوتسه) ٣٧٤ – ٢٨٩
موتسه (موتي) ٤٨٠ – ٤٢٠ ق.م .
وانغ تشونغ ٢٧ – ٩٧ م (أو ١٠٠ م)
وو لن تْجوانغ ١٢٤٩ – ١٣٣٣ م.
يانغ تشو (التاوي الأول) ؟
يانغ شيونغ ٥٣ ق.م – ١٨ م.
يانغ تشيان ١١٤٠ – ١٢٢٦ م.

(*) غو = جو = قو (بالجيم المصري والقاف الحميرية)

الباب الثالث
نصوص أدبية

لمحة

ترجع نشأة الشعر الصيني الى الألف الأول ق.م، وكان في البداية شفوي ينظمه شعراء أميون ويتناقله الناس بالحفظ والانشاد والغناء . وبدأ التدوين في غضون السابع ق.م حيث أخذ الأدباء يعتنون بجمع تراثهم الشفاهي كما فعل الأدباء العرب بعد الاسلام . وأشهر الدواوين هي التي جمعها كونفشيوس تحت عنوان كتاب الأغاني .

وعرف الصينيون المطولات الشعرية من غرار المعلقات ، وأقدم مطولة ترجع الى الثالث ق.م وهي من نظم تْشيو يْوان بعنوان لي ساو أي النحيب . وينظر اليها في النقد الصيني على انها من تراث الشعر الوطني ، وقد جعلها الكاتب والعالم المرموق كومورو موضوع لمسرحية باسم الشاعر استنهض بها الهمم الوطنية في أيام النضال ضد الاحتلال الياباني . وهناك مايعتبر العصر الذهبي للشعر الصيني وينحصر مابين أوائل السابع الميلادي وأوائل العاشر وفيه ظهر أعظم شعراء الصين على الاطلاق وهم الثلاثة دوفو ، لي باي ، وباي جيويي ، وهم شعراء غنائيون ومن غرار شعراء العرب الكبار الذين ظهروا مابين القرن الثاني للهجرة (الثامن م) والرابع (العاشر) وتنتظمهم سلسلة بشار بن برد – المتنبي .

والشعر الصيني موزون على عدة بحور ومقفى كالشعر العربي وتحتوي القصيدة على مقاطع طويلة تتابع على روي واحد وتتميز بشدة الجرس . وهذا مثال أنقله بالحرف العربي لاعطاء صورة واضحة عنه .

وهو من قصيدة لماوتسي تونغ :

دونْ فانْ يَيَه شاوْ
موداو تجن شينْ زاو
تابيان تشن شان ، رَنْ وَيْ لاو

فون جِين تجي بْيان دوَ خاو
معنى الأبيات :
الشرق قد تعالى نوره
لا تقل جئنا مبكرين
صعود الجبال الخضراء لا يسبب الهرم للانسان
مشاهد الطبيعة هنا ساحرة خلابة

وكان الشعر أسبق الفنون الأدبية الى التطور . ثم ظهر النثر الفني وتطور في أسرة تانغ ، أي بعد زهاء الف سنة من ظهور وتطور الشعر . وهذا فيما يخص الكتابة الأدبية البحتة . أما البلاغة الأدبية فقد سبقته بمدة طويلة ووجدت أرقى صورها في كتاب التاو الأول . إلا أنها لم تمارس كفن مستقل إلا في هذا العصر ، عصر تانغ ، حيث ازدهر كتاب كبار من طراز الجاحظ وأبو حيان عندنا .. وأميزهم هان يْوي كاتب تانغ اللامع ، الذي اتخذ وجهة نقدية ساخرة تذكرنا بابوجيان والوهراني مع لغة أكثر تطامناً وأقل استفزازاً .

وفي وقت متأخر نسبياً نشأ الأدب المسرحي الذي تأوج في القرن الثالث عشر مع غوان هان تشينغ (١٢٩٧ م) ، وهو أعظم كتاب الصين على الاطلاق . وعلى يده ظهرت ناضجة المسرحية الاجتماعية التي يعزوها تاريخ الأدب الغربي الى الفرنسيين في القرن التاسع عشر . وهي تسبقهم بزهاء السبعة قرون . وتميزت مسرحيات غوان بنبضها الانساني الشديد وقد تناولت وجوه الحياة اليومية للناس باستقصاء واقعي مترع بالتفاصيل وبلغة شديدة أسرة . ولو أنها لم تتخلص من جنوح الأساطير الذي ينتظم سلك الفنون القديمة بوجه عام سواء في الشرق أم في الغرب ويشكل النزوع المشترك لروائع الآداب القديمة مثل جلجامش والألياذة وألف ليلة وليلة ، مما لم يتحرر منه فن القص الا في العصر الحديث . ويحتوي هذا الباب من المستطرف الصيني على ترجمة لواحدة من لوامع غوان هان تشينغ وهي مسرحية ثلج في عز الصيف وقد فضح فيها الاداريين والقضاة الفاسدين ...

وازدهرت الرواية ، متأخرة كذلك ، في غضون الثالث عشر الميلادي ، وأولها ظهوراً رواية أبطال على شاطئ البحيرة تأليف شي ناي آن ، من أوائل أسرة يوان ، تليها رواية الممالك الثلاثة تأليف ليو غوان تجون ، من أوائل أسرة مينغ . ثم رواية رحلة الحج الى الغرب تأليف وو تشن آن ، من القرن السادس عشر . وتأخر ظهور الرواية الى هذا الوقت يبدو للوهلة الأولى مثير للحيرة مع ما اكتظ به تاريخ الصين من المعامع الكبرى بحيث أن رواية الممالك الثلاثة التي ألفت في الرابع عشر الميلادي تناولت أحداثاً وقعت في القرن الثاني قبل الميلاد ، على أني أجد في عناية أهل الصين بالتأرخة والسجلات التاريخية لاسراتهم وممالكهم ماحال دون الاتجاه الى تسجيل الحوادث بالرواية أو القصة . وهو نفس ماحصل للمسلمين بحلول التأرخة عندهم محل الرواية مما نجده في تضخم المؤلفات في التاريخ الى مستويات تفوق ما لدى الشعوب الأخرى بمن فيهم أهل الصين . ويؤشر الظهور المتأخر لحكايات ألف ليلة وليلة نقطة تماثل مع التجربة الصينية في هذا المضمار . وكما هو الشأن في المسرحيات تختلط الرواية الصينية بالأسطورة ولم تتحرر منها الا في هذا العصر مستفيدة من تجربة الأدب الغربي الحديث ، الذي سبق غيره الى التحرر من أحلام الطفولة الأولى للأدباء بفضل القفزة التي قام بها العقل البشري مع ظهور الرأسمالية .

تنبيه

لن يتضمن هذا الباب مختارات من الشعر فقد أغنى عني فيه شيخي الجليل عبد المعين الملوحي بترجمته البليغة لكتاب الفرنسية باتريسيا غويللرمازالشعر الصيني من أقدم أصوله حتى اليوم وصدر جزئه الأول عام ١٩٦٨ والثاني عام ١٩٧٩ . ويستحق الكتاب أن يسمى ديوان الشعر الصيني وللملوحي فضل السبق في إيصال الأدب الصيني الى القارئ العربي .

على اني استثنيت من ذلك مقتطفات من كتاب الأغاني ارتأيت تقديمها لقراء المستطرف الصيني مما لم يتضمن ديوان الملوحي كثيراً

منه . والكتاب من تدوين كونفشيوس كما بينت(*) ويضم شعر المرحلة الشفاهية من ثقافة الصين بدءاً من الحادي عشر ق.م حتى طور التدوين في غضون الثامن ق.م على الأقل . ويقابل عندنا مرحلة الشعر الجاهلي . سوى أنه غير معزو لأنه من الشعر الفولكلوري المغنى . والجاهلي معزو في معظمه . ويعكس كلا الشعرين بيئته الطبيعية والاجتماعية باخلاص ، ومن هنا تميز الصيني بالطراوة والغضاضة لأنه يعايش طبيعة شديدة التنوع والازدهار من الجبال والوديان والغابات والبساتين والمزارع التي غطت أراضي الصين بالخضرة منذ العصور الغابرة ، مع بساطة في التعبير والمشاعر تميزت بها الشخصية الصينية بحكم تبلورها في هذه البيئة الزاهية . كما تميز الصيني بوجود الدولة والمدنية وقد انعكس ذلك فيه بقوة. والشعر الجاهلي هو ابن الصحراء والرمال والكثبان والشخصية الحرة المتصلبة التي تعايشت مع الشمس والسيف واللاسلطة فاشتدت طباعها وتماسكت على قيم فروسية متوارثة فأنتجت هذا الشعر المتين بأوزانه الرنانة القاسية الشروط ، والمكتظة بموسيقى التفاعيل كما تمثلت في البحور الطوال التي فضلها الجاهليون على الأهازيج ، وقد انعكست فيه بنفس الاخلاص نباتات الصحراء وحيواناتها فكان البان غراره لقوام المرأة والمها غراره لعيونها والغضا غراره لنيران الحب والشوق :

احمامة الوادي بشرقيِّ الغضا
إن كنت مُسعدةَ الكئيب فرجعي
انا تقاسمنا الغضا فغصونه
في راحتيك ، وجمره في أضلعي

مع تمسك ، يبدو متعارضاً مع البيئة ، بعذوبة المرأة وعبير جسدها ونظافته :

(*) انكرت الثورة الثقافية نسبته إليه في سعيها لتجريده من الفضائل وليس لإنكارها سبب متين

بآنسة الحديث رضابُ فيها
قبيل الصبح كالعنب العصير

لكن الشعر الجاهلي يبقى متصلباً حتى تحت وهج الحب وحتى حين تنطق به النساء . وأكتب للقارئ هذا الغزل لامرأة عربية ليقارنه بقصائد غزل اخترناها من الأغاني الصينية مما قالته صينيات أو قيل على لسانهن :

وبتنا خلاف الحي لا نحن منهم
ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينا ساقطَ الطل والندى
من الليل بردا يَمنه عطرانِ
نذود بذكر الله عنا من الصبا
إذا كان قلبانا بنا يجفان
ونصدر عن أمر العفاف ، وربما
نقعنا غليل النفس بالرشفان

والأبيات تقولها جاهلية أو من نساء صدر الاسلام أمضت ليلة مع صديق لها. وكان العرب يجيزون الصداقة في الجاهلية واستمروا عليها حتى نهاية الأمويين .. هذا وقد أحلت في مختارات أخرى من الأغاني الصينية على نظائر من الشعر العربي لاقتضاء المضمون أو الخيال الشعري .

المختارات

- من رحلة الحج الى الغرب . تأليف وو تشن أن / القرن ١٦ م . وتتناول رحلة قام بها راهب بوذي صيني الى الهند لجمع الأسفار البوذية . وفي الرواية من جنوح الخيال الأسطوري مايضاهي ألف ليلة وليلة . لكن أشعارها تذكرنا بنشيد الانشاد .

المتقطف المأخوذ هنا هو من ترجمة فؤاد أيوب بتصرف لغوي لم التزم فيه نص المترجم في بعض العبارات ..

.. سأل الملك القرد : أين جبل الرعد المتكاثف هذا ؟ أهو بعيد من هنا ؟

فأجابه الإله المحلي : حوالي ثلاثة الاف لي .

فطلب القرد من الخَنّوص والرمّال أن يُعنيا بمعلمهم وطلب من الإله المحلي أن يقوم بالحراسة في مكانه . وسرعان ما اختفى ، وبلغ في مثل لمح البصر جبلاً يتسامق حتى السماء . وهبط من السحب ليتوقف على القمة واخذ يتطلع حوله. كان جبلاً رائعاً ...

قُنته تتعالى الى السماء اللازوردية
وسفوحه العظيمة تبلغ المجرى الواطي
والشمس تشع دافئة في مواجهته
والريح تهب باردة من خلفه
والنباتات على منحدره المشمس لا تعرف الشتاء
والجليد على منحدره المقابل للريح لا يعرف الصيف
وكانت الجداول تتدفق منه دائمة الى بركة التنين
والزهور على المنحدرين تزهر باكراً عند كهف النمر
والسواقي تتفجر من ألف ينبوع وكأنها يشب طائر
والنَوْر يتفتح مثل سجادة مبسوطة
وفوق القمم المتعرجة أشجار ملتوية
وأشجار الصنوبر العتيقة خلف الصخور الوعرة

وكنت ترى القنن والشقوق والهاويات والصدوع
والورود اللطيفة والثمار النادرة والكروم الحمراء والقصب القرمزي
والصنوبر الأخضر والصفصاف الزاهي
التي لم يكن تفتحها يختلف من فصل الى فصل
فهي خالدة مثل التنين الذي تحمله

تملى القرد هذا المنظر ثم غطس في القمة ليتفقد الجبل . وحار في الوصول الى الطريق حتى شاهد في ظل الصنوبر فتاة تتمايل نحوه برشاقة وفي يدها غصنان من السَحْلَب العبق . فتوارى خلف جندلة ليمعن النظر فيها . ما شكل هذه الفتاة يا ترى ؟

كان جمالها من ذلك الذي تتهاوى له الممالك
وكانت خطواتها اللوتسية متوانية
وفتنتها التي غنى لها القدماء
أشبه بزهرة ناطقة وأشبه باليَشَب لكن أنعم.
وكان شعرها الأسود الكث مرفوعاً
وعيناها صافيتين مثل بركة في الخريف
وتحت تنورتها برز صندلان مقوسان صغيران
ومن كميها تطاولت أنامل نحيلة
وهي في شفتيها القرمزيتين وأسنانها اللؤلؤية
تشبه الالاهة التي تأتي مع المطر والسحاب
ناعمة مثل نهر جينغ ، فاتنة مثل جبل إيمي
وأحلى من أحلى فتيات شنغدو

ولما اقتربت الفتاة على مهل من الجندل انحنى الملك القرد وقال :
أين تذهبين يا سيدة ؟
عند سماعها رنة صوته رفعت الفتاة رأسها في دهشة فذعرت لمرأى القرد غير الجذاب فتلعثمت وقالت : من أنت ؟ ولماذا تسأل ؟
ففكر القرد في نفسه : من الأفضل أن لا أحدثها عن بحثنا عن

الكتب المقدسة والمروحة السحرية فقد تكون متحالفة مع الملك الثور الإبليسي ، سوف أزعم أني جئت الى هنا للإجتماع به .

ونظراً لأنه لاذ بالصمت غيرت الفتاة لهجتها وقالت في حدة :

– من أنت وكيف تجرأ على الدنو مني .

فانحنى القرد وأجاب مبتمساً

– جئت من جبل السحب الزمردية ، وبما أني جديد في ناحيتكم الموقرة فأنا لا أعرف الطريق . أيمكن أن أسألك إن كان هذا هو جبل الرعد المتكاثف ؟

ولما أجابت بالايجاب استطرد القرد

– وأين كهف استطاعة السحب ؟

– لماذا تسأل ؟

– جئت من لدن الأميرة المروحة الحديدية من كهف السَعَف على جبل السحب الزمردية لأعود بالملك الثور الإبليسي الى بيته .

عندها غضبت الفتاة بشدة واحمرت حتى الأذنين وصرخت :

– العاهرة الحمقاء ! إن الملك الثور الإبليسي يعيش معي هنا منذ ما لا يقل عن سنتين وقد منحته مقداراً كبيراً من المجوهرات والذهب والفضة والديباج والحرير .. وأزوده كل شهر بالحطب والرز حتى يستمتع كما يحلو له . هل بلغ من عدم حيائها أنها تفكر في استعادته ؟

ولما أدرك القرد أن هذه هي الأميرة الوجه الرخامي سحب نبوته وزعق :

– بل أنت العاهرة . لقد اشتريت الملك الثور الإبليسي بأملاك أسرتك وجعلتيه زوجك . أيتها الباغية التي لا تخجل ، كيف تتجاسرين على شتم الناس ؟

ارتاعت الفتاة فولت هاربة . وتبعها القرد وهو يصيح . ولما اجتاز ظلال الصنوبر وجد نفسه أمام مدخل الكهف الذي أسرعت اليه الفتاة وصفقت الباب خلفها . فوضع القرد نبوته جانباً وتوقف ينظر فيما حوله كانت بقعة رائعة ..

الاحراج الكثيفة والهاويات العميقة
ترتدي المعرّشات الظليلة والسحلبيات الناعمة
والجداول تترقرق مثل يشبٍ مشع بين القصب العالي
والصخور الملساء مكسوة بالبتلات المتساقطة
والضباب يلف الهضاب البعيدة فيما الشمس تشع على السحب
والتنانين والنمور تزمجر والبلابل والشحارير تغرد
هذا الجمال النادر المزدهي بالورود أبداً
يضاهي في فتنته الكهف السحري لجبل تيان تاي
ولا يقل روعة عن جزر بنغ لي

لنترك القرد يتملى المشهد ونتبع الفتاة . لقد ركضت حتى تصببت عرقاً وهي تلهث رعباً واندفعت في غرفة مكتبة الملك الثور الإبليسي الذي كان يقرأ في هدوء كتاباً في السيمياء والقت بنفسها في حضنه وهي تلطم وتبكي . فقال الملك الثور وهو يبتسم :

لا تغضبي يا حبيبتي . ماذا جرى لك ؟

فضربت القاع بقدميها وقالت في هياج :

– الذنب كله ذنبك أيها الإبليس

فرد وهو يبتسم أيضاً

– وماذا فعلت هذه المرة ؟

تزوجت منك لأني يتيمة لكي تحميني لشهرتك بالشجاعة لكني أراك فتى لا نفع فيه وخاضع لزوجتك .

فأخذها الملك الثور بين ذراعيه وقال :

– والآن يا حبي قولي لي ماذا فعلت حتى أعتذر

– كنت أتجول في الظل والتقط الزهور حين حاذاني على غرة راهب ناتئ الفك أشعر الوجه فكدت أموت رعباً . وما تمالكت نفسي لأسأله من هو حتى أخبرني أن الأميرة المروحة الحديدية أرسلته ليعود بالملك الثور الإبليسي . وحين قلت شيئاً في معارضة ذلك شتمني ولاحقني بعصا .

ولو لم أسرع لقتلني . وأنت السبب في ذلك . سوف تتسبب في موتي .

ولم تنتهي الخليلة عن غضبها وعبوسها حتى تقدم لها الملك الثور باعتذاره ولاطفها وتملقها ثم قال لها مؤكداً جازماً :

- يا حبيبتي أنا لا أخفي عنك سراً . إن كهف السعف موقع هادئ بعيد عن الناس وزوجتي التي درست الحقيقة منذ صباها هي الآن قديسة بكل معنى الكلمة ، وبالفعل بيتنا منظم جداً ولائق جداً بحيث لا يوجد عندنا وصيف . فأنى لها أن ترسل هذا الرجل صاحب الفك الناتئ ؟ صدقيني ماهو الا شيطان جاء من مكان آخرليلتقي معي باسمها ، فلأذهب وأنظر اليه .

خرج الملك الثور وألقى درعه في القاعة ثم تناول نبوتاً حديدياً وخرج من البوابة فصاح :

- من يثير المتاعب هنا ؟

لاحظ القرد ان الثور تغير كثيراً في القرون الخمسة الأخيرة
كانت خوذته الحديدية تتألق كالفضة المصقولة
ودرعه المذهب مكسو بالمخمل المطرز
وكان يلبس حذاءين مدببين من جلد الوعل الأبيض
وحزامه المعقود من الحرير ينتهي بحلية على هيئة رأس الأسد
ان عينيه براقتان كالمرآة
وحاجبيه أشبه بقوس قزح أحمرين
وفمه مثل طاسة من القرمز
وأسنانه صفان من اللوحات النحاسية
حين يزمجر ترتعب آلهة الجبال
وحين يهتاج يرتجف أعداؤه الأقربون
وهو معروف في البحار الأربعة بمدمر العالم
وقد لقب بملك الغرب الإبليسي لقوته الجبارة

رتب القرد ثيابه وتقدم ثم ركع وسأل :

– هل تتذكرني يا أخي :
– الست القرد سان فو كونغ ؟
– نعم . وقد جئتك لأقدم احترامي بعد أن عرفت مكانك من المرأة . علي أن أهنئك اذ يبدو عليك أنك في أحسن حال .
فصرخ الملك الثور الإبليسي :
– أمسك لسانك المعسول هذا . لقد بلغني أنك بعدما أنزلت الدمار بالسماء اعتقلك بوذا تحت جبل القمم الخمسة . ثم أطلق سراحك قبل وقت قصير لترافق تربيتيكا في حجة الى الغرب بحثاً عن الأسفار البوذية . قل لي لماذا أسأت الى ابني في كهف السحابة النارية في وادي الصنوبر الذابل فوق الجبل النابح ؟ كنت أبحث عنك لأثأر منك ، وها أنت تأتي باحثاً عني .
ركع القرد وقال :
– لا تلمني لخطأ لم أرتكبه يا أخي . لقد قام ابنك باعتقال معلمي وأراد أن يأكله ولم يكن لدي ما أفعله لكن غوان يين انجدت تربيتيكا وتغلبت على ابنك لكي يصحح سلوكه . وهكذا فقد أصبح الآن الملاك سوذانا ومركزه أعلى من مركزي وهو يستمتع بالهناءة الكاملة والحرية التامة والشباب الأبدي . فما الخطأ في ذلك :
فزعق الملك الثور :
– يا أبو اللسان الطويل تنكر أنك أسأت الى ولدي . ولكن لماذا أخفت خليلتي العزيزة وطاردتها حتى البيت ؟
فتضاحك القرد وقال :
لما لم أستطع العثور عليك يا أخي سألت امرأة صادفتني عن الطريق وما كنت أعلم أنها زوجتك الثانية . وقد أجابتني بجفاء فرددت عليها بحدة وربما أخفتها بسبب ذلك . فأرجوك أن تغض النظر عن هذا الأمر .
– طيب . سأدعك تمضي كُرمى لتلك الأيام .
فقال القرد :

– يغمرني لطفك . لكن لدي مطلب واحتاج الى عونك .

فصرخ الثور : أيها القرد الحقير . ما أشد صفاقتك ؟ لا تضايقني واذهب مادام مزاجي رائقاً . كيف تتجاسر على طلب المساعدة مني ؟

أجاب القرد : سأخبرك بالحق . أني أرافق تربيتيكا في حجه الى الغرب ، وقد سد طريقنا بالجبل الملتهب . ولقد علمت من الأهالي بخبر مروحة الخوص التي لدى عقيلتك المحترمة راكشاسا . ولما ذهبت الى مقامها أمس لاستعيرها منها أنكرتها علي . فجئت أتوسل بك لترافقني بطيبة قلبك الكبيرة الى عقيلتك لاعارتي هذه المروحة بأي ثمن كي نطفي نيران الجبل . وسوف أردها حالما نعبر الجبل مع معلمي .

– يا للوقاحة ، تريد المروحة ؟ لاشك أنك أهنت امرأتي ولما صدتك جئت إلي . ثم طاردت خليلتي . تقول الحكمة : لا تهن زوجة صديقك ولا تتنمر على محظيته . ولقد فعلت الأمرين . أيها السعدان الوقح ! تقدم حتى أضربك .

قال القرد : إن كنت تريد مقاتلتي يا أخي فلست بخائف. لكني متلهف لاستعارة مروحتك السحرية فهلا تفضلت وأعرتني إياها ؟

– إذا تمكنت أن تربح ثلاث جولات ضدي أخبرت زوجتي بأن تعيرك إياها . وإلا قتلتك ثأراً لنفسي .

قال القرد : أنت على حق يا أخي . لقد كنت كثير الاهمال ولم أزرك طيلة هذه المدة بحيث أني لا أعرف كيف تقاتل هذه الأيام بالمقارنة مع الماضي . فلنجرب على أي حال .

ودون أن ينبس بكلمة رفع الملك الثور الإبليسي صولجانه الحديدي وأهوى به عليه فصدّ القرد الضربة بنبوته ذي العقد الذهبية . وأعقب ذلك قتال كثير :

نبوت ذهبي العقد وصولجان حديدي
وفصما عرى صداقتهما في حنق عظيم
قال أحدهما : أيها السعدان الحقير لقد دمرت ولدي
وقال الآخر : لا تغضب فابنك ملاك

وصاح احدهما : كيف تجرأ على القدوم سعياً ورائي :
وقال الآخر : جئت أطلب منك حاجة
واحد يريد المروحة لأجل تربيتيكا
والآخر حانق جداً ولا يريد اعارتها
وتشاتما متناسيين صداقتهما القديمة
غاضبين لما أصابهما من مهانة
إن صولجان الملك الثور أشبه بتنين منطلق
ونبوت القرد يجبر الأبالسة على الهرب
تقاتلا أولاً عند سفح الجبل
ثم حلقا في السحب
ليظهرا قوتهما في ملء الهواء
كاشفين اللثام عن مهارتهما في هالة وضاءة من النور
وتقارعت أسلحتهما أمام بوابة السماء
لكن أحداً منهما لم يستطيع أن يهزم الآخر

تراتيل تاوية
من القرن الأول للميلاد

الى السماء
الواحد الأعلى
والأسمى
ذو الجلال يهبط على الأكمة المركزية
تقوده أقاليم الفضاء الأربعة الى معبد
ركز تفكيرك المشتت بكل طاقتك
واجعل ذهنك يقف في مكانه
عسى أن يسود الطهر والإنسجام في كل مكان
عسى أن تنعم كل الإمبراطورية بالسلام
وعسى الملكة الأرض تُثري وتخصب
وتسفر ساطعة في معطفها الأصفر .

ثلج في عز الصيف

مسرحية بقلم غوان هان تشينغ

القرن الثالث عشر

الشخصيات

السيدة تْساي ، أرملة

دوتيان تشانغ ، متعلم فقير ، ولاحقاً مفتش حكومي .

دوا ابنة دوتيان تشانغ المسماة دْوآن يُون

الطبيب لو

الشايب تشانغ وحمار ابنه

والي

مستخدمون قضائيون

الضابط المسؤل عن الإعدام

جلاد

المشهد الأول

تدخل السيدة تساي

السيدة تساي :

يمكن للأزهار أن تتفتح مرة أخرى

لكن الشباب لن يعود

أنا السيدة تساي من تشوشو . كنا ثلاثة في عائلة لكن زوجي مات من سوء حظي وترك لي ولد عمره ثمان سنوات . ونحن نعيش معاً ، الأم والابن ، وحالتنا جيدة تماماً . اقترض مني مدرس يدعى دو من ولاية شانيانغ خمس تايلات فضة في السنة الماضية . بلغت الفائدة مع رأس المال الآن عشر تايلات لكنه لا يقدر على الدفع ولو أني طلبتها منه عدة مرات . وللسيد دو بنت وأنا أفكر في جعلها كنتي وعندئذ سأعفيه من الدين . وقد اختار السيد دو هذا اليوم الميمون ليأتي بالبنت إلينا . ولذا سوف لا أسأله دفع شيء ولكني انتظره في المنزل . لازم يكون هنا حالاً

(يدخل دوتيان تشانغ يقود ابنته دوان يون).

دو :

أنا سيد التعليم في كل الدنيا

لكن حظي أسوأ من حظ أي انسان في الدنيا

اسمي دوتيان تشانغ وموطن آبائي هو تشانغ آن . درست علوم الأوائل صبياً وقرأت الكثير . لكني لم أدخل الامتحان حتى الآن . ماتت زوجتي لسوء حظي وتركت لي هذه البنت دْوان يُون . لقد فقدت أمها حين كانت في الثالثة وهي الآن في السابعة . نعيش على الكفاف . انتقلت من ولاية شان يانغ الى تشوتشو وسكنت هنا . توجد أرملة في البلدة اسمها تساي تعيش وحيدة مع ابنها ، وأحوالها جيدة. ولما كنت لا أملك نقود للسفر فقد اقترضت منها خمس تايلات . وأنا الآن مدين لها بعشرة . رغم أنها طالبتني بنقودها أكثر من مرة لم أقدر على التسديد . ومؤخراً أرسلت الي تطلب ابنتي لابنها . ولما كانت امتحانات الربيع ستبدأ قريباً فعلي أن أذهب الى العاصمة . ولكني لا أملك نفقات السفر ولذا فأنا مضطر لاعطاء ابنتي دوان يون للسيدة تساي حتى تكون كنتها في المستقبل أنا لا أزوج ابنتي إنما أبيعها ! وستشطب الأرملة ديوني وتعطيني نفقة السفر . وهذا كل ما أرجوه . آه يا صبية والدك يفعل ذلك خلافاً لرغبته. وبينما أتكلم وصلتُ الى بابها . السيدة تساي ! أنت في البيت ؟

(تدخل تساي)

السيدة تساي : ها . السيد دو . تفضل ادخل . كنت في انتظارك .

يحيّ أحدهما الآخر .

دو : أتيتكِ بالبنت ، لا لتجعليها كنة – هذا قد يكون مثار أسئلة كثيرة – ولكن لتخدمك ليل نهار . يجب علي الذهاب الى الامتحان . وأرجو أن تعتني بها .

السيدة تساي : طيب . أنت مدين لي بعشر تايلات بضمنها الفائدة . هذا سندك خذه ، ومعه تايلين للسفر . أرجو أن لا تستقلهما .

دو : شكراً لك مام . بدلاً من أن تسأليني كم أنا مدين لك أعطيتيني نقود للطريق . سوف أرد لك هذا الفضل يوماً . ان ابنتي معتوهة فأرجو العناية بها ، مام ، لخاطري .

السيدة تساي : لا تقلق يا سيد دو . سأهتم بابنتك كما لو كانت بنتي .

دو (منحنياً لها) : اذا استحقت الصبية الضرب ، مام ، فوبخيها لخاطري ، واذ استحقت التوبيخ فكلميها بلطف لخاطري ! وبالنسبة لك يا دوان يون ، أنت هنا لست كما في بيتك حيث اعتاد والدك على مجاراتك في كل نزواتك . فاذا صرت هنا شقية سيكون جزاؤك الضرب والشتم . متى سأراك مرة أخرى يا صبيتي ؟ (بتنهد) :

أدق بحزن على صدري

درست العلوم الكونفوشية

ماتت زوجتي المسكينة في ميعة الصبا

وها أنا أفارق ابنتي الوحيدة . (يخرج)

السيدة تساي : الآن ترك لي السيد دو بنته وراح للامتحان في العاصمة . لازم أقوم بشغل البيت .

(تخرجان معاً) .

(يدخل الطبيب لو)

الطبيب :

اشخص جميع الأمراض في عناية

أصف الأدوية الناجعة

لكني لا أستطيع احياء الموتى

والأحياء الذين أداويهم غالباً مايموتون

أنا الطبيب لو . عندي حانوت عطارة هنا . اقترضت عشر تايلات من السيدة تساي من أهل هذه البلدة . وأنا الآن مدين لها مع الفائدة بعشرين تايل . هي تتردد عليّ من أجل النقود لكني لا أملك شيء . لو أنها لا تأتي فهذا أحسن .ولكن اذا استمرت في التردد عليّ فعندي خطة

سوف أجلس في حانوتي الآن وأنتظر لأرى من يحضر .

(تدخل السيدة تساي)

السيدة تساي : أنا السيدة تساي ، قبل ثلاث عشر سنة ترك دوتيان تشانغ عندي ابنته دوان يون حتى تتزوج ابني . وقد غيّرتُ اسمها الى دو أ . ولكن بعد زواجهم مات ابني فترملت . كان هذا قبل ثلاث سنين تقريباً . وقد أنهت الحداد لتوها . قلت لها أنا رايحة الى البلدة حتى أستحصل ديني من الطبيب لو والآن وصلت الى داره . لو داي فو هنا ؟

الطبيب : نعم مام . ادخلي

السيدة تساي : حجزت فلوسي مدة طويلة يا داي فو . ولازم ترجعها لي .

الطبيب : ماعندي شيء في البيت ، مام ، اذا تأتين معي الى القرية سأحصل لك على النقود .

السيدة تساي : طيب . أروح معك

(يمشيان)

الطبيب لنفسه : نحن الآن خارج المدينة . هذا مكان مناسب خالي من الناس . لماذا لا أفعلها هنا ؟ سأجهز الحبل . من هذا الذي يناديك مام ؟

السيدة تساي : أين ؟

(يضع الطبيب الحبل في عنق السيدة تساي . وفي نفس اللحظة يظهر الشايب تشانغ وابنه المسمى حمار ويهرعان الى الطبيب الذي يهرب حين يراهما . وينقذ الشيخ تشانغ السيدة تساي منه).

حمار : بابا هذي عجوز تختنق .

تشانغ : هيه . أنت ! من أنت ؟ ما اسمك ؟؟ ليش يريد ذاك الزول خنقك ؟؟

السيدة تساي : اسمي تساي . أعيش في البلدة مع كنتي الأرملة . والطبيب لو مدين لي بعشرين تايل فجاء بي الى هنا وأراد خنقي .

ولولاك ولولا هذا الشاب كان انتهى كل شيء .

حمار : سمعت يا أبي ؟ عندها كنة في البيت . نفرض أنك تزوجتها وتزوجت أنا الكنة ؟ ايش تقول ؟ اقترح عليها ذلك يا أبي .

تشانغ : هيه يا أرملة . أنت بلا زوج وأنا بلا زوجة . ايش تقولين لو تزوجنا نحن الاثنين ؟؟

السيدة تساي : فكرة ! راح أعطيك مبلغ مليح من المال شكراً لك .

حمار : ها . ترفضينا ؟ من الأحسن أن أخنقك مهما كان الأمر .

السيدة تساي : انتظر . خليني أفكر يا أخي .

حمار : بأي شيء تفكرين ؟ أنت تأخذين أبي وأنا آخذ كنتك .

السيدة تساي (لنفسها) : اذا لم أوافق راح يخنقني . (ثم تتوجه اليهما) طيب تعالوا معي الى البيت .

حمار : يا الله .

(يخرجون وتدخل دو آ)

دو أ : أنا دو ان يون ومنزلي في تشوتشو . فقدت والدتي في الثالثة واضطريت الى ترك والدي ، لأنه سلمني الى السيدة تساي حتى أكون كنتها . وقد غيرتْ اسمي الى دو أ . في السابعة عشرة تزوجت . لكن زوجي مات قبل ثلاث سنين من سوء حظي . والآن أنا في العشرين . يوجد طبيب في البلدة اسمه لو اقترض من حماتي عشرين تايل بضمنها الفائدة . ومع أنها طلبت منه المبلغ عدة مرات لم يسدده لها . وقد راحت اليوم تحاول أخذ فلوسها . آه متى أتخلص من تعاستي ؟

فؤادي مليء بالأسى
عانيت الكثير أعواماً عديدة
الصباح والمساء سواء عندي
من الفجر حتى الغسق لا يطيب لي طعام ولا نوم
مرهقة بالكوابيس ليلاً وبالأفكار نهاراً
آلام لا تنتهي ولا أستطيع الخلاص منها
أسباب متواصلة لتعاسات جديدة

البؤس يبكيني والأحزان تعبس في وجهي
أما لهذا الشقاء من آخر ؟
هل كتب علي أن أشقى طول حياتي ؟
أي انسان جرى عليه مثل ماجرى علي ؟
همي كالماء الجاري لا يتوقف أبداً
في الثالثة فقدت والدتي وفي السابعة فارقت والدي
ولما تزوجت سرعان ماخسرت زوجي
وبقينا أرامل أنا وحماتي
ولا من أحد يهمه أمرنا أو يسأل عن حاجاتنا
هل قصرت في حرق البخور
حتى يكون زواجي تعيساً الى هذا الحد ؟
يجب علينا أن نفعل الخير مبكرين
فلذلك أنوح على زوجي وأخدم حماتي
ولذلك أطيع كل ما تأمرني به .

......

ذهبت حماتي من وقت طويل لأخذ المال فلماذا تأخرت ؟
(تدخل السيدة تساي مع الشايب وابنه)
السيدة تساي : انتظروا هنا حتى أدخل الدار
حمار : حسناً يا والدة . ادخلي وأخبريها أن زوجها بالباب .
(السيدة تساي تلتقي مع دو أ)
دو أ : ها قد رجعت يا أمي . هل أكلت ؟
السيدة تساي (تبكي) : آه يا حبيبتي الفقيرة ، ايش أقول لك ؟
دو أ :
أراها من فيض الدموع
تخفي الأسى في فؤادها
أحييها على عجل وأتضرع اليها لتخبرني بالسبب .
السيدة تساي : كيف يمكنيّ اخبارك ؟؟

دو أ : يظهر عليها الحياء والتردد .
ما الذي يزعجك يا أمي ولماذا تبكين ؟
السيدة تساي : لما طلبت الفضة من الطبيب لو أخذني الى خارج البلدة وأراد خنقي . فجاء بالصدفة شايب يدعى تشانغ وابنه حمار وخلصوني منه . والآن ، الشيخ تشانغ راح يتزوجني . هذا هو السبب .
دو أ : هذا لا يجوز يا أمي . الرجاء فكري مرة أخرى . نحن غير محتاجين للمال . ثم أنت كبرت كيف يمكنك الزواج مرة أخرى .
السيدة تساي : ما باليد حيلة يا بنتي .
دو أ : اسمعيني يا ماما !
ماذا سيجري لك .
اذا اخترت يوماً للزفاف ؟
شعرك الآن في بياض الثلج
كيف يمكنك ارتداء اكليل العروس الحريري اللماع ؟
حقهم اذا قالوا ان بقاء المرأة في منزلها صعب
أنت في الستين حيث تختفي كل أحلام الحب
تنسين زوجك السابق
ويأخذك الشوق نحو زوج آخر
ستجعلين الناس يمطّون شفاههم ساخرين
نعم يمطون شفاههم ساخرين
من مثل الأرملة يروّح لضريح الزوج
لستِ خيزرانة طرية ولا برعم غض
كيف يمكنك التكحل والزواج مرة أخرى
زوجك خلّف لك أملاكه
ضماناً للمستقبل
حتى تعيشي في يسر ورخاء
فلا تحتاجين أنت ولا ابنك الى أحد
حتى آخر يوم من العمر

فهل تكلّف هذه المتاعب كلها دون معنى ؟

السيدة تساي : مادام الأمر قد وصل الى هذا الحد فأنا أرى من الخير لك أن تتزوجي أيضاً . ورواح نجعل هذا اليوم يوم زفافنا .

دو أ : تتزوجين أنت اذا أردت . أنا لا أريد .

السيدة تساي : ثبتّنا الموعد . وهم جاهزين الآن .

حمار : الآن نتزوج . قبعاتنا نظيفة كأنها جديدة . ولها ذوائب كأنها قبعات العرسان . جيد ! رائع !

دو أ : ابقوا في مكانكم يا رجال

ينبغي على النساء أن لا يصدقن كل ما يقوله الرجال

مثل هذا الزواج لا يدوم

أين وجدت هذا الجلف العجوز

وهذا الهمجي الآخر

ألم يبق لك شعور تجاه الموتى

يجب أن تعيدي النظر في ذلك .

زوجك اشتغل في مدن ومقاطعات كثيرة .

حتى حصل على هذه الأموال ولم ينقصه شيء

كيف تسلمين عقاره الى الحمار تشانغ ؟

هو الذي حرث الأرض ويريد الغير أن يجني الثمر

(تخرج)

تشانغ للسيدة تساي : لنخرج ونشرب مام

(يخرجان)

حمار : دو أ ترفضني . لكنها سوف لا تفلت مني . سأرغمها على الموافقة . لا شرب الآن مع الشايب .

(يخرج)

المشهد الثاني

(يدخل الطبيب لو)

الطبيب : أنا الطبيب لو . استدرجت السيدة تساي الى خارج

المدينة وكنت على وشك خنقها حين أنقذها رجلان مني . وأنا اليوم في حانوتي أنتظر من يراجعني .

(يدخل حمار)

حمار : أنا حمار تشانغ . دو أ ترفض الزواج مني . العجوز الآن مريضة وقد عزمت على تسميمها فما أن تموت العجوز حتى تكون الفتاة زوجتي . آه . هذا حانوت عطار . يا حكيم أريد عقاقير .

الطبيب : أي عقاقير تريد ؟

حمار : سم

الطبيب : من يجرأ على بيعك السم . وكيف يمكنك طلب مثل هذا الشيء ؟

حمار : يعني لا تعطيني ؟

الطبيب : كلا لا أعطيك . ماذا ستفعل ؟

حمار (ممسكاً به) جيد ! جيد ! ألست الرجل الذي حاول خنق السيدة تساي :

أتظن أني لا أعرفك ؟ سآخذك الى القاضي .

الطبيب (مذعوراً) دعني يا أخي . هو عندي . هو عندي . (يعطيه السم)

حمار : الآن وقد حصلت على السم سأذهب اليها . (يخرج)

الطبيب : إن ذلك الرجل الذي جاء لشراء السم هو أحد الرجلين اللذين انقذا الأرملة ومادمت أعطيته السم فربما سيوقعني في متاعب . من الخير لي أن أغلق حانوتي وأذهب الى تشوتشو لبيع العقاقير (يخرج)

تشانغ : جئت الى منزل السيدة تساي على أمل أن أكون زوجها الثاني . من كان يظن أن الأرملة ستمرض ؟ حقيقة أنا غير محظوظ . اذا كنت تحبين أن تأكلي شيء أخبريني مام .

السيدة تساي : أشتهي حساء كروش الغنم .

تشانغ : يا بني روح وقل لدو أ تعمل حساء كروش الغنم لحماتها .

حمار : دو أ حماتك تشتهي حساء كروش الغنم . أسرعي لاحضاره .

(تدخل دو أ)

دو أ : أنا دو أ . حماتي وجعانة وتريد حساء كروش الغنم . وقد عملته لها . إن بعض النساء متقلبات جداً .

تريد أن تنام مع رجل كل حياتها
لا تريد النوم وحيدة .
تزوجتْ واحداً في الماضي وهاهي تصطاد آخر
بعض النساء لا يتحدثن قط في شئون المنزل .
دائماً ينغمسن في الثرثرة
يصفن مغامرات أزواجهن
مشغولات دائماً في حيل دنيئة
هل هناك واحدة مثل السيدة تشو التي تنازلت للعمل في حانة ؟
أو مثل منغ غوان التي أظهرت لزوجها كل الاحترام ؟
إن نساء اليوم مختلفات :
لا يمكنك معرفة خصالهن من كلامهن
ولا الحكم عليهن من أفعالهن
كلهن يبحثن عن عشاق جدد
وقبل أن تجف قبور أزواجهن
يخلعن ثياب الحداد
أين المرأة التي بكت على زوجها
إلى أن تفتت السور العظيم
أين التي تركت غسيلها وأغرقت نفسها في اليم
أين التي تحولت الى حجر
وهي تترقب عودة زوجها
كم تخجلني تلك النساء النواشز
اللواتي غلب عليهن التهتك وقلة الاحتشام

ذهبن جميعاً ، نسوة الماضي الفاضلات
فلا ترى غير الطمّاحة المتقلبة
صريعة الهوى والأهواء

الآن الحساء جاهز فقد طبخته على أحسن وجه.
حمار : دعيني أقدمه لها . (يأخذ الطاسة) ولكن طعمه غير سائغ .
هاتي شيء من الملح والخل .
(تذهب دو أ فيضع حمار السم في الحساء . ثم تعود دو أ)
دو أ : هذا هو الملح والخل .
حمار : ضعي قليل منه في الحساء
دو أ : تقول انه يحتاج الى الملح والخل
أضف هذا لتجعله سائغ
أرجو أن تتحسن صحة أمي حالاً
وأن يكون الحساء فألاً حسناً
حتى تعيشوا ثلاثتكم في سعادة

تشانغ : يا بني هل الحساء جاهز ؟
حمار : هذا هو . خذه
تشانغ (يأخذ الحساء) : خذي الحساء مام .
السيدة تساي : يؤسفني لأن أسبب لك هذي المتاعب . خذ أنت منه أولاً .
تشانغ : يعني لا تريدين أن تجربيه ؟؟
السيدة تساي : كلا . أريدك تشرب منه أولاً .
(يشرب تشانغ من الحساء)
دو أ
واحد يقول : ألا تريد أن تجربه
الآخر يقول : جربه أنت

طريقة مخجلة في الحديث
كيف يمكنني تحاشي السخط
الزوجان الجديدان في لحظة انتقال
ناسية زوجها الأول
تسمع الى الكلمات الرقيقة من زوجها الثاني
وقلبها مثل بذور الصفصاف في مهب النسيم
ليست راسخة كالصخرة
وليس الحب الأول شيئاً بجانب الحب الأخير
فهي تريد أن تعيش مع الرجل الجديد الى الأبد
أما الرجل الآخر فقد رحل ولن يعود

تشانغ : لماذا دوخني هذا الحساء (يسقط على الأرض)
السيدة تساي : لماذا ؟ (تهتز من الرعب) إثبت يا شيخ .
دو أ
لا فائدة من الحزن عليه
جميع الفانين يموتون في أجلهم
بعضهم بالمرض وبعضهم بالحوادث
بعضهم بالبرد وبعضهم بالحمى
بعضهم بالجوع وبعضهم بالتخمة
ولكن لكل موتة سبب
حياة الانسان في يد الأقدار
وليس لأحد أن يتحكم فيها
ولأن دورة حياتنا مقدرة سلفاً
فلن يبقى هنا غير أيام معدودة
هو ليس من عائلتك
ولن يبعث اليك هدايا الزفاف
لا خروف ولا نبيذ ولا حرير ولا نقود

لقد عشتما معاً الى أجل مسمى
لكنه مات ورحل
وأنا لست بنتاً عاقة
لكني أخاف من تقولات الجيران
كفي عن نواحك وعويلك
فليس هو زوج الصبا والعذرة

(يموت الشايب تشانغ)
السيدة تساي : ايش نفعل ؟ مات .
دو أ
لا يمسنا بقرابة ولن أذرف عليه الدموع
لا حاجة بنا الى الاستسلام للأسى
أو للبكاء ووجع الرأس

حمار : نعم ! سممتم والدي . ماذا ستفعلان ؟
السيدة تساي : هذي فرصتك الآن للزواج منه يا بنتي .
دو أ : كيف تقولين هذا يا أمي ؟

هوذا يفرض نفسه على حماتي
وها هو الآن قد سم أباه
ولكن هل يظن أنه سيخيفنا ؟

السيدة تساي : من المناسب لك تتزوجيه يا حبيبتي
دو أ
ليس للفرس أن تحب سرجين
كنتُ زوجة ابنك وهو حي
وأنتِ الآن تغريني بالزواج من غيره

شيء لا يخطر على البال

حمار : يا دو أ . أنت قتلت والدي العجوز . أتريدين تسوية الأمر فيما بيننا أم في مكان عام؟

دو أ : ايش تعني ؟

حمار : إذا في مكان عام نذهب الى المحكمة وسيكون عليك الإقرار بقتل والدي ، واذا فيما بيننا وافقي على الزواج مني .

دو أ : أنا بريئة . أذهب معك الى الوالي .

(حمار يأخذ دو أ والسيدة تساي الى الخارج)

المشهد الثالث

(يدخل الوالي مع أحد مستخدمي القضاء)

الوالي :

أنا موظف مجتهد

أجمع المال من الدعاوى التي أنظر فيها

فإذا جاء الما فوق للتفتيش

تمارضت ولزمت منزلي

أنا والي تشوتشو : هذا الصباح عندي محكمة . أعلن عن المحكمة يا رجل .

(المستخدم القضائي يطلق نداء)

(يدخل حمار ساحباً دو أ والسيدة تساي)

حمار : أريد توجيه تهمة

المستخدم : تعال هنا

(حمار ودو أ يركعان للوالي فيركع هو لهما)

الوالي (راكعاً): نهوض رجاء

المستخدم : يا جناب الوالي هذا الرجل من الرعية يأتيك ليطلب منك العدل ، لماذا تركع له ؟

الوالي : لماذا ؟ لأن مثل هذا الرجل هو طعامي ولباسي

(المستخدم يومئ بالموافقة)

الوالي : من هو المدعي منكما ومن هو المتهم ؟ قولوا الحق ولا تسرفوا .

حمار : المدعي أنا والمتهم هذه البنت دو أ التي سممت والدي بالحساء .

وليأخذ العدل مجراه يا حضرة الوالي .

الوالي : من سمم الحساء ؟

دو أ : لست أنا

السيدة تساي : ولا أنا

حمار : ولا أنا

الوالي : إذا لم يفعله واحد منكم ، ترى هل أنا فعلته؟

دو أ :

أنت أيها الوالي بصير كالمرآة
يمكنك أن ترى أفكاري الباطنة
ليس هناك أي مشكلة في الحساء
أنا لا أعرف شيئاً عن السموم
لقد ادعى انه يريد تذويقه
ثم شرب منه أبود فسقط ميتاً
ليس هذا لأني أريد انكار جريمتي في المحكمة
لكني لا أستطيع الاقرار بجريمة لم أرتكبها

الوالي : هذا من سوء الطباع . انهم لا يعترفون الا بالتعذيب . هات العصا يا رجل . (المستخدم يضرب دو أ فيغمى عليها ثلاث مرات يرش عليها الماء في كل مرة فتفيق) .

دو أ: هذا الضرب المبرح أكثر مما أتحمل
أنت السبب في هذا يا أمي فلماذا تتذمرين ؟
هل يمكنني تحذير كل امرأة تريد الزواج مرتين ؟

لماذا يضربوني بمثل هذه القسوة
انني أتضور من الألم
كلما أفقت من الاغماء يغمى عليّ
ضربوني بالعصا الف مرة
وفي كل مرة ينزف دمي ويتسلخ جلدي
روحي تطير من الألم المتوغل في الأعماق
من يعرف المرارة التي في قلبي ؟
لست أنا الذي سمم الرجل العجوز
أتضرع الى جنابك أن تبحث عن الحقيقة

الوالي : هل تعترفين الآن ؟
دو أ : أقسم اني لست الذي وضع السم
الوالي : في هذه الحالة اضرب العجوز
دو أ : (على عجل) قف ! قف ! لا تضرب حماتي أكثر من ذلك . سأعترف . أنا سممته .
الوالي : قيدها بالساجور وألق بها في السجن . وستؤخذ غداً الى الرحبة لاعدامها .
السيدة تساي (تبكي) دو أ صبيتي ؟ بسببي تفقدين حياتك . آه . هذه هي نهايتي .
دو أ : حينما أكون شبح بلا رأس ، مقتولة ظلماً
هل تظن أني سأزيد من عمر ذلك المحتال :
لا يمكن للناس أن ينخدعوا الى النهاية
سوف ترى السماء هذا الظلم
لقد ناضلت جهد الامكان لكني الآن بلا معين
أرغموني على الاقرار بتسميم الرجل العجوز
كيف أسكت وهم يضربونك يا أمي
كيف يمكنني انقاذك دون أن أقتل نفسي ؟

(يسحبونها)

حمار : عندما يقتلوها سأتنفس الصعداء (يخرج)

السيدة تساي : الطفلة المسكينة ! سيقتلوها غداً في رحبة السوق وسأموت من بعدها . (تخرج)

الوالي : غداً نعدم دو أ . واليوم أتممنا العمل . هات حصاني . أنا ذاهب الى بيتي لأشرب (يخرج) .

(يدخل الضابط المسئول)

الضابط : أنا الضابط المسئول عن الاعدام . اليوم نطبق حكم الموت على مجرم . يجب أن نحفر الطريق لئلا يمر أحد .

(يدخل المستخدمون يقرعون الطبل والصنج ثلاث مرات . ثم يدخل الجلاد يشحذ سيفه ويلوح بالعلم . دو أ يقتادونها مصفدة بينما يقرعون على الطبل والصنج).

الجلاد : اقطعوا الطريق ! لا تدعوا أحد يمر .

دو أ :

بسبب جريمة لم أرتكبها يسمونني مجرمة
ويحكمون علي بقطع الرأس
لتسمع السماء والأرض صرختي من هذا الجور
لكن السماء والأرض كلتاهما
لا تريد انقاذي
الشمس والقمر يضيئان نهاراً وليلاً
الجبال والأنهار تطلان على دنيا من الناس
لكن السماء ، لا تميز البريء من المذنب
وتخلط الصالح بالطالح
الصالحون مساكين ويموتون قبل الأوان
والأشرار أغنياء ويعيشون الى أرذل العمر
الالهة تخاف من الكبراء وتستزلم على الضعفاء
وتدع الشر يأخذ كامل مجراه

آه أيتها الأرض ! أنت لا تعرفين الطيب من الخبيث
وأنت أيتها السماء تركتيني على هذه الحال
ودموعي تسيل على خدي

الجلاد : اقطعوا الطريق .. تأخرنا
دو أ : القيود في معصمي تجعلني رقيباً على هذا الدرب وذاك
والناس يتزاحمون عليّ من ورائي وقدامي
هل تصنع لي معروف أيها الأخ ؟
الجلاد: ماذا تريدين ؟
دو أ : إذا أخذتني من الدرب الأمامي سأحقد عليك
وإذا أخذتني من الدرب الخلفي سأموت قانعة
وأرجوك لا تحسبني كاملة الارادة
الجلاد : أنت الآن في الطريق الى الاعدام . هل تريدين رؤية أحد من أقربائك ؟
دو أ : أنا في طريقي الى الموت ماذا أريد من أقربائي
الجلاد : فلماذا تريدين أخذك الى الدرب الخلفي :
دو أ :
لا تقتادوني من الشارع الأمامي أيها الأخ
ولكن خذني من الشارع الخلفي
فربما رأتني حماتي اذا مررت من الجهة الأخرى
الجلاد : لن يمكنك الافلات من الموت فلماذا تهتمين لذلك :
دو أ : اذا رأتني حماتي أقاد في السلاسل الى ساحة الاعدام سوف تنفجر من السخط
سوف تنفجر من السخط
أرجوك يا أخي تمنحني هذه الراحة . انني أموت
(تدخل السيدة تساي)
السيدة تساي : آه يا سماء . اليست هذه كنتي : سأموت من بعدك

الجلاد : ارجعي الى الوراء آيتها الحيزبون .
دو أ : دعها تقترب حتى أقول لها بعض الكلمات .
الجلاد : هيه أيها الحيزبون تعالي هنا . كنتك تريد تكلمك .
السيدة تساي : صبيتي المسكينة . هذا موتي أنا .
دو أ : يا آمي حين ساءت حالتك الصحية وطلبت حساءكروش الغنم طبخته لك. الحمار تشانغ طلب مني أجلب له الملح والخل حتى يسمم الحساء . لم يعرف ان والده سيشرب منه . لقد سمم الحساء حتى يقتلك ثم يجبرني على الزواج منه لم يخطر على باله أن والده سيموت بدلاً منك . وحتى يثأر مني أخذني الى المحكمة . ولأني لا أريد أن تتعذبي اعترفت بالقتل . وها أنا في طريقي الى الموت . فيما بعد اذا طبخت عصيدة فاتركي لي منها شيء . واذا وفرت نقود ورقية فاحرقي بعضها لأجل ابنك الراحل .

ترحمي على من يموت بدون حق
ترحمي على من سينفصل رأسه عن بدنه
ترحمي على من قد اشتغل معك في منزلك
ترحمي على من ليس له أم ولا أب
ترحمي على من خدمك كل هذه السنين
وفي الأعياد قدمي لروحي صحناً من العصيدة الباردة

السيدة تساي (تبكي) : لا تهتمي . آه انا التي ستموت .
دو أ :
احرقي بعض النقود الورقية لجثتي المقطوعة الرأس
لأجل ابنك الراحل
نولول ونشكو الى السماء
أين العدالة ؟ دو أ ذبحوها بغير حق !
الجلاد : ارجعي الى الوراء أيها الحيزبون . فقد حان الوقت.

(دو أ تركع على ركبتيها والجلاد ينزع الساجور من رقبتها)

دو أ: أريد أقول ثلاث أشياء يا حضرة الضابط اذا حققتها سأموت مطمئنة .

أريد حصير نظيف وعلم أبيض من الحرير طوله ١٢ قدم يرفع فوق السارية حتى لا تتلوث الأرض بقطرة دم حارة مني حين تضربون عنقي . هذا هو أشد أيام القيظ يا سيدي . لكن الثلج سينزل ويغطي جثماني الى سمك ثلاثة أشبار اذا كنت مظلومة ومن بعدها ستكون ثلاث سنوات عجاف لا ترى فيها هذه الناحية قطرة ماء .

الجلاد : اخرسي . ماذا تقولين ؟

(يلوّح بعلمه)

دو أ:

المرأة الخرساء تتهم بتسميم نفسها

الجاموسة تضرب بالسوط وهي تكدح لصاحبها

الجلاد : لماذا غيمت فجأة ؟ .. هي تثلج (يركع للسماء)

دو أ :

يوماً ما ، سبب تسويان* نزول الصقيع

هاهو الثلج يكشف الظلم الذي يرتكب بحقي

(الجلاد يضرب عنقها والمستخدم ينظر الى بدنها)

الجلاد : ضربة ممتازة .. لنذهب الآن ونشرب

(المستخدم ينود برأسه ثم يحمل الجثة من مكانها).

هوامش

* داي فو : هو الطبيب في الصيني . وبه يخاطب وليس بلقب دكتور الشائع في الغرب .

(١) هل أكلت : صيغة تحية عند أهل الصين .ولا يقصد بها الأكل وإنما الدلالة على الخير . وقد اكتسبت العبارة هذه الدلالة من المجاعات التي عاشها الصينيون قبل تأسيس جمهورية ماو الشيوعية . والتحية لم تعد متداولة في الوقت الحاضر .

- تشو ون جيون . أميرة أرملة عشقت العالم سيما سيانغ رون وهربت معه الى مقاطعة نائية . وكان العالم فقير ففتحت حانة واشتغلت فيها . من أسرة الهان .

- منغ غوان زوجة الشاعر ليانغ هونغ الذي كان يهجو أهل الدولة فاضطر الى الهجرة حيث عاش مع زوجته التي كانت تحبه حباً جماً وتحملت معه مشاق الغربة .

- مات ألوف الرجال ممن سخرهم الامبراطور الشرانعي شي هوانغ دي لبناء السور العظيم . وتقول الحكاية أن زوجة أحد هؤلاء المسخرين وهي منغ جيانغ نيوي ناحت عليه حتى تفتت أجزاء من السور من دموعها .

- هرب رجل مطلوب في دويلة تشو (الربيع والخريف) ومر في مهربه بامرأة كانت تشطف الملابس في النهر فعطفت عليه وأطعمته . ولما أراد الانصراف التمسها ان لا تخبر مطارديه عنه . ولكي تطمنه أغرقت نفسها في النهر أمام عينيه ..

- امرأة فارقها زوجها في سفر بعيد ولم يرجع فكانت تصعد كل يوم الى تل تنتظر عودته الى أن تجلمدت وهي على هيئتها . والحكاية كما تبدو لي تتعلق بصخرة متشكلة على شكل امرأة نسج الناس حولها حكاية وفاء .

- تسويان من حقبة الممالك المتحاربة (٤٧٥ - ٢٢١ ق.م) كان من أعوان أميريان المخلصين لكنه سجن بوشاية من عدو ، وسبّب هذا الإجراء الظالم نزول الصقيع في الصيف؟

من سفر التكوين الصيني
قصة الخليقة كما تصورتها قومية بولانغ

قبل أن توجد السماء والأرض وقبل أن يوجد الانسان والنباتات كان العالم عبارة عن سحب سوداء تسبح في الفضاء . فخطر على بال ساحر يدعى جوميا كان له اثنا عشر ولد ان يخلقوا عالم يحتوي على جميع الأشياء . وبدأوا من ثم في البحث عن مواد لبناء هذا العالم .

وكان يوجد في تلك الأيام كركدن عملاق يطوف مع السحب في أرجاء الكون الواسع . ولما اكتشفه جوميا سلخ جلده فصنع منه السماء . ثم جمع الغيوم الجميلة لينسج منها رداء السماء وخلق من عيني الكركدن نجوم نثرها في عرض السماء . أما لحم الكركدن فصنع منه الأرض بينما حول عظامه الى صخور صلدة ودمه الى مياه . ومن شعره خلق الأشجار والأعشاب والأزهار . ثم جاء الى مخ الكركدن فخلق منه رجل وامرأة . وأخذ نخاع العظام فأوجد منها أصناف الطيور والوحوش والزواحف والأسماك .

لما قررجوميا أن يعلق السماء في الفضاء بحث عن وسيلة لاسنادها . وكذلك لاسناد الأرض . فأخذ قوائم الكركدن الأربعة وصنع منها أعمدة وضع كل واحد منها في ركن من أركان السماء الأربعة . ثم جاء بسلحفاة أبت أن تستقر وفكرت في الهروب . ولمنعها من التحرك عين لها ديك ذهبي يراقبها فكان الديك ينقرها من عينيها كلما تململت . لكن الديك أدركه الاعياء والنعاس بمرور الزمان فصارت السلحفاة تنتهز غفلته فتتململ للهرب وسبب ذلك الزلازل . وفكر الناس في حيلة لابقاء الديك متيقظاً فأخذوا يطشون الرز على القيعان . والديك إذا رأى الرز لا ينام .

استقرت الأرض والسماء على الحالة التي صنعها جوميا . وأخذت السحب تمخر عباب الجو والنجوم تتلألأ . وانصرف الناس على الأرض لتدبير حياتهم . وأخذت الطيور تحوم في أجواء الدنيا ،والنحل يمتص

الرحيق من الزهور والأيائل تطوف على قمم الجبال والأسماك تسرح وتمرح في الأنهار والبحيرات .

فرح جوميا وأبنائه بهذا العالم الواسع البهي . لكن الغيرة أكلت قلوب الشموس الشقيقات التسعة والأقمار الأشقاء العشرة ، الذين لم يكونوا مرتاحين لنجاح جوميا . فأرادوا تخريب العالم الذي خلقه ، فجمعوا قواهم وسلطوا أشعة حارة قاتلة على الأرض لتدميرها .

وشيئاً فشيئاً تبددت السحب وخبا وميض النجوم وتصدعت الأرض بسبب الجفاف فهلكت المحصولات وذوت الأزهار والأعشاب والأشجار . وحتى الصخور ذابت . يشهد على ذلك بصمات أقدام الناس والمواشي على جندلة ضخمة فوق جبل الفضة في محافظة جين بي ننغ . وكانت حرارة الشمس اللاهبة قد أحرقت رؤوس السراطين وأقدام وأذيال الضفادع فلم يبق للسرطان رأس ولا للأفعى قدم ولا للضفدع ذيل .

وأراد جوميا أن يتقي ضربة الشمس الحارقة فدهن قبعة المطر الخيزرانية بالشمع لكن الشموس ذوبت الشمع فسال على عينيه وأغلقهما . فأقسم غاضباً .

- لئن لم أدمر الشموس والأقمار فلست جوميا الذي خلق السماء والأرض . ونزل الى الغابة فقطع شجرة ليصنع منها قوساً . ثم اهتدى الى كرمة متينة تصلح لصنع وتر القوس وعيدان خيزران لصنع السهام .وغمر رؤوس السهام في الماء السام من بحيرة التنين وبعدما انتهى من ذلك مشى فوق الصخور الحامية كالجمر وسبح في الأنهار التي يغلي ماؤها وقهر عقبات كثيرة حتى وصل الى أعلى القمم .

كانت الشموس الشقيقات التسعة والأقمار العشرة في أوج الفرح والابتهاج وهم يواصلون تسليط اللهب على الأرض . لكن جوميا اعتلى القمة دون أن يعبأ بالنار. وما أن التقط أنفاسه حتى أطلق سهماً فأصاب احدى الشموس فاهتزت الأرض بالرعود وتدحرجت الشمس قاذفة حممها الى أسفل الجبل . ولما رأت بقية الشموس والأقمار ماحدث

لشقيقتهم ولت هاربة، لكنها عزمت في نفس الوقت على احراق الأرض بأسرها . فاجتمعت لمهاجمة جوميا لكن سهماً وراء الآخر انطلقت من قوس جوميا قضت على معظم الشموس والأقمار فانهمر الدم منها كالمطر فابتلت الأرض وعادت الحياة الى الغلال .. والأعشاب والأشجار الذابلة وأزهرت الأزهار من جديد .

ولم تبق في النهاية الا شمس واحدة وقمر واحد في السماء . ولما رأى هذان أن شقيقاتهما وأشقاءهما لاقوا حتفهم تملكهم الخوف وأسرعا يعبران السماء .

حل الانهاك والتعب في جوميا . ولم تعد ذراعاه قويتين بما يكفي . بيد أن غضبه لم يهدأ . وبعد جهد جهيد شد سهماً الى قوسه وأطلقه على القمر الأخير لكن أخطأ الهدف بسبب وهن ذراعيه وسرعة طيران القمر . ورغم ذلك مر السهم قريباً من القمر الذي ارتعد من الخوف . ولاذ بالفرار . وهكذا حلقت الشمس والقمر بعيداً لتحاشي سهام جوميا ثم اختفيا في مكان مجهول .

على أن اختفاء الشمس والقمر أغرق الأرض في البرد والظلمة . وتوقفت الأنهار عن الجريان واضطر الناس الى وضع فوانيس على رؤوس ثيرانهم عند الحراثة واستخدام عكاكيز خيزرانية مذهبة لئلا تزل أقدامهم عند السير . فكان على جوميا أن يسعى لاسترداد الشمس والقمر الهاربين فأرسل سنونوة للبحث عنهما . فعادت إليه لتخبره انهما يختبئان في كهف في الركن الشرقي من السماء . فدعا جوميا الوحوش والطيور الى اجتماع للمناقشة في سبيل اعادة الشمس والقمر وأعرب المجتمعون عن استعدادهم لتحمل مشاق الرحلة الطويلة الى الشرق لاقناع الشمس والقمر بالعودة . وقد شذت عن الاجماع الحجلتان البيضاء الرأس والسوداء الذيل صبغت السوداء ذيلها بالحمرة وقالت :

– أنا سقيمة . انظروا الى ذيلي ، لا أستطيع الطيران وريشي ملطخ بالدم . وصبغت البيضاء رأسها بالبياض وقالت :

– مات أبي وأمي منذ أيام ومازلت أرتدي الحداد عليهما فلا

يمكنني الخروج من البيت في هذا الوقت.

انطلقت الحيوانات الأخرى تبحث عن الشمس والقمر في أقاصي السماء . وكانت الطيور بقيادة الديك بسبب صوته الجميل العالي . أما الدواب فقادها الخنزير البري لأنه أقواها وأشدها جرأة . ولم يرافقهم جوميا لئلا يستفز الشمس والقمر الخائفين منه .

كان الهاربان قد تزوجا في مخبئهما ولكن القلق اعتراهما لنقص الزاد هناك . وفكرا في الرجوع الى الأرض لولا انهما تخوفا من سهام جوميا .وتملكهما الحزن فاحتضنا بعضهما وهما يبكيان . وفي هذه الأثناء سمعا صخب شديد خارج الكهف . فازداد فزعهما ولاذا بركن خفي داخل الكهف . لكن الصخب أخذ بالاقتراب . وعند مدخل الكهف تناهت إليهما صيحات تنادي عليهما بالخروج .وكان ذلك نداء المخلوقات التي جاءت لكي تترضاهما . لكنهما لم يثقا بالنداء فلم يردا عليه . فطلب الديك من المخلوقات أن تهدأ . ولما عم السكون نفش ريشه ومد عنقه ونادى بصوته الجهوري :

اخرجي أيتها الشمس الخفية
وتألق أيها البدر البعيد
نحن لا نقوى على العيش بلا
قمر زاه ولا شمس مضيّه

كان الديك في غاية الجد والحزم وصوته كان ودوداً وأميناً فتطامن رعب الشمس والقمر وردا عليه في انكسار :

كيف نقوى على الخروج وجوميا
حاملٌ قوسه الشديد القويا
قد أضرت بنا المجاعة حتى
لم نعد نبصر الطريق السويا

ورددت المخلوقات المحتشدة حول الكهف بصوت واحد :

هو جوميا يريدكم

لا تخافا وتجزعا
ولكم عهد شافما
ان تصحا وتشبعا
(شافما بنت جوميا)

لكن الشمس والقمر لم يثقا بهذا الوعد . وهنا تدخل الديك وقال لهما :

- سأتولى أنا شخصياً حمايتكما . فلا تخرجا إلا حين تسمعان صياحي . وإذا بقيت صامتاً فابقيا حيث أنتما .

ولكي يثقا به قطع الديك عقدة خشب الى نصفين رمى بنصف الى داخل الكهف والصق النصف الآخر برأسه . وكان هذا هو عرف الديك الذي يتميز به عن سائر المخلوقات . وهذا هو السبب الذي من أجله يصيح الديك عند الفجر لأنه استمر يتولى هذه المهمة وهي ايقاظ الشمس . في نفس الوقت تعهدت شافما باطعام الشمس والقمر فصارت تظهر عند الفجر صبية فاتنة وعند الظهر فتاة بضة وفي المساء عجوز شمطاء وهي تحمل الذهب المصهور الى الشمس والفضة المصهورة الى القمر حتى تمدهما بأسباب البقاء .

وصدر أمر جوميا ، بعد مفاوضات مع الديك ، بأن تخرج الشمس في النهار والقمر في الليل مع السماح لهما بالالتقاء في الكهف في اليوم الأول واليوم الأخير من كل شهر .

كان قرار جوميا بخروج الشمس في النهار يرجع الى شدة خوفها من الظلام . كما انه لما رأى شدة حيائها زودها بأشعة تشبه الابر تسلطها على العيون حتى لا يتجرأ أحد على التحديق فيها .

وهكذا تم الاتفاق النهائي ووافق الجميع عليه . فخرجت الشمس أولاً ثم تبعها القمر صانعين بذلك النهار والليل . وعم النور والدفء كل مكان على الأرض . ولما أضاءت الشمس ذروة الجبل بدأت جميع الحيوانات تهلل من الفرح . ولما القت بضوئها على الغابة أخذت جميع الطيور بالصداح .وعندما سطعت فوق البحار والأنهار راحت الأسماك

تغوص وتظهر في الماء من شدة ابتهاجها . كما أصلح الشباب محاريثهم والعجائز مغازلهن وانطلق الشبان الى الحقول ليزرعوا ، والفتيات الى الجبال للاحتطاب . أما الصبيان فأخذوا مواشيهم الى المروج . وفي الليل حينما غمرت أشعة القمر المتلالئة العالم بالنور الفضي شرع المسنون يحكون الحكايات اللطيفة والشباب يعزفون على المزامير ويداعبون المزاهر ذات الوترين .

– ترجمة دار النشر باللغات الأجنبية عن الأصل الصيني . والسرد العربي مشترك بيني وبين زكريا الشريقي سفير سوريا السابق في بيجينغ .

حكايات

– كيف صار لي باي شاعر ؟

كان شاعر الصين الأعظم لي باي تلميذ كسول لا يحب الدراسة ويتهرب من المدرسة – فحدث أن مر برجل فقير ينحت قضيب حديد شديد الغلاظة والخشونة . فسأله عما يصنع فأجاب: اصنع إبرة ! فارتاع لي باي وسأله : كيف تصنع ابرة من قضيب حديد ؟ فقال : أنحت كل يوم شطيطة منه . وأصبر عليه أيام وليالي وشهور حتى يستدق ويصير في قطر الإبرة . فرجع لي باي الى منزله وقد تغير تفكيره كلياً . وانكب على الدراسة حتى صار أعظم شعراء الصين !

– حكاية خمر الأفعى :

كان لي بو ساقي في حانة كبيرة . فطلب منه معلمه أن يذهب الى المخزن لجلب المزيد من الخمور بعد أن نفد موجودها في الحانة . ولما فتح لي بو بوابة المخزن صاح صيحة جنونية وراح يركض في الزقاق وينادي : جيو ! جيوا ! (الغوث! الغوث) : لقد وقع نظره على ثعبان هائل ذيله في سقف المخزن ورأسه في احدى خوابي الخمر . ولما عاد لي بو الى المخزن ومعه الناس رأى الثعبان وقد تكوم كله في الخابية . وتشجع

لي بو بحضور الناس فحمل أجرة ثقيلة وسكّر بها فوهة الخابية وخرج الناس وأخذ هو مطلوبه من الخمور من خوابي أخرى وخرج) .

بقيت الآجرة تغطي الخابية سنة كاملة . وفكر لي بو : هل من المعقول ان الثعبان لايزال حي؟ كلا ! لا أظن ! وتقدم على مهل نحو الخابية المغلقة وبيد مرتجفة زحزح عنها الآجرة فإذا بالثعبان نصف مهترئ . وإذا بالخمر وقد تحول لونه الى أحمر قاتم . فأعاد الآجرة الى مكانها . ولم يأخذ من الخابية شيء .

كان هناك بلطجي مصاب بمرض في المفاصل جعله شبه مقعد . وقد سماه أهل الحانة أولاي . وأولاي تعني الوغد .وكان يأتي الى الحانة فيسترزلم على لي بو ومعلمه ويشرب دون أن يدفع . وجاءه يوماً فعزم أن يسقيه من ذلك الخمر فقدم له طاسة مملوءة به . فلما كرعها طاح وفقد الحس . فجره لي بو الى خرابة مجاورة والقاه فيها . وفي اليوم التالي عاد ليرى جثته واذا به ينهض ويقول مادحاً لي بو : خاو جيو ! خاو جيو ! (خمر طيب .. خمر طيب) . وفطن لي بو للقضية فهذا الخمر الذي امتزج بسم الأفعى طيلة سنة كاملة قد صار دواء لمرضى المفاصل . وكان والده من هؤلاء . فأخذ له طاسة منه وسقاه اياها فأنهضته من عقاله . وكتم لي بو الأمر عن معلمه وصار يوزع من الدواء الجديد سراً على الفقراء المصابين بداء المفاصل مجاناً .ولكن بعد وقت بلغ الخبر صاحب الحانة فوضع يده على الخابية وأخذ يبيع منها للمحتاجين من الأغنياء بأسعار عالية ...

قلت : إن استعمال الأفاعي والعقارب للتداوي مألوف في الصين . وهم يجففون العقارب لهذا الغرض ويصنعونها للمرضى المصابين بالروماتزم واللقوة وما أشبه . وتغلى العقرب في ماء عادي ويشرب الماء بعد تبريده فيكون نافع لعلاج هذه الأدواء .

- المصادفة التي أنقذت بلد من الغزو :

كانت قوات احدى الدويلات في حقبة الأسرات الخمسة متوجهة لغزو دويلة أخرى لضمها . وفي الطريق صادفها تاجر قادم من الدويلة المستهدفة بالغزو . ولم يكن التاجر يعرف الى أين يذهب الجيش وماهو غرضه . وكان يحمل معه تموينات غذائية وتحف غالية الأثمان . فسأل عن قائد الجيش فقادوه اليه . فعرفه بنفسه وبالدولة التي جاء منها . وجرى بينهما حديث ودي والتاجر لا يدري ماذا يريد القائد لكن القائد كان في الحقيقة يستهدف الاطلاع على بعض الأمور من التاجر دون أن يبوح له بوجهته. وفي ختام اللقاء قدم له التاجر هدية منتقاة مما كان معه في قافلته . فتقبلها القائد شاكراً . وأوعز عندئذ الى قواته بالعودة الى مواقعها بعد أن قرر الغاء الحملة . وكل ذلك والتاجر لا يدري بالسر . أما السبب الذي حمل القائد على قرار التراجع فهو انه ظن بأن التاجر مبعوث من ملك تلك الدويلة ليقدم الجزية للدولة الغازية . وقد تقبل القائد هدية التاجر باعتبارها جزية وعاد من حيث أتى ! وتفرق الطرفان والتاجر لا يدري ...

- من الأجوبة المسكتة :

كان يان تسه من مملكة تشي ، احدى الممالك المتحاربة في الحقبة المسماة بها ، أرسلته دولته في مهمة الى مملكة تشو ، المخاصمة لها . وبلغ ملك تشو أن يان تسه رجل شديد القصر ففكر في اهانته فأوعز الى حارس السور أن يفتح له باب صغيرعلى يمين البوابة ليدخل منها . وكانت تكفي بالكاد لشخص واحد . وامتثل الحارس للأمر ففتح له الباب الصغير عند وصوله الى مدخل المدينة ودعاه الى الدخول ، فقال له يان تسه :

فقط عندما يذهب انسان الى مملكة الكلاب يتعين عليه أن يدخل من ثقب الكلاب. وأنا اليوم جئت مبعوثاً الى مملكة تشو فلماذا يتعين عليّ المرور من الثقب؟ وسقط في يد الحارس ففتح له البوابة ليدخل منها .

لما استقبل ملك تشو يان تسه سأله الملك : يظهر أن مملكة تشي ليس فيها بشر !

فرد عليه يان تسه :

إن عاصمة تشي تضم سبعة أو ثمانية آلاف عائلة ، ولو انهم مشوا في الشارع في وقت واحد ورفعوا أكمامهم لحجبوا نور الشمس . ولو تصبب العرق منهم لخلت السماء قد أمطرت وابلاً . فأنى لك أن تقول أن مملكة تشي ليس فيها بشر ؟

فقال الملك : إذا كان لدى مملكة تشي هذا العدد من السكان فلماذا اختاروا مثلك لهذه المهمة؟

فرد يان تسه:

إن مملكتنا تتبع مبدأ ثابت في اختيار مندوبيها وهو أن يكون مطابق للدولة التي يرسل اليها . فإذا كان ملك تلك الدولة قديراً موهوباً أرسلوا اليه سفيراً في مثل قدرته وموهبته . وإن كان الملك لا يملك هذه القدرة والموهبة أرسلوا اليه مندوباً مثله عديم القدرة والموهبة . وأنا رجل عديم الشأن فلذلك أوفدوني الى مملكتكم .

وإذ لم تنجح محاولات ملك تشو في تحقير يان تسه فكر في وسيلة أخرى . فدعاه ذات يوم الى مأدبة، ولما سكر الحاضرون كلهم اذا برجلين من الحرس يدخلون القاعة ويطلبون القبض على يان تسه . وسألهم الملك متصنعاً الدهشة :

ماذا فعل هذا الرجل ؟

فرد الحرس :

هذا لص . فهو من أبناء دولة تشي .

ولما سمع الملك ذلك التفت الى يان تسه وقال متضاحكاً :

كيف ، يا أبناء دولة تشي هل حقاً مايقال أنكم هواة لصوصية ؟

رد يان تسه دون أن يتزحزح من مكانه :

بلغني أيها الملك أن شجر البرتقال في جنوب نهرهْواي خه ينمو بوفرة ويعطي ثماراً حلوة وعبقة. فإذا جئنا الى شمال النهر وجدناه حامضاً ومراً . والسبب يرجع الى الماء والتربة. وكذلك نحن أبناء دولة تشي ، لم يسبق لنا أن سرقنا شيئاً من أحد ، ولكن عندما نصل الى

مملكة تشو نتحول الى سراق . والسبب يرجع الى الماء والتربة .
وهكذا أراد الملك أن يضرب بان تسه بحجر فسقط الحجر على قدمه وهشمها .

العالم الحق يبقى تلميذاً

نص للكاتب التانغي هان يْوي

كان لكل عالم من القدماء شيوخه لأن العلم يأتي أولاً من الشيخ(١) فعليه يتخرج طالب العلم ومنه يتلقى الأجوبة على أسئلته فيما لا يعلمه إن الانسان يولد جاهلاً ، وعندما ينشأ ويحصل عنده التمييز تحصل لديه أسئلة كُثْر . فإذا هو أبى أن يسأل شيخه فلابد أن يبقى في الجهالة دهره(٢) .

إن من هم أسن مني قد عرفوا مالم أعرفه بعد فلا مناص لي من الدراسة عليهم ، والتتلمذ لهم ، أما الذين هم أصغر مني سناً فلعلهم عرفوا أموراً لا أعرفها فينبغي علي سؤالهم أيضاً . ومادمت أسعى وراء العلم فينبغي علي الأخذ من أهل العلم صغاراً كانوا أم كباراً . وذلك أن أي انسان يصلح أن يكون معلماً اذا كانت له مشاركة في العلوم .

ليس يسيراً على الانسان ان يشفى من الجهل اذا لم ينل عوناً من معلم .غير أن أهل زماننا يأنفون من التعلم، كان الحكماء الأوائل يسألون سواهم عما يجهلون مع أنهم كانوا أعلم وأعلى حكمة وفطنة من عامة الناس . أما أهل زماننا فيعدون السؤال عيباً ، ومع أنهم لا ينعمون بنفس الحكمة والفطانة فهم يأنفون من الطلب . وعلى هذا كان الحكماء الأوائل يزدادون حكمة وعلماً في كل يوم بينما يزداد جهلاؤنا جهلاً وحمقاً على مر الدهر . وهذا هو في معتقدي سر انقسام الناس الى عاقل وجاهل .

من غرائب الأمور أن نجد أكثر الناس يحبون أبناءهم فيرسلونهم الى المدارس لتلقي العلم من المعلمين . أما هم فيعدون التعلم عيباً عليهم

ان أهل العلم والمعرفة لا يستحيي أحدهم أن يتعلم من الآخر . وبخلافهم أهل السلطان وأرباب الشرف ممن يأنفون أن ينزل أحدهم الى درجة التلميذ . فإن سألتهم عن سبب ذلك قالوا أنى لمن هو في عمرك أن يكون أستاذاً لك ؟ ثم أنهم يعدون من العيب أن يتتلمذ شريف لوضيع . أما إن تتلمذ الوضيع للشريف فهذا من باب الملق وطلب الزلفى . ألا تعجب من هؤلاء الكبراء كيف يتيه أحدهم على أهل المعرفة بينما هم في حقيقة الحال ناقصو العقول اذا ماقيسوا بهم ؟

إن العاقل يتعلم من غيره مهما كان وأينما كان . ولقد تعلم كونفشيوس من أمثال تان تسي وتشانغ هونغ وشي شانغ وماهم بأعلم ولا أحكم منه . وكان يقول أن بين كل ثلاثة أشخاص شخصاً واحداً يصلح أن يكون شيخاً له . وهكذا ليس من اللازم أن يكون التلميذ أدنى حالاً من الأستاذ أو أن يكون الأستاذ أرفع رتبة من تلميذه . وذلك ان الناس يتفاوتون في العلم فمنهم السابق ومنهم اللاحق ومنهم من يستقل بعلم لا يعلمه غيره بينما يجهل هو أموراً أخرى معلومة لسواه . ولأجل هذا الاختلاف بين الناس وجب عليهم أن يتعلموا من بعضهم .

لي بان فتى من الأكياس عمره سبع عشرة سنة يحب أن يقرأ كتب الأقدمين . وقد أتقن ستة منها . ويتتلمذ لي بتواضع خلافاً لأقرانه . ولقد أعجبتني شمائله فكتبت هذه المقالة اكراماً له . انتهى

ترجمه عن الصينية تلميذي ليو تشانغ تجينغ .

* قارن قول المتصوفة : من لا شيخ له فشيخه الشيطان . وهذه تمسك بها رينان للزعم بأن الساميين لا عقول لهم ، ذلك أنه لم يتابع المنهج عند الصوفية الذين تحدثوا عن مرحلة الفطام ، حسب تعبير عبد القادر الجيلي . والفطام هو التخرج حيث يستقل المريد عن الشيخ ويتوقف عن اتباعه . والقضية هي تفضيل التعليم المنظم على التعلم الذاتي . ومن هنا منشأ المدارس والجامعات .

حول تأكيد هان يوي دور السؤال في التعلم نقرأ هذا البيت من

شعرنا القديم :

شفاء العمى طول السؤال وإنما
بقاء العمى طول السكوت على الجهل

حول التعلم دون اعتبار لشيء آخر ، يرد هذا الحديث المنسوب الى النبي :

ليس الملق من أخلاق المؤمن إلا في طلب العلم .

مختارات من كتاب الأغاني

– صمود الأب وغلاء البنت

الدروب مبللة بالندى
ولا مناص برغم هذا من الخروج قبل الفجر
ولماذا أخاف السير في وابل الطل ؟
من قال أن العصفور ليس له منقار ؟
فكيف اذن تمكن من اختراق سطحنا ؟
من قال أن ابنتي لا عريس لها ؟
ولماذا تريد القائي في السجن ؟
وحتى لو القيتني في السجن
فليس بوسعك ضمها الى عيالك
ولماذا تريد أخذي الى المحكمة ؟
وحتى لو أخذتني الى المحكمة
فلن ألبي لك مطلباً

– الحاجز المحرم

هناك في البرية يرقد ايل ميت
تغطيه أغصان الأسل
وفتاة تصبو الى الحب
وثمت غندور يراودها

في الأجمة أدغال
وفي البرية غزال ميت
ملفوف بأغصان الأسل
والفتاة حلوة كاليشب

آه ناعمة أنا اليوم ورقيقة
فلا تلمس وشاحي
حذار ! وإلا نبحتك الكلاب

* فيا دارها بالخيف ان مزارها
قريب ولكن دون ذلك أهوال

– جور الاقطاع

طليقاً يعوم زورق الغابة الحزين
فوق المياه الدافقة
وعيوني مفتوحة وسط السهاد
ما أثقلت فؤادي لواعجُ الغم
لأني لا أملك خمراً أشربها
أو لأني لا أجد مكاناً أتنزه فيه
فؤادي ليس كمرآة البرونز
تمتص صور جميع الأشياء
لدي أخوة صغار وإخوة كبار
ولا من واحد يمكن التعويل عليه
ويمنعني الشرف والتكرم
من الخضوع أو الإحجام

* ابت لي عفتي واباءُ نفسي
وإقدامي على البطل المُشيحِ

وإنفاقي على المكروه مالي
واخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانَك ا تُحمدي او تستريحي

– من بعيد

تُشرع السنونوات أجنحتها للطيران
قصيرة وطويلة ريشاتها
ونحو المنزل تمضي العاتكة
من وراء الحقول رأيتها تبتعد
وما زلت أتلفت نحوها حتى توارت
فهطلت دموعي كالوابل

* وتلفتت عيني فمذ خفيت
عني الطلول تلفَّت القلب

ومما شجاني انها يوم اعرضت
تولت ودمع العين في الجفن حائرٌ
فلما اعادت من بعيدٍ بنظرةٍ
إليّ التفاتاً اسْلمته المحاجرُ

– جور الاقطاع

اقترب الغسق
اقترب الغسق
لمَ لا نعود الى منزلنا ؟
لو أنها لم تكن سخرة للسيد
هل كنا سنكابد هذا الندى الثقيل ؟
اقترب الغسق
اقترب الغسق
لم لا نعود الى المنزل ؟

لو أنها لم تكن من أجل شخص السيد
هل كنا سنكدح في الأوحال ؟

* ألم تر للأيام ماجر جورها
على الناس من نقصٍ وطول شتات
ومن دول المستهزئين ومَن بهم
غدا طالباً للنور في الظلمات ؟

– حب ..
كنا سنلتقي عند برج السور
لكني لم أراها
فوقفت حيراناً أحك برأسي
محبوبة ومكتملة
قدمت لي نصلاً من حشيش أحمر
فنعمت بالنظر الى حسنها
تعطيني من المروج برعماً
جميلاً ونادراً
لكنه ليس البرعم هو ما أحبه
بل التي قدمته لي

* وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا
– حسناء
تتمنى العيش مع سيدها حتى الممات
فلذلك تضع الأكليل ذو الجواهر الستة
فتبدو رشيقة جذابة
مثل جبال مهيبة وأنهار جارية
وفستانها الملون ملائم لقدها

لكن القدر سيء
ويا للحظ التعيس

لامعاً وبهياً
ريش الحجل في بدلتها
شعرها الأسود كالكهرمان يشبه الغمام
هل هي في حاجة الى شعر مستعار ؟
اقراطها من اليشب
راسها مطوق بالعاج
جبينها العريض رائع المنظر
لماذا تذهب الى السماء ؟
لماذا تقدم نفسها الى الآلهة؟
فاتنة ومتألقة
ثيابها الاحتفالية البيضاء كالثلج
وفوق ردائها الحريري
تلبس فستاناً داخلياً على قدها
براقة مثل الشرر عيناها
وعريضة حواجبها
حقاً ، ليس إلا غندورة مثلها
يمكن ان يكون لها مثل هذا الحسن
* قارن : نشيد الإنشاد .. القصيدة الدعدية

– امرأة ..
اركب واخب
حاملة الكلمات المريحة الى سيد وَي
أهمز حصاني حتى يسرع
الى مدينة تْساو
وإن يكن كثيراً على المسنين ان يقوموا برحلة طويلة .

وقلبي مضطرب

قد تقف في وجهي
لكني لن أرجع ،
خطتي أبعد مدى
من مشروعك العقيم

قد تقف في وجهي
لكنك لن تستطيع ايقافي
خطتي أحسن تدبيراً
من مشروعك العقيم

أتسلق رابية منحدرة
لألتقط زنابق بسيطة
مع أن المرأة سهلة الإثارة
فهي تدري ماهو الصواب
يلومني رجال شو
يا للمعتوهين الكبار !

أتمشى في الحقول
كثيفة وخضراء تنمو الحنطة
ويلزمنا طلب العون من دولة مقتدرة
من يشعر بأوجاعنا سيقدم لنا العون
المستشارون والنبلاء

الذنب ليس ذنبه
جميع مشروعاتك المئة

لا تُعدّ شيئاً تجاه ما سأفعله !

* الشعر على لسان امرأة من دويلة وي . كانت الدويلة قد احتلت عام ٦٦٠ ق.م من طرف قبيلة دي فلجأ حكامها الى مدينة تساو وأقاموا هناك كياناً لهم . وكانت شقيقة الحاكم المسماة مو قد توجهت لنشدان المساعدة من دول أخرى . وفي طريقها مرت بدويلة شو التي وقفت في وجهها وأرسلت مستشاريها الى تساو لعرقلة خطتها .

– جماليات امرأة

السيدة العبلة ضخمة وفارعة
فوق حلة الحرير تلبس جلباباً
ابنة أمير تشي
هي الآن عروس امير وَي ، أميرنا
الأخت الصغرى لولي عهد تشي
كنة وجيه شينغ
أما وجيه تان فهو شقيق زوجها
أناملها مثل عشبة رقيقة
بشرتها بيضاء صقيلة مثل شحم الخنزير
جيدها طويل وناعم مثل يرقة القَرنْبى(١)
أسنانها منضودة بيضاء مثل حب الشمام
راسها مكتمل ومربع ، حواجبها طويلة ومقوسة
ابتسامتها ترسم غمازتين حول فمها
عيونها الحوراء بيّنة الحور

* تكشف هذه القصيدة عن بعض جماليات المرأة عند قدماء الصينيين . ومن الغريب فيها وصف الرأس بالتربيع وتشبيه بياض العنق بيرقة القَرنْبى . وهي الخنفساء الطويلة القرنين !

– تحذير وعبرة ... للنساء

مخلوق بسيط مغمور في البسمات

يجلب الثياب ليبادلها بالريش
ليس في الحقيقة بقصد الريش
رأيتك عابراً من تشي
البعيدة مثل دون تشيو
لست أنا التي أردت المناجشة فيها
لكنك لم تعثر على الخطّابة الملائمة
أتضرع اليك أن لا تغضب
وأن تجعل الخريف موعداً
تسلقت سور المدينة
أترقب عودتك الى الممر
ولما لم تعود
انهمرت دموعي كالوابل
ثم رأيتك قادماً
فضحكت وتكلمت بأسعد ما أكون
أنت قرأت دروع السلاحف وأوراق الشجر
فلم تجد فيها فالاً مشئوماً
فجئت مع عربتك
وأخذتني مع جهازي
قبل أن ينفض التوت أوراقه
كم هي خضراء وطرية كانت
آه أيتها البطة - السلحفاة
لا تأكلي التوت
آه أيتها البنات
لا تمارسن التمتع مع الرجال
يمكن للرجل أن يأخذ لذاته
ويذهب بها معه
لكن البنت

يستحيل عليها أن تذهب ولذتها معها .

- لمن أتزين ؟ التجنيد

شجاع هو بو

بطل في دولتنا

وفي يده مزراقة

يقاتل في طليعة الملك

من يوم ذهب بو الى الشرق

وشعري أشعث مثل الأشواك في مهب الهواء

ولكن لمن أتزين ؟

خليها تمطر ! خليها تمطر

ولكن بدلاً من شروق الشمس

تظل عيني تَرْبي الى بو

دون التفات لرأسي الذي يحكني

من أين أجد عشبة السلوان ؟

لكي أزرعها حول الدار ؟

تظل عيني تَربي الى بو

ولو أنها توهن قلبي بالسقام

* زوجة جندي في عهد عمر بن الخطاب :

لقد طال هذا الليل وازورّ جانبه

وأرقني أن لا خليلٌ ألاعبه

فو الله لولا الله لا رب غيره

لزُعزع من هذا السرير جوانبه

وكان عمر قد سمعها تنشد ذلك ليلاً أثناء طوافه في المدينة فأصدر قراره باعطاء اجازات للمقاتلين كل ستة أشهر ، وعندما ابتعدت جبهة الفتوحات أكثر صار يرسل مع المقاتلين زوجاتهم.. وقد أوقف العمل بهذا القرار في أيام معاوية . فقال جندي يخاطبه :

معاوي أما أن تجهز أهلنا
إلينا وإما أن نؤوب معاويا
أأجمرتنا إجمار كسرى جنوده
ومنيتنا حتى نسينا الأمانيا ؟

دليل الحب فقط

سفرجلة رمتها إلي
قلادة يشب قدمتها إليها
ليس ذلك على سبيل المكافأة
إنما لأظهر لها حبي الأبدي
دُراقة رمتها إلي
قلادة جوهر قدمتها إليها
ليس ذلك على سبيل المكافأة
إنما لأظهر لها حبي الأبدي
برقوقة رمتها إلي
قلادة زبرجد قدمتها إليها
ليس ذلك على سبيل المكافأة
إنما لأريها حبي الأبدي

- التجنيد مرة أخرى

زوجي في الخدمة
لأي وقت ؟ لا أحد يدري
اوه ، متى يعود
الطيور تجثم في أوكارها
يوم آخر يمر
تعود المواشي الى اسفل التل
لكن زوجي في الخدمة
وكيف لي أن أسلو عنه ؟
زوجي في الخدمة

تتوالى الأيام والشهور
اوه متى يكون في بيتي مرة أخرى ؟
جاءت الطيور الى أعشاشها
ويوم آخر قد مر
القطعان عادت الى الحظيرة
لكن زوجي في الخدمة
عطشان ، من يدري ، جوعان ..

احذر يا تجونغ زه

أرجوك يا تجونغ زه
لا تنزل الى ساحتنا
لا تكسر صفصافنا
ليس هذا لأني أهتم بالصفصاف
بل لأني أخاف من أبي وأمي
أجل ! بقدر ما أحبك
أخاف من كلام الوالدين
أرجوك يا تجونغ زه
لا تتسور جدارنا
لا تكسر توتاتنا
ليس هذا لأني أهتم بالتوت
بل أني أخاف من اخوتي
أجل ! بقدر ما أحبك
أخاف من كلام أخوتي
أرجوك يا تجونغ زه
لا تنزل الى حديقتنا
لا تكسر دُردارنا
ليس هذا لأني أهتم بالدردار

لكن لأني أخاف مما سيقوله الناس عني
أجل ! بقدر ما أحبك
أخاف من كلام الناس

*وأشفق من طيف الخيال إذا سرى
مخافة أن يدري به ساكنو نجد

– عاشقة العالِم

أواه أيها العالم أبو الياقة الزرقاء
طال اشتياقي إليك وتطلعي
مع أني لم أتوجه لزيارتك
فلماذا لا تبعث الي ببعض الأخبار ؟
أواه أيها العالم أبو الوشاح الحريري الأزرق
من زمان بعيد أحبك قلبي
مع أني لم أتوجه لزيارتك
فلماذا لا تأتي لتراني ؟
أتخطى هناو هناك
فوق برج السور
وان مر يوم من غير رؤياك
فكأنما مرت ثلاثة أشهر

– السخرة

حفيف ريش الحبارى
وهي تحط على شجر البلوط
سخرة الملك لا توفر لنا أمناً ولا راحة
عسير علي زرع الدخن
ماذا سيأكل أبواي لكي يعيشا !

أيتها السماوات الطيبة! أيتها السماوات الطيبة
متى أجد المتعة في حياتي
حفيف أجنحة الحبارى
وهي تحط على أشجار العليق
سخرة الملك لا توفر لنا أمناً ولا راحة
عسير علي زرع الدخن
على أي شيء سيعتمد أبواي في معيشتهما !
أيها السماوات الطيبة ! أيها السماوات الطيبة
متى ينتهي هذا كله !
حفيف أسراب الحبارى
وهي تحط على أشجار التوت
سخرة الملك لا توفر لنا أمناً ولا راحة
عسير علي زرع الرز
كيف سيحصل أبواي على وجبات طعامهم !
أيها السماوات الطيبة ! أيها السماوات الطيبة
متى تستعيد الحياة أمنها وسلامها ؟

* في طبقات ابن سعد عن أحدهم :

ركبت البريد الى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبت السخرة حتى أتيته ، فقال :

مافعل جناح المسلمين !
قلت : ماجناح المسلمين ؟
قال : البريد
قلت : انقطع في أرض كذا وكذا
قال : فعلى أي شيء أتيتنا ؟
قلت : على السخرة . تسخرت دواب النبط (فلاحي الشام)
فقال : تسخرون في سلطاني ؟

وأمر بي فضربت أربعين سوطاً .
وكانت السخرة قد فرضت في خلافة معاوية واستمرت بعده.

– مذكرات مجند في الشرق
أرسلوني الى التلال الشرقية
الى مكان بعيد بعيد
والآن وفي طريق عودتي من الشرق
يهطل مطر خفيف لطيف
وفي طريقي من الشرق
قلبي يحن الى الغرب
سوف أكتسي زي المزارع
لعلي أن لا أعود ثانية الى الحرب
دودة القز تتلوى وتتقلب
أياماً طويلة فوق أحراج التوت
وأنا ألملم نفسي لكي أنام وحيداً تحت عربتي
أرسلوني الى التلال الشرقية
الى مكان بعيد بعيد
والآن في طريق عودتي من الشرق
يهطل مطر خفيف لطيف
حينما يطير الصافر
ترسل أجنحته وميضاً
ولما جاءت عروستي الى بيتي
كانت خيولها مابين الأبيض والكميت، والأبيض والأدهم
وشدت لها أمها وشاح العرس
وقامت القيامة بالأفراح والطقوس
ان يوم الزفاف هو يوم النعيم
من أين لي أن ألقاها مرة أخرى ؟

– آدم الصيني ممزوجاً بحي بن يقظان
في البدء ، من هو الذي أعطى النسمة لقومنا ؟
انها جيانغ يوان
وكيف أعطت النسمة لقومنا ؟
بالقرابين والصلوات المخلصة
لم يعد ممكناً أن تبقى بدون ولد
مشت على بصمات أقدام الشن
وقفت وحدها في راحة هناك
تأملت ، عاشت في سكينة
فحبلت به وغذته .
وكان هذا هو هوو جي
ولما أكملت شهورها ولدت مايشبه الحَمَل
بدون بكاء ولا ضجيج
بدون ألم ولا أذى
لتظهر قدرة الشن
لكنها خافت أن لا يكون الشن راضياً
وانه لم يتقبل قرابينها وصلواتها
فجاء طفلها على هذه الصورة
وهكذا ألقته في زقاق ضيق
لكن الثيران والخراف حمته وأطعمته
فألقته في غابة عظيمة
ولكن صادف أن جاء الحطابون الى الغابة
فألقته في الجليد البارد
لكن الطيور غطته بأجنحتها
ولما طارت الطيور
شرع هوو جي بالعويل
واستمر عويله وتصاعد
حتى سمعه الناس في الطريق

ثم أخذ الطفل يحبو
قام على قدميه وتعلم
البحث عن الطعام بفمه
وأخذ يُنبت البقول
ونمت البقول حتى اخشوشنت وطالت
وازدهر الدخن
والقنب والحنطة حتى استوت واستغلظت
وترعرع اليقطين
في الحق أن هوو جي عرف الطريق
الى جعل الغلال تنمو جيداً
نظف التربة من الأدغال
بذر الحبوب الصفراء الصالحة.
فنمت في اعتدال واستغلظت
كانت مثقلة وفارعة
ثم تبرعمت وسَنبلت
نمت في ثبات وجودة
بكثافة وامتلاء
وفيما بعد أقام له بيتاً في تاي
وهكذا ظهرت الحبوب المباركة
الدخن الأسود وأبو الفلقتين
الدخن الأحمر والأبيض
بعيداً وعريضاً الدخن الأسود وأبو الفلقتين
حقلاً بعد حقل ترعرع
بعيداً عريضاً الدخن الأسود
كان يحمل بأذرعه ويشيل على ظهره
ويأتي الى البيت ليقدمه قرباناً
ماهي قرابيننا هذه ؟

اننا نقشر الحب ثم نخرجه من المجرشة
ننخله وننعّمه بالدق
نغسله ونفركه
ثم نبخره جيداً
وفيما بعد ، وبعناية شديدة
نقطف من الأرطماسيا ، نحضّر السمن ،
ونسلخ الكبش
ثم نقدده ونشويه
من أجل أن يأتينا محصول وافر في السنة القادمة

* شن : الإله الصيني . في الترجمة الانجليزية GOD وهذا تدخل من المترجم الانكليزي يشوش الايديولوجيا الصينية لأن مفهوم الاله الصيني لايتطابق مع الإله السامي الذي اقتبسه الغربيون من الرسول بولص .

تاي : اسم جبل عالي في الصين

نبخره جيداً : التبخير من وسائل الطبخ عند الصينيين منذ العصور الغابرة ويكون بوضع قدر صغير داخل قدر كبير مملوء بالماء فينضج الطبيخ ببخار القدر الكبير .

الارطماسيا : نبات عطري الأوراق

اضمامه حكم وأمثال من الغابر

- الورقة الخضراء تحجب عنه جبل تاي شان

يضرب لمن تشغله التوافه عن المهمات

- لا تستطيع ولو اربعة خيول أن تطارد كلمة تخرج من الفم

يعني أن الكلمة اذا نطق بها صاحبها لا يمكن محو أثرها

- تحتاج الغابة لكي تنمو الى عشر سنوات لكن تاهيل جيل من الموهوبين يحتاج الى مئة سنة .

- يغطي أذنيه ويسرق الجرس

يضرب لمن يخدع نفسه . ويقابله في العربية مثل النعامة التي تدس رأسها في الرمل حين تحس بالخطر .

- يضرب طائرين بحجر واحد

في العربية : يضرب عصفورين بحجر واحد

- من لدغته الأفعى يخاف من الحبل ثلاث سنوات

من الأمثال البغدادية : الـ عاضته حية يخاف من مسحالها (مسحبها)

- كل محب يرى حبيبته شي شي

شي شي من رموز الجمال في الصين

المثل العربي : القرد بعين أمه غزال

شعر قديم :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدي المساويا

- لكل حكيم هفوة ولكل حصان كبوة

في العربي : لكل أديب هفوة ولكل جواد كبوة .

- للحيطان آذان

نفسه في العربية . وهو من منعكسات شيوع القمع السياسي وماتقوم به أجهزة المخابرات في التجسس على الناس .

- الدرب الطويل اختبار لقوة الحصان والمعاملة الطويلة تختبر قلب الانسان.

في نهج البلاغة : الولايات مضامير الرجال .

يقصد أن تولي المسئولية يكشف المواهب وعدمها

- من يشد الجرس في عنق النمر يفكه

يعني : من يثير مشكلة يتحمل هو مسئولية حلها ..

- عندما يتداعى الجدار يتدافع الناس لاسقاطه

مثل عراقي : الجمل اذا وقع تكثر سكاكينه .

- تجرع النصيحة التي لا تعجبك كما تتجرع الدواء المر .

تأكيد على أهمية الاستشارة وقبول النصائح حتى اذا خالفت المزاج .

- يرسم الأفعى بأرجل

يضرب لمن يفسد عمله بالزوائد الغير ضرورية والغير طبيعية

- العجل الوليد لا يخاف من النمر

يضرب لروح الاقدام في الشباب

- يعلق لحم الخروف ويبيع لحم الكلب

يضرب للغشاش والمرابي

- لا يفسد الماء الجاري ولا تتسوس مفصلة الباب

يضرب للمتحرك الكثير التنقل انه يحافظ على حيويته خلافاً للمستقر الراكد .

من شعرنا القديم :

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه

وانصب فان لذيذ العيش في النَصبِ

أما رأيت ركود الماء يفسده

ان سال طاب وان لم يجر لم يطبِ

- الأخلاق لا فعل لها عند ورود المصلحة

الحسين بن علي

الناس عبيد الدنيا والدين لَعق على ألسنتهم يحوطونه مادرّت معايشهم فاذا مُحصوا بالبلاء قل الديّانون .

- اليشب المكسر أفضل من القرميدة الكاملة

يعني : الموت في عز أفضل من العيش في هوان

المتنبي :

ذل من يغبط الذليل بعيشٍ

رب عيش أخف منه الحمامُ

والشعار الجاهلي المعروف :

النار ولا العار .

- كيف يبقى الشعر إذا زال الجلد ؟

لا يبقى الشيء بدون أصله وقاعدته .

- يذبح الديك لتخويف القرد

مبدأ طبقه زياد بن أبيه في العراق بقتله الأبرياء لارهاب المعارضين .

- طريق السعادة محفوف بالمخاطر

حديث نبوي : حُفّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

- يجلس على التل للتفرج على اقتتال النمرين

في الأمثال العربية : الجلوس على التل أسلم

- كالضفدع في قعر البئر وينظر الى السماء

يضرب لمن يرى الأمور بمنظار ضيق

- ثلاثة عاملين غير بارعين يمكنهم مضاهاة تشوغه ليانغ

تشو غه ليانغ : شخص يضرب به المثل في الذكاء والقدرة .

والمثل يُراد به أفضليةالعمل الجماعي على الفردي .

- العسل في الفم والسيف في القلب

يضرب للمنافق ذو الوجهين

ولا يشبه ذلك قول الفرزدق للحسين : قلوبهم معك وسيوفهم عليك فالعامي يضمر الحب في قلبه حينما يرغم على رفع السيف ضد رغبته

- ترويض الجبال والأنهار أسهل من تغيير طبع الانسان

من الأمثال العربية : العادات قاهرات

وقول صالح بن عبد القدوس :

والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يوارى في ثرى رمسه

وهذا بخصوص الناس العاديين وعامة المتعلمين والمثقفين . أما ذوو الهمم والمثقفون الكونيون فيعيدون خلق أنفسهم بعد أن يتجاوزوا طور

المخلوقية .

- يحاول التقاط القمر من قعر البحر

يضرب لمن يطلب المستحيل

- اذا كانت العوارض العلوية غير مستقيمة تكون العوارض السفلية مائلة .

تأثير السلطة في المجتمع .

سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً جاء من أحد الأمصار عن الأحوال هناك فأجابه :

يا أمير المؤمنين اذا طابت العين عذبت الأنهار .

- لا يمكنك اصطياد النمر الا اذا دخلت في غابة النمور

لابد للنجاح من المخاطرة وتحمل الآلام والصعاب

المتنبي :

تريدين ادراك المعالي رخيصة

ولابد دون الشهد من إبر النحل

- يحاول النمل أن يهز الدوح

يضرب لمن يبالغ في تقدير قوته

في الأمثال العربية : قالت البعوضة للنخلة : استمسكي فإني أريد أن أطير .

فردت عليها النخلة : ماشعرت بوقوعك فكيف أشعر بطيرانك ؟

- يصيد القمر في الماء

يضرب لمن يعمل عملاً غير مثمر .

- من لم يصبر للصغائر لا يصبر للعظائم

علي ابن أبي طالب لأصحابه :

ان كنتم من الحر والبرد تفرون فانتم والله من السيف أفرّ .

- الصقل المستمر يحول قضيب الحديد الى إبرة

فيها اشارة الى قصة الشاعر لي باي المار ذكرها .

- يقص قدميه لتلائم الحذاء
- لا يخرج العاج من فم الكلب

* ترجمتها السيدة وانغ روي تجو

أمثال حديثة

- الفلوس غير قادرة على شراء كل شيء :

أ - نشتري منزلاً بالفلوس لكن لا يمكننا شراء عائلة

ب - نشتري المجوهرات بالفلوس ولكن لا يمكننا شراء جمال

ج - نشتري أدوية بالفلوس ولكن لا يمكننا أن نشتري صحة

د - نشتري أدوية بالفلوس ولكن لا يمكننا أن نشتري احتراماً

و - نشتري طاعة بالفلوس ولكن لا يمكننا أن نشتري روحاً

ح- نشتري قلب المنافق بالفلوس إنما لا نستطيع أن نشتري عزيمة الصادق

ط - نشتري سلطاناً بالفلوس إنما لا يمكن أن نشتري هيبة

* عن الأخير : قارن قول القدماء للخلفاء : لدِرة عمر أهيب من سيفكم.

درة : عصا كان عمر يحملها في تجواله داخل المدينة بدل السلاح .

ترجمها: الصديق تشن كُنغ ليانغ (نور الصين) من أساتذة العربية في جامعة الاقتصاد والتجارة الخارجية ببيجينغ ..

الباب الرابع

الصين والاسلام

عرض تاريخي:

أخذ العرب في الجاهلية اسم صين من تشين الفارسية . ويرى البعض أنها من اسم الأسرة الأولى التي وحدت الصين وهي أسرة تشين . وينبغي الانتباه مع ذلك الى قرابة الاسم مع اسم الصين في اللغة الصينية وهو : تشوان غوا . ويعني الدولة المركز أي التي في مركز العالم . وابدال الواو الى الياء وارد في اللغات . ويستعمل عوام العراق من الجيل الماضي اسم تشين وماتشين علاوة على الصين .

واستعمل العرب في الاسلام الى جانب صين اسم بلاد الخطا ، بضم الخاء ، وهذه من خوتان اسم اقليم في شمال الصين ، وهو اسمها في اللغة الروسية – ووردت عند ابن بطوطة : خُتِن بضم الخاء وكسر التاء .

وعرف اسم ملك الصين عند العرب بلقب : بغبور أو فغفور . وهو الترجمة الفارسية للقب الامبراطور الصيني تيان زه . أي ابن السماء . واعتبرت عندهم شهرة ملوك الصين كما أن كسرى شهرة ملوك الفرس وقيصر أو هرقل شهرة ملوك الروم . وحرفت الكلمة عند العراقيين الى فرفور ونسب اليها فقيل فرفوري وهو الخزف . فكلمة فرفوري العراقية تعني حرفياً ابن السماء.

وسمى الصينيون القدماء العرب تاشي وهي من تازي الفارسية والتي سمى بها الفرس القدماء العرب . وأصلها طائي نسبة الى قبيلة طي العربية الكبيرة . ووردت أسماء غريبة لبعض البلدان العربية في المصادر الصينية القديمة منها : تياوتجية . ويختلف الدارسون المعاصرون فيما اذا كان المقصود بها العراق أم سوريا .ويقول بالرأي الأول جوزيف نيدهام وهو أخبر من غيره بمقاصد الأدبيات الصينية وأنا

أميل الى القبول بتفسيره لهذا الاسم . وورد اسم تاتشن وهو سوريا حسب تخريج نيدهام أيضاً . ثم تغير اسم سوريا الى فولين منذ القرن الخامس م. واسم شيا بودا ويراد به بغداد .

وظهرت تسميات لمدن صينية عند المسلمين محرفة عن أصولها . فذكر ابن بطوطة مدينة الخنسا وتساءل متعجباً عن هذا التشابه مع اسم الشاعرة العربية الخنساء . والأصل هو : خانتشو . وتلفظ أحياناً : خانتسو بالسين . فحرفت على لسان العرب والفرس الوافدين على الصين الى خنسا . وهي من مدن الصين الهامة في الوقت الحاضر وتعتبر من جنان الدنيا .

ومدينة الزيتون وأصلها القديم «تسيو تونغ» واليوم هي مدينة تشيوانتشو وكانت من الموانئ الكبرى للتجار المسلمين وأقامت فيها جالية إسلامية كبيرة من العرب والفرس وتقوم فيها حتى الآن جوامع ضخمة ترجع إلى العصر الاسلامي.

ومدينة صين الصين وصين كُلان ، ويقصد بها مدينة كانتون كما سماها الغربيون وهي في الصينية : كوانتشو . وتسميتها صين الصين ترتهن بموقعها كأول ميناء عظيم يصل اليه التجار المسلمون في رحلاتهم الى الصين . ومنها يتوجهون الى البر الصيني . أما صين كلان فيبدو لي أنها لفظة فارسية .

ومدينة خان بالق (بضم اللام) وهي بكين كما سماها الغربيون ، واسمها الصيني اليوم بيجينغ أي حاضرة الشمال . واسمها القديم من المغولية وتعني مدينة الخان أي الامبراطور المغولي وهو الذي استعصمها لأول مرة.وكانت العاصمة الامبراطورية تشانغ آن وسماها العرب : حمدان . واسمها الحالي شي آن . وتعني السلام الغربي . أما معنى اسمها القديم فهو السلام الدائم . ويلاحظ تشابه الاسم مع أحد أسماء بغداد وهو مدينة السلام ودار السلام . وكانت المدينتان هما حاضرتي العالم المتمدن في ذلك الوقت .

يرجع أقدم تماس مع الشرق العربي الى سنة ٩٧ م حينما أوفدت

أسرة الهان مبعوثها كان يينغ الى تاتشن (سوريا) وصل المبعوث أولاً الى تياوتجيه (العراق) . ولما هم بالتوجه الى تاتشن قال له بحارة الحدود الغربية آن شي وهم البارسيون (الفرس قبل الساسانيين وكانوا يحكمون العراق) ان العبور اذا كانت الريح مواتية يستغرق ثلاثة أشهر وان لم تكن يحتاج الى سنتين والأكثر من ذلك ان في البحر أمور تجعل الانسان يحن الى الوطن . وقد فقد كثيرون حياتهم فوقه . ولما سمع كان ينغ ذلك لم يذهب[١] .

والرواية مشوشة . فهي تتحدث عن بحر بين العراق وسوريا مع كون المبعوث الصيني لم يركب البحر قبلها . والصين تكاد تكون شبه جزيرة وتخترقها شبكة من الأنهار والبحيرات ويستبعد أن يكون فيها من لم يعرف البحر . ويمكن أن نضع في الحساب أن الرواية نصت على ان كان يينغ ، كان يقيم في آسيا الوسطى . كذلك يمكن أن نعتبر أن البارسيين تعمدوا تضليل المبعوث لأنهم لم يريدوه أن يذهب الى تاتشن بسبب طمعهم في اقتصار المتاجرة مع الصين عليهم كما تفيد رواية أخرى[٢] . لكن الرواية تتحدث عن وصول كان يينغ الى بحر وكونه أراد العبور وتكلم بشأنه مع البحارة . ويمكن الافتراض هنا ان البارسيين أوهموا المبعوث الصيني بعدم توفر سبيل بري للوصول الى تاتشن وأن عليه ان يستخدم الطريق المائي الذي هو نهر الفرات . وكان الفرات سالكاً بين العراق وسوريا والملاحة فيه نشيطة . واستفاد البارسيون من جهل المبعوث بالمسافة الحقيقية التي يتعين عليه قطعها وعدم معرفته جغرافية النهر فهولوا عليه السفر فيه . وكان الفرات من الأنهار الكبرى التي يهابها الملاحون كما يرد في قول الأعشى :

مايُجعل الجدُّ (البئر) الضنون الذي
جُنِّبَ صوبَ اللجبِ الماطر
مثل الفراتي اذا ماطمى
يقذف بالبوصي والماهر
أي يقذف بالملاح والسباح الماهر في لجته فيغرقهم .

تحدثت رواية أخرى عن وصول تاجر سوري اسمه تشين لون الى الصين عام ٢٢٦ م واستقبله سون تشوان امبراطور دولة وو التي حكمت من ٢٢٢ الى ٢٨٠ في حقبة تجزئة تلت التوحيد الأول . وكانت للامبراطور المذكور اهتمامات في الجغرافيا والخطط فطلب من التاجر السوري تقرير عن بلاده وسكانها فقدمه له . وتقول الرواية ان عسكر الامبراطور أسروا في هذه الأثناء جماعة من الأقزام السمر رآهم تشين لون فقال انه لم ير مثل هؤلاء من قبل فأعطاه الامبراطور عشر ذكور وعشر اناث منهم ، وأرسل معه ضابط يدعى ليوشين مات قبل الوصول الى سوريا(٣) .

ويتعذر ارجاع تشين لون الى اسمه الأصلي لنعرف ان كان شخص آرامي أو بيزنطي أو عربي ، وهي الأقوام التي كانت تشترك في استيطان سوريا يوم ذاك .

من طريف ماورد في هذه الرواية وصف أهل سوريا بأنهم طوال ومستقيمون في تعاملهم التجاري وانهم يتشبهون بأهل الصين ويسمون بلدهم صين اخرى . والخبر الأخير كاذب بدون شك اذا لم يعرف عن تأثير صيني في سوريا يجعل أهلها يتشبهون بأهل الصين (٤) .

هل عرف الصينيون بابل ؟

في لطائف المعارف قال الثعالبي أن أهل الصين يقولون : جميع الأمم ماعدانا عميان الا أهل بابل فإنهم عور .(٥)

والأول يقوله الصينيون الذين سموا جميع الأمم ماعداهم برابرة لعدم اطلاعهم على مدنيات أخرى خارج محيط مدنيتهم العملاقة . والذي نقل هذا الكلام الى الثعالبي ينبغي أن يكون قد عرف شيئاً عن أحوال الصين . لكن الاستثناء يبقى موضع شك . لأن ازدهار المدنيات البابلية يسبق ازدهار مدنية الصين بألف سنة . ومن جهة أخرى، كانت بابل حينما فتح طريق الحرير قد دخلت طور الأفول بفقدان سلطانها السياسي على يد الفرس الاخمينيين أولاً . والاسكندر المقدوني أخيراً. ومن حيث المعلوم حسب السجلات التئريخية ان أول تماس مع بلاد

الرافدين كان في بعثة كان يينغ المذكورة والتي تمت سنة٩٧ م في حقبة الاحتلال الفارسي الثاني (البارسيين أو الفرثيين) . وان كنا لا نستبعد تماماً أن يكون كان يينغ قد رأى بابل في سفارته تلك ، وكانت لم تفقد زهوها بعد في ظل الاحتلال .

ثم تقدمت الاتصالات في غضون العصر الجاهلي ، المزامن لحقبة الممالك الشمالية والجنوبية في الصين (٤٢٠– ٥٨٩) وحقبة سوي (٥٨١ – ٦١٨). وفي هذا الوقت كان الصينيون قد بدأوا ببناء المواخر التي ستصل بهم الى البحار الفارسية والعربية . ولدينا رواية للمسعودي تتضمن دلالات هامة في هذا الصدد نوردها بالنص عن المجلد الأول من مروج الذهب (١٠٣ – ١٠٤) :

كان الفرات ينتهي الى بلاد الحيرة ونهرها بين الى هذا الوقت وهو يعرف بالعتيق وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم وهي وقعة القادسية ، فيصب في البحر الحبشي . وكان البحر حينئذ في الوضع المعروف بالنجف في هذا الوقت . وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ترد الى ملوك الحيرة . وقد ذكر ما قلنا عبد المسيح بن عمرو بن بُقيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام أبي بكر حين قال له : ماتذكر ؟ قال : أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون .. فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر براً فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة . ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ماوصفناه .(٦)

ان ذكر البحر الحبشي لا موضع له هنا. ولم تتضمن مصادرنا الجغرافية إشارة الى بحر بهذا الاسم في العراق . فلعله من تحريف النساخين . أما البحر نفسه فموجود كما أشار اليه المسعودي . وهو بحيرة عظيمة تكونت من مياه الفرات ثم بدأت تجف بعد تحول مجرى النهر . وتأخر جفافها زماناً طويلاً وعرفت في العصر الاسلامي باسم بحر النجف . وقد ذكره اسحق الموصلي في قصيدة يتغنى فيها بالنجف وكانت منتزه مشهور من أيام المناذرة .

حفت ببر وبحر من جوانبها
فالبر في طرف والبحر في طرف

ومنخسف البحر لايزال في طرف المدينة وتنتهي اليه عمارتها . وقد رأيته بنفسي ويستفيد منه النجفيون لزراعة البطيخ الرقي (الأحمر) لأن مياه الأمطار تتجمع فيه فتساعد على الزراعة دون ارواء .

ويبدو ان تحول مجرى النهر قد حدث في وقت متأخر من العصر الجاهلي . ويمكن تصويب الرواية عن عبد المسيح بن بُقيلة ، المذكور في المعمرين من العرب . لكن وصول سفن الصين والهند فيه اشكال إذ يفترض انها تدخله من الفرات ، وهذا غير ميسور للمواخر ، ما لم نفترض ان تكون المواخر تفرغ حمولتها في سفن صغيرة عند فم الخليج الفارسي لتواصل رحلتها التجارية الى الداخل . وهو اجراء ممكن ومعقول . ويؤخذ من اخبار بناء مدينة بغداد ان من جملة دوافع اختيار موقعها هو وقوعها في طريق تجارة الهند والصين مما يدل بوضوح ان السفن كانت تصل اليها من الخليج عبر دجلة .

وكانت بعض المنتجات الصينية معروفة للجاهليين ومنها مرايا البرونز التي كان الجاهليون أحياناً يشبهون بها الوجوه الجميلة الصافية . وانتقل اليهم اسم مي الصيني للبنات . وتعني الكلمة في الصينية : الجمال ، وتسمى بها البنات الصينيات أيضاً . ومن المحتمل أن تكون نساء صينيات وصلن الى المشرق العربي في غضون العصر الجاهلي يحملن هذا الاسم فاعجب بهن العرب واقتبسوا الاسم لبناتهم . وكانت حبيبة النابغة الذبياني بهذا الاسم .

تتزامن بداية العصر الاسلامي مع بداية اسرة تانغ (٦١٨ – ٩٠٧) وبين البدايتين أربع سنوات لأن العصر الاسلامي يبدأ عام ٦٢٢ م ، وقد ظهرت الاسرة المذكورة حين كان النبي محمد يبشر بدعوته في مكة . وسمعت أسرة تانغ بظهوره بعد ذلك بحوالي ثلاثين سنة . إذ تنص المصادر الصينية على وصول وفد عربي الى الصين بين عامي ٦٥٠ و ٦٥١ م ، الذي يصادف خلافة عثمان . والسائد بين الصينياتيين

والاسلامياتيين اليوم ان هذه السنة شهدت بدء الاتصال بين الحضارتين الصينية والاسلامية ، لكن المؤرخ الصيني المسلم محمد مايي يو (١٩٠٠ – ١٩٦١) يرجح ان الاتصال يرجع الى مدة أبكر ، الى حياة النبي محمد . وقد حاجج عن ذلك في كتابه «تاريخ عام للمسلمين الصينيين»[٧] . ويصادر مايي يو على ان ذلك تم مابين ٦١٨ – ٦٢٦ م (٤ ق هـ – ٤هـ) ويبدأ مايي يو حججه من رواية في كتاب يرجع الى أسرة مينغ (١٣٦٨ – ١٦٤٤) تفيد أن النبي محمد أرسل أربعة من أصحابه الى الصين للتبشير بدعوته . وكان أسنّهم يدعى وقاص وقد توجه الى كوانتشو (كانتون) وبنى فيها مسجد . وتوجه الثلاثة الآخرون الى تشيوانتشو (مدينة الزيتون) . وفي هذه المدينة اليوم ثلاث قبور كتب عليها أنها لأصحاب النبي . أما وقاص فيقول ماي يي يو انه سعد بن أبي وقاص . والمسجد المذكور قائم اليوم في كانتون وفيه ضريح يقول أهل كانتون انه لوقاص خال النبي . ويذكر نقش في المسجد انه بني في السنة الأولى لحكم غاو تزونغ ، أول أباطرة تانغ . وتصادف سنة ٦١٨م . وحجج ما يي يو غير نافذة . لكن الرواية التي انطلق منها تدعو الى التفكير . فهي لم ترد في مصدر اسلامي صيني بل في مصدر صيني عام لا مصلحة له في ترويج رواية كهذه . وكانت لاسرة مينغ حساسية ضد المسلمين بسبب علاقتهم بحكم يوان المغولي . ويلاحظ مع ذلك انها لم ترد في مصادر السيرة النبوية مع أن كتّاب السيرة لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من تاريخ محمد لم يدونوها بما فيها حياته الشخصية وملابسه والأحذية التي كان يحتذيها .

ويبقى لنا افتراض ان المبعوثين المزعومين قاموا بمهمة سرية في الصين . واذا كان فيهم سعد بن أبي وقاص فهو قد عاد الى الحجاز ولم يمت في كانتون . ويفترض عندئذ ان الضريح المنسوب اليه هو مقامه لا قبره ! أما الثلاثة فأسمائهم لم تذكر في الرواية . ومن جهتي لا أستبعد أي تحرك سري من النبي محمد ، الذي كتم مشروعه حتى بلوغه الأربعين ليفاجئ به العالم . ومن المستحيل ان يكون الأمر كما

تتبناه العقيدة من دون أن يسبقه إعداد طويل الأمد . ويمكن أن تساعد على حل هذا الاشكال دراسة متمهلة للنصوص النبوية من الكتاب والسنة تتوخى الكشف عن تأثيرات صينية ، ولعل الحديث اطلبوا العلم ولو في الصين يلقي بعض الضوء على المشكلة . وقد أخرجه ابن عبد البرّ القرطبي في «جامع بيان العلم وفضله» وهو من أبناء القرن الخامس الهجري . ومن المؤرخين الموثوق بروايتهم . وقد استقصى السيوطي هذا الحديث في اللئالئ المصنوعة فاكتشف له وجوهاً تضعه في مرتبة الحديث الحسن .ولو ان انفراد ابن عبد البر باخراجه دون مصادر الحديث الأخرى المعتمدة هو مما يضعفه .

ان الاتصال الذي جرى في خلافة عثمان ثابت في السجلات التريخية لاسرة تانغ . والامبراطور الذي استقبل الوفد الاسلامي هو غاو تزونغ . وتذكر الرواية الصينية أن الوفد جاء لتقديم الولاء . وهذه عادة الصينيين عند ايراد أخبار الوفود التي تأتي اليهم ، مادامت الصين هي مركز العالم . وقد أخبر الوفد الامبراطور عن ظهور نبي في العرب وان الحكم الآن لخليفته الثالث. وينبغي أن تكون للوفد علاقة بلجوء ابن يزدجرد الى الصين بعد سقوط امبراطورية والده على يد المسلمين . وكان المذكور قد طلب مساعدة صينية لاستعادة عرشه . ولعل المسلمين توجسوا من احتمال تقديم مساعدة تطيل أمد الصراع ضد الساسانيين ، الذين كان لهم نفوذ قوي في آسيا الوسطى المتاخمة للصين . وقد يكون الوفد ساهم في منع ذلك . اذ اكتفى الامبراطور باستقبال ابن يزدجرد وتعيينه ضابط في الحرس الامبراطوري والسماح له ببناء معبد زرادشتي يتعبد فيه مع أهله وحاشيته .

الملحوظ أن خبر هذا الوفد لم يرد في مصادرنا . وهو اجراء طبيعي لا يتطلب الكتمان فلعله غاب عن ذاكرة الرواة أو لم تقتبسه المصادر الأحدث عن المصادر الأقدم التي تناولت أحداث صدر الاسلام والتي ضاع معظمها . لكن خبر لجوء ابن يزدرجرد الى الصين كان معروف عند المسلمين . وأشار اليه ابن عبدون الأندلسي في رثائه لبني الأفطس

ضمن مسرد لصروف الدنيا .

وبلّغت يزدجرد الصين واختزلت

عنه سوى الفرس جيش الترك والخزر.

قبل بعثة عثمان ، كانت وفادة الراهب الموصلي المسمى في السجلات الصينية أو لو بين عام ٦٣٥ ، في أوائل عهد عمر بن الخطاب وقبل استكمال فتح العراق . وكان الغرض وضع حجر أساس للتبشير المسيحي (النسطوري) في الصين . واستقبله تاي تزونغ ثاني أباطرة تانغ وسمح له ببناء كنيسة في العاصمة الامبراطورية . وكانت هذه أول مبادرة لايصال الكنيسة الى الصين . وتتميز بكونها مبادرة حرة غير مرتبطة بدولة أو غرض سياسي خلافاً للمحاولات التي أعقبتها . ونجد فيها دليل ملموس على تسامح الصينيين الذين عاشوا خارج محيط الأديان .

وبعد بعثة عثمان ، توالت السفارات مابين الصين والدولة الاسلامية فبلغت مابين ٣٤ الى ٣٦ بعثة حتى عام ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) . بينما أحصى المرحوم محمد مكين في محاضرته الآنف ذكرها ٧٦ بعثة حتى سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٠ م) وهي أخر مايمكن اعتباره حد للسيادة الاسلامية ، وبالطبع ، للحضارة الاسلامية . وبالنسبة للصين سقوطها بأيدي المغول

في زحف المسلمين نحو الشرق الأقصى وصلت جيوش قتيبة بن مسلم الى مشارق الصين ودخلت كاشغر على الحدود الشمال غربية . وانقل فيما يلي رواية الطبري بنصها فيما حدث هناك .

.. وفي هذه السنة (٩٦ هـ - ٧١٥ م) افتتح قتيبة بن مسلم كاشغر وغزا الصين وفصّل الطبري فقال :

وغل قتيبة حتى قرب من الصين فكتب اليه ملك الصين ان ابعث الينا رجلاً من اشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم . فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً . وقال بعضهم : عشرة من أفناء القبائل (من قبائل مختلفة) لهم جمال وأجسام والسن وشعور

وبأس ، بعد ما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه . وفاطنهم فرأى عقولاً وجمالاً . فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوشي واللّين من البياض والرقيق والنعال والعطر . وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها . وكان هُبيرة بن المُشَمرَج الكلابي مفوهاً بسيط اللسنان فقال له : يا هبيرة ؛ كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير ، قد كُفيت الأدب وقل ماشئت أقله وآخذ به . قال سيروا على بركة الله وبالله التوفيق . لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد فإذا دخلتم عليه فاعلموه اني قد حلفت ان لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم .

فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج . فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاء تحتها الغلائل (ملابس داخلية) ثم مسوا الغالية (عطر ثمين) وتدخنوا (تبخروا) ولبسوا النعال والأردية . ودخلوا عليه وعنده عظماء مملكته. (كان هو الامبراطور شوان تزونغ ، من أسرة تانغ) فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا . فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ماهم إلا نساء . مابقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم إلا انتشر ماعنده .

فلما كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي (حرير مطرز) وعمائم الخز والمطارف (القفاطين النفيسة) وغدوا عليه . فلما دخلوا عليه قيل لهم ارجعوا . فقال لأصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك (أنفسهم) . فلما كان اليوم الثالث أرسل اليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض (الدروع) والمغافر (دروع الرأس) وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم . وغدوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة . فلما دنوا ركزوا رماحهم . ثم أقبلوا نحوهم مشمّرين . فقيل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا ، لما دخل قلوبهم من خوفهم . فانصرفوا . فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها . فقال

الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط . فلما أمسى أرسل اليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم رجلاً . فبعثوا اليه هبيرة . فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي وانه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في بلادي وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي . وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم . قال : سل . قال : لم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث . قال هبيرة : اما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم . وأما يومنا الثاني فإذا أتينا امراءنا .. وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا . فإذا هاجنا هيج وقرع كناهكذا . قال : ما أحسن : مادبرتم دهركم .. انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه. قال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أولُ خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون (بلاد الشام) وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك . وأما تخويفك ايانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل . فلسنا نكرهه ولا نخافه .

قال : فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال : انه قد حلف ان لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويُعطى الجزية . قال : فانّا نخرجه من يمينه ؛ نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطءه. ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم (يضع طوقاً في أعناقهم دليل الاذلال) ونبعث اليه بجزية يرضاها . فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم . ثم أجاز الوفد فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به . فقبل قتيبة الجزية وختم الغِلمة وردهم . ووطئ التراب . فقال سوادة بن عبد الله السلولي :

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم
للصين أن سلكوا طريق المنهج
في أبيات ...(٨)

بصرف النظر عن تفاصيل الرواية يمكن الاستنتاج ان الوفد قد أعد بعناية وانه قام في تشانغ آن بحركات استعراضية للتعبير عن الثقة

بالقوة . ومن جهته فإن الامبراطور شوان تزونغ كان يعرف ماذا وراء الوفد وحاول في نفس الوقت أن يناور بما لديه وما يمثله من قوة في المقابل . ثم انتهى الطرفان الى حل وسط . وهذا الحل كان مرسوماً في ذهن الامبراطور الصيني والقائد العربي . فالامبراطور الصيني يدرك أنه ليس من الحكمة التورط مع العرب ، أي مع جيش كان يعرف سلفاً أن أوله عنده وآخره في بلاد الشام . وقتيبة بدوره أدرك أن التورط في الصين قد لا تكون له نهاية . فكانت هذه الصفقة التي جسدت تعادل قوتين يديرهما قادة عقلاء يعرفون عواقب الأمور قبل وقوعها. وهي من الدروس البليغة في تاريخ السياسة العالمية وفيها دليل على مدى الحنكة السياسية لقيادات حضارتين ناهضتين تحكمهما مطامع توسعية متقابلة إنما مع تبصر في العواقب يتقدم فيه العقل السياسي على النزعة العسكرية فيضع للقوة معالم تمنعها من الانخراط في التهور . من دون أن يترتب على الصفقة تنازل خطير في الاستراتيجية العليا لكل منهما . وثمت الى ذلك ناموس تثريخي يقف في نهاية المطاف وراء هذه الصفقة ، التي تمت بين حضارتين راسختين من جهة ، وغير متنافيتين من جهة أخرى . مما يفسر بدوره بقاء الحدود بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الصينية هادئة وغير ساخنة إلا في الاستثناءات القليلة ، مقابل تلك السخونة الدامية التي عاشتها الثغور الاسلامية مع البيزنطيين والافرنج .

في وقت متأخر من الخلافة الأموية ، بدأ استيطان عربي في العاصمة الامبراطورية تشانغ آن . وأسس أول مسجد فيها عام ٧٤٢ م ، وتصادف خلافة هشام بن عبد الملك . والمسجد لا يزال قائم بعد تجديده وتوسيعه عدة مرات . وهو أحد أضخم مساجد الصين ويمتد ٢٤٥ طولاً و ٤٧ عرضاً .

مع احتدام الصراع السياسي والاجتماعي في الدولة الاسلامية صارت كل من الهند والصين محطة لجوء للمعارضة الاسلامية . ويلاحظ توجه المعارضين المسلمين الى تلك الأصقاع الشرقية دون بلدان

اوروبا الأقرب مكاناً ، مع أن كلاهما دار كفر عند المسلمين . ويفسر ذلك بعدم ظهور حالة حرب كتلك التي سادت بين المسلمين وكل من الروم والافرنج ، مما يمكن أن يضع أساس للتفريق بين مفهومي دار الكفر ودار الحرب ولو أن فقه الأحكام السلطانية لا يفرق بينهما من جهة الأصل الشرعي . بينما تعامل المسلمون في واقع الحال على اساس هذا التفريق . ونجد مصداقه في الأدبيات الاسلامية ، حيث يرد ذكر الهند والصين في سياق طبيعي ، وذكر الروم والافرنج مصحوباً باللعنات . وكان الملك البيزنطي يسمى طاغية الروم وملك الافرنج ، طاغية الافرنج أو الطاغية باطلاق . ويذكر ملك الصين وملك الهند بلقبه العادي .

ورد خبر عن لجوء جماعي الى الصين في أواخر الخلافة الأموية نقله المرحوم فيصل السامر في كتابه (الأصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق الأقصى.) عن البرت حوراني في ARAB SEAFARING ونقله حوراني عن مؤرخ يسمى المروزي من القرنين الخامس والسادس الهجري مفاده أن بعض الشيعة الهاربين من خراسان أيام الأمويين سنة ١٣٢ هـ استقروا في جزيرة تقع في أحد أنهار الصين الكبرى في مواجهة احدى الموانئ . وقال المروزي أن هذه الجماعة كانت باقية هناك حتى زمن تأليفه الكتاب وهو سنة ٥١٤ هـ - ١١٢٠ م وان افرادها كانوا يعملون وسطاء تجاريين بين الصينيين والأجانب : ولم اقف على كتاب المروزي ، كما لم أجد له ترجمة في موسوعة الأعلام للزركلي . وثمت احتمال خطأ في التثريخ لأن حكم الأمويين عام ١٣٢ كان قد زال من خراسان بأيدي العباسيين . وآخر تحرك شيعي ضد الأمويين في هذا الاقليم كان هو تحرك يحي بن زيد بن علي سنة ١٢٥ أو ١٢٦ وقد قتل يحي وجماعة من أصحابه في الجوزجان ، من أعمال أفغانستان اليوم ،وكانت هذه آخر حركة للشيعة ضد الأمويين ، وكان يحكم خراسان نصر بن سيار ، من جلادي الأمويين المعروفين ،ولا بد انه قد ضيق الخناق على أنصار يحي بن زيد بعد مقتله فالتمسوا الأمان في الجوار وهي الصين المحاذية لخراسان

من جهة شمالها الشرقي ، أما النهر الكبير المشار اليه في رواية المروزي فينبغي أن يكون نهر اللؤلؤ «تجو جيانغ» الذي يصب في خليج اللؤلؤ جنوب ميناءكواتشو (كانتون) ورواية المروزي ، وهو كما يبدو على معرفة جيدة بمصير هذه الجماعة تتضمن استقرارهم في تلك الناحية حوالي أربع قرون .ومن الطبيعي أنهم بدأوا في ذلك الحين يتصينون دون أن نفترض نسيانهم حتى ذلك الوقت اللغة العربية التي لابد أن معرفتهم بها كانت وراء اشتغالهم وسطاء تجاريين بين الصينيين والأجانب ، وهؤلاء الآخرين كانوا في معظمهم آنذاك من المسلمين .

عام ١٣٤ هـ ، بعد تأسيس الخلافة العباسية بسنتين ، وقعت معركة بين الجيش العباسي والصينيين وأسفرت عن هزيمة الصينيين وتكبدهم خسائر كبيرة في الأرواح ، وأُخذ فيها عدد من الأسرى كان بينهم خبراء بصناعة الورق استفاد منهم المسلمون لانشاء أول معمل للورق في الاسلام وكان في سمرقند . وورد اسم أحد الأسرى وهو تو هْوان الذي مكث في الأسر اثني عشر عام قابل في أثنائها نساجين وصاغة وحرفيين صينيين في العالم الاسلامي ، مما يدل على انتقال فنون الصين الى المسلمين في وقت سابق للعباسيين .

عقب هذه المعركة بسنتين وصل وفد صيني الى أبو العباس أول خلفاء العباسيين وكان مقره في الأنبار (ضمن محافظة الرمادي العراقية حالياً) وينبغي أن يكون سبب الوفد بحث مسألة الأسرى الصينيين في المعركة .

بعد هذا الوفد بست سنوات وقع حدث هام في تاريخ العلاقات الصينو - اسلامية .كان الخليفة أبو جعفر المنصور ومعاصره في الصين الامبراطور شوان تزونغ ثم الامبراطور سوتزونغ من أسرة تانغ . والأول هو الذي استقبل وفد قتيبة بن مسلم . وكان حكمه قد طال فاتصل بعهد المنصور وهو أطول أباطرة تانغ حكماً وتعرضت الامبراطورية في عهده الى تمرد خطر قاده طامع يدعى آن لوشان . تطور الى الاستيلاء على العاصمة الامبراطورية تشانغ آن . وقد قتل آن

لوشان بعد سنتين على يد ابنه أن نشين شسو .وأعلن الابن نفسه امبراطوراً واستمر في عصيانه . ثم قتل بدوره على يد ابنه شي تشاو يي عام ٧٦١ . لكن هذا لم يضعف من العصيان الذي انتهى الى اقامة امبراطورية مضادة . وعنئذ اتصل الامبراطور سو تزونغ بالمنصور طالباً المساعدة في انقاذ عرش تانغ . ووصلت النجدة عام ٧٦٢ . وكانت مؤلفة من قوة منتخبة . بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف مقاتل . ولم يُذكر ان كانوا من جيش بغداد أم آسيا الوسطى . وأرجح الأخير للقرب وسرعة الوصول . وكانت القوة مزودة بسيوف قاطعة لم يسبق للصينيين أن استعملوها في حروبهم . وقد انضمت القوة الى الحرس الامبراطوري وقاتلت المتمردين فدحرتهم نهائياً . وانتحر الامبراطور الغاصب شي تشاو على الاثر واستتب الوضع مرة أخرى لاسرة تانغ. ومن المحتمل ان يكون طلب النجدة قد تم بناء على نصيحة من الوزير لي مي . وكان من أعوان سو تزونغ قبل تأبطره ومن المخلصين لعرش تانغ . كما عرف عنه التعاطف مع العرب وهو الذي تدخل وساعد المستوطنين منهم في الصين على الاشتراك في الامتحانات الامبراطورية والتوظف في الادارة الصينية .

يذكر ويغر ان مثل هذه النجدة قد تكرر في مجرى العصور .(٩) ولم أجد فيما اطلعت عليه من تواريخ الصين مايدل على ذلك . أما ان كان المقصود هو التعاون واتفاقات الدفاع المشترك فقد تكرر فعلاً كما سنلم به بعد قليل . ونعود الى نجدة المنصور فنجد انها تركت بصماتها على وضع الاسلام في الصين . ذلك أن أفراد الفيلق العباسي قرروا البقاء في الصين بعد انتهاء مهمتهم وتزوجوا من صينيات ، والأمر في تقديري متفق عليه مع المنصور لان النجدة تمت في الخفاء بسبب مخالفتها للشرع الاسلامي الذي لا يجيز للمسلم الدفاع عن الكافر الا اذا كان من أهل الذمة . وهو قد يكون السبب في عدم وررودها في المصادر العربية اذ أن المنصور رتبها بكتمان شديد . وكان من دواعي الكتمان ان لا

يعود أفراد الفيلق الى العالم الاسلامي حتى لا يتسرب الخبر .

ولاشك أن المنصور رأى في بقائهم مصلحة سياسية لانهم سيشكلون موقع ولاء للدولة الاسلامية داخل الصين ، وهناك ما يدل على ان المنصور وضع العلاقة مع الصين في أولوياته . فقد روى الطبري في أخبار بناء بغداد ان المنصور قال بعد ارتياد الموضع : هذا موضع معسكر صالح ، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ..[١٠] ويؤكد ذلك ما افترضناه في السطور السابقة من وصول سفن الصين الى عمق العراق في ذلك الوقت .

تناقل الصينيون أخبار السيوف العربية التي جاء بها الفيلق العباسي وامتازت بحدتها ورهافتها ، فاستخدمها دو فو شاعر الصين الأعظم ، في تشبيهاته. وكان ممن عاصر الحدث فقال يشير الى شيء حاد :

لا يقاربه في حدته إلا سيوف العرب.

نذكر أخيراً أن الكتاب الصينيين في الوقت الحاضر يتجاهلون نجدة المنصور . ويزعم بعضهم ان الحرس الامبراطوري انفرد بقمع العصيان . بينما يصاغ الخبر في كتب أخرى بطريقة تضلل القارئ لتمنعه من التساؤل عن الكيفية التي تم بها لاسرة تانغ ان تستعيد سلطتها في وجه حركة عاتية اتجهت منذ البدء الى تأسيس اسرة بديلة سميت «يان» العظمى واستعصمت مدينة لوو يانغ احدى العواصم الثلاثة الكبرى للامبراطوريات الصينية ، ولا أظن الدافع هو الغيرة القومية لان الكتاب الصينيين من جيل الانفتاح لا يظهرون هذه الغيرة في التعامل مع الغربيين .

في المجلد الأول من سفره الجليل أورد جوزيف نيدهام مايلي : [١١]

في النصف الثاني من القرن الثامن م أخذ التبتيون يهددون غربي الصين وحدود الدولة الاسلامية في اسيا الوسطى مما حدا بهارون الرشيد الى إرسال مبعوث الى تشانغ آن انتهى الى عقد تحالف عربي – صيني ضد الخطر التبتي عام ٧٨٧ م (١٧١ هـ) ويصادف ذلك السنة

الثانية من خلافة الرشيد والسنة الثامنة من حكم الامبراطور ده تزونغ من أسرة تانغ.

وفي حقبة تانغ هذه أخذ الحضور الاسلامي في الصين يزداد اتساعاً . ويذكر نيدهام في هذا الصدد مايلي : ([١٢])

وصل العرب والسريان والفرس الى تشانغ آن ، التي صارت ملتقى ذو شهرة عالمية لا يقل عن بغداد ، وفي وادي وي كان هؤلاء يلتقون مع الدارسين الكوريين والصينيين والتبتيين والتونكينيين (الهند الصينية) للمداولة في الدين والأدب في الجواسق الأنيقة للمدينة العظيمة في وادي وي ، واشتغل السريان كذلك مغنين وممثلين .

وتكونت جاليات اسلامية ضخمة في مدن الجنوب كان أكبرها في كوانتشو (كانتون) وقد زادت كثيراً على مئة ألف . وكان لهذه الجالية شيخ منها يتولى شئونها ويقوم بدور الاتصال بينها وبين حاكم المدينة - وقد تعرضت عام ٨٧٩ الى مجزرة قام بها الجمهور الصيني ، دون تدخل الامبراطور ، ابيد فيها مئة الف منهم ، وكان معظمهم من العرب والفرس ، وكادت المدينة بعد ذلك ان تخلو منهم حتى الحقبة المغولية ، ويغلب على ظني ان الدافع الى هذه المذبحة رد فعل اجتماعي أكثر منه قومي ، لأن الجالية كانت تشتغل في التجارة وجمعت ثروات طائلة قد تكون أثارت غيرة الصينيين ...

وكانت الجالية قد تمتعت أيضاً بحقوق مواطنة أهّلتها لخوض امتحانات الخدمة المدنية وتوظيف من ينجح منهم في وظائف حكومية ..

ذكرت انفاً تأسيس مسجد تشانغ آن الكبير في خلافة هشام بن عبد الملك ويؤشر ذلك بداية تدفق المسلمين على الصين وعاصمتها الأولى

وكان الغرض الأساس هو التجارة بين الفريقين . وكان الميزان التجاري شبه متوازن . فكان التجار المسلمون يبيعون في تشانغ آن ، في سوقها الغربي العطريات ، العقاقير ، قصب السكر ، القطن ، الخام الأقمشة القطنية، المجوهرات واللؤلؤ .

ويستورد المسلمون من الصين :

الحرير ، الخزف ، الحديد ، التحف الفنية ومنها مرايا البرونز ، البط ، الوز ، صفائح الزنك ، القرفة (الدار صيني) . والمسك من التبت .

وتسمى صفائح الزنك في العراق اليوم : تشين – كو وتحرف في اللهجات العربية الأخرى الى شين – كون. وتعني : الصفائح الصينية .

وتمتع التجار المسلمون بمكانة مرموقة لدى الحكومة الصينية . وقد مر الكلام قبل قليل عن جالية كانتون .وكان التجار المسلمون يشاركون في الحياة العامة على المستوى الرسمي والأهلي ، وقد تبرع تاجر مسلم في أسرة سونغ بمبلغ كبير للمرافق العامة فأهداه الامبراطور حصان أبيض تقديراً لتبرعه ، وكانت في بغداد سوق خاصة للمنتجات الفنية الصينية ، وعثر على تماثيل صينية لسائحين وتجار عرب وفرس .

العصور الاسلامية مستغرقة صينياً في أسرتي تانغ وسونغ مابين أوائل السابع الى الثالث عشر م (الأول الى الأول السابع هـ) . وامتداد هذه العصور في اسرة ايوان المغولية حتى نهاية الثامن الهجري ، وشهدت حقبة سونغ وصول اليهود من العالم الاسلامي الى الصين ، وبني أول كنيس يهودي عام ١١٢٧ م[١٢].

وفي أسرة يوان المغولية صار للمسلمين من العرب والفرس والأتراك حضور كبير في الامبراطورية التي شملت عموم الصين . وقد اعتمد المغول على المسلمين في حكمهم للصين ضمن اعتبارين : الأول كفاآتهم في مناحي الحياة المختلفة بوصفهم العنصر الأرقى تمدناً في ذلك الوقت، والثاني مأخوذ في منطق الاحتلال الذي يعتمد على الأجانب لحكم البلد المحتل لعدم ثقته بأبناء البلد . وفي هذين الاعتبارين لعب المسلمون دور العناصر الكفوءة في ادارة بلد متحضر ، مخلوطاً بدور المتواطئ الأجنبي ضد بلد محتل .

كان قوبلاي خان ، الذي احتل الصين وأسس أسرة يوان قد اتخذ من رجل مسلم يدعى أحمد كبيرا لوزرائه فكان هو الشخص الثاني في الامبراطورية ، وكان هذا الوزير المسلم طاغية فساهم في اضطهاد الصينيين وسبب استياء واسع في أوساط الهانيين بالخصوص ، فدبر له

الصينيون خطة ناجحة لاغتياله ، وفي هذه الأثناء كان الرحالة الايطالي ماركو بولو قد وصل الى الصين ، ولقي حظوة لدى الامبراطور المغولي ، وبدأ من فوره يحوك الخطط لابعاد المسلمين عن الحكم ، واستفاد من قضية أحمد فشرح للامبراطور ماكان يفعله بالصينيين ، وكان قوبلاي خان ميال الى العدل والانصاف على عكس أصحابه الذين فتحوا بغداد فانزعج لما سمعه عن تصرفات أحمد وأمر باخراجه من قبره ورمي جثته الى الكلاب وقتل أولاده وأولاد أخيه .

في تطور آخر ، كان أباقا بن هولاكو حاكم بغداد قد تزوج من مسيحية فأخذت تحرضه على المسلمين ، وأثارت انتباهه الى آية في القرآن تقول : اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم (٥/توبة) وقالت له مامعناه أن المسلم الذي في قصرك يحمل امر اغتيالك بموجب شريعته ، فكتب اباقا الى عمه قوبلاي خان بهذا المعنى . فاتخذ قراراً بابعادهم عنه وتجريدهم من حقوقهم وامتيازاتهم والزمهم باتباع شريعة المغول (اليساق) في احوالهم الشخصية ، وأجبرهم عى أكل اللحوم المخنوقة التي يأكلها المغول والصينيون ، فنزح المسلمون الى جزر الهند الشرقية وأخذوا بالاتجار مع الشرق الأوسط وقاطعوا الصين تجارياً . ونتج عن ذلك نقص كبير في واردات الدولة كما حرمها من كفاءات ادارية وفنية كانت في حاجة ملزمة اليها، فاضطر قوبلاي خان الى الغاء قراره السابق واستدرج المسلمين للعودة فأخذوا يعودون وبنى لهم مسجد في بيجينغ يتسع لمئة ألف .

أشار الى هذه التطورات كتاب صيني حديث عنوانه تقويم الأحداث في الصين والعالم – تشونغ واي لي شي نيان بياو – صدر عام ١٩٥٨ فذكر من أحداث سنة ١٢٦٤ فشل محاولة المسيحيين الغربيين لاستخدام المغول للقضاء على الاسلام في الصين . وثمت خطأ في التتريخ ، مما يحدث كثيراً عند تحويل السنين الصينية الى الميلادية ، فالكتاب نفسه يذكر حادثة أحمد سنة ١٢٨٢ . وهو الأصح ، لأن ماركو بولو ، وهو المقصود بوصف المسيحيين الغربيين ،و صل الى الصين عام ١٢٧١ ،

وكان المسلمون في أوج سطوتهم قبل أن يدبر لهم هذه الخطة مستعيناً بسلوك أحمد . وينبغي عندئذ توقيت فشل الخطة في حدود ١٢٩٠ . وكانت عودة المسلمين الى الصين في أواخر سنوات قوبلاي خان ، ويجدر بالتذكير ان المقصود بالمسلمين النازحين والعائدين هنا هم الذين جاؤوا مع الاحتلال المغولي دون مسلمي الصين الذين كانوا في ذلك الوقت قد تصينوا ولم يعودوا في سلك الأجانب بعد ان مضى على وصول الاسلام الى هناك أكثر من خمس قرون .

في السنوات التي سبقت الأزمة بين الطرفين ، كان العرب والفرس والأتراك في جيش قوبلاي خان وادارته قد لعبوا دور هام في ادارة البلاد وخدمة المصالح المدنية للاحتلال ، ولم يكن للمغول سابقة تحضر تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم في هذه الشئون ، فلما أراد قوبلاي خان بناء قصره الامبراطوري عهد به الى مهندس مسلم يدعى اختيار الدين . وأدخل المغول كل من الفلك والطب الاسلامي الى الصين . فأنشئت دائرة رسمية للفلك الاسلامي أدارها فلكيون مسلمون مع فلكيين صينيين ونبغ من بينهم فلكي فارسي يدعى جمال الدين صنع سبعة أجهزة فلكية واستخدمها في أرصاده في مرصد بنته الحكومة له . واستعمل المغول التقويم الاسلامي الذي أعده جمال الدين باسم تقويم وان نيان . ويعني عشرة آلاف سنة ، وكان قد سبقه تقويم آخر من أسرة سونغ صنعه محمد مايي زه القادم من جنوب الأناضول أو شمال سوريا .[١٤] وهو جد أسرة كبيرة من الصينيين المعاصرين تحتفظ بمشجرة تنتهي اليه ... كما عمل جمال الدين زيج جديد سماه الزيج الدائم ، وأدخل أقرانه الزيج الحاكمي لابن يونس ويقع في أربع مجلدات كان قد صنعه للحاكم بأمر الله الفاطمي . وقد أشار اليه الفلكي الصيني كو شيو تشينغ (١٢٨٠ م) . كذلك جهز مرصد بيجينغ في ذلك الحين بستة وعشرين كتاب عربي أدرجت في قائمة كتب ضمت حوالي ٢٤٢ كتاب .

وأدخل الفلكيون المسلمون نظام الأسبوع الى التقويم الصيني ، ولم

يكن الصينيون يعرفونه قبل ذلك كما بيناه في الباب الأول .

واصلت أسرة مينغ التي ازالت الحكم المغولي الاعتماد على التقويم الاسلامي فأصدر امبراطورها الأول هونغ وو (١٣٩٨ م) أمراً بتنظيم تقويم اسلامي فنظم أولاً باللغة العربية ثم أصدر أمره الى العالم المسلم ماساي بترجمته الى الصينية ، وينتمي ماساي الى أسرة حجازية الأصل ، وقد عينه الامبراطور عضو في الأكاديمية الامبراطورية . كما أقامت أسرة مينغ مرصد للفلك الاسلامي في تيانجين .

وأتاح الوضع المغولي للصينيين أن يشاركوا بدورهم في الفلك الاسلامي ، وتذكر المصادر العربية اسم فلكي صيني كان من أعضاء مجمع مراغة الذي أسسه نصير الدين الطوسي ، وساهم معه في بناء مرصد مراغة الشهير بتمويل من هولاكو حين كان نصير الدين يشتغل في معيته .والفلكي المذكور هو توماجه ، وفي المصادر العربية تومنجي .

يرجع أقدم اتصال طبي بين الصين والمسلمين الى أيام الرازي (الثالث الهجري - التاسع الميلادي) ويذكر ابن النديم في الفهرست ان رجلاً في الصين قصد الرازي وتعلم عليه العربية خطاً وقراءة في خمسة أشهر ودرس عليه الطب . ولما اراد الانصراف طلب منه أن يملي عليه كتب جالينوس الستة عشر فكتبها بطريقة تسمى عندهم المجموع وهي نوع من الاختزال .[١٥] وهذه الطريقة متبعة حتى الآن وتتم بأخذ مقطع واحد من المصطلح يستدل به على المعنى ، وينبغي أن يكون الرازي قد تلقى من هذا الطبيب التلميذ أفكار عن الطب الصيني ، وقد احتوت كتب وتجارب العلاج الاسلامية على وصفات وأدوية صينية ولو أنها لم تشغل نفس الحيز تبع الطب اليوناني لان المسلمين لم يترجموا أمهات الطب الصيني كما فعلوا مع الاغريقي .

وعني المغول بادخال الطب الاسلامي الى الصين فأمر توبلاي خان بانشاء مركز لهذا الطب في بيجينغ وتأسيس دائرة للعقاقير الاسلامية في منغوليا . كما أنشئت بأمره كليتان للصيدلية الاسلامية واحدة في بيجينغ والأخرى في شانغ دو ، واشتهر الأطباء المسلمين في ذلك

العصر بعلاجهم للأمراض النادرة . وقد استمر نفوذهم بعد المغول ردحاً طويلاً فصدر في أسرة مينغ كتاب عنوانه «وصفات اسلامية» باللغتين الصينية والفارسية . وتذكر المصادر الصينية في المقابل وصول الطب الصيني الى ايران أيام المغول حيث الف رشيد الدين صاحب جامع التواريخ ، كتاب في الطب الصيني كتبه باللغة الفارسية (١) ويأتي عمل رشيد الدين متأخراً لان الحضارة الاسلامية كانت قد دخلت دور الأفول وتوقف مد المعرفة الذي اكتظت به القرون السابقة ، بينما استمر الطب الصيني في التطور فكان تأثير الطب الاسلامي عليه أشد من تأثيره في المقابل .

وتذكر المصادر الصينية تأثيرات في الصناعة الحرفية ترجع الى نفس العصر المغولي ، فقد نقل العديد من النساجين المسلمين ممن جاءوا مع المغول الى داخلية الصين للاشتغال في انتاج الحرير الذي أنشئت له دائرة خاصة به برئاسة مسلم من هؤلاء .(٢)

وساهم المسلمون في البحارة الصينية في نفس الحقبة ، وقد رأى ابن بطوطة ربان عربي يقود ماخرة صينية اسمه سليمان الصفدي الشامي ، وهو أمر غير مألوف عند أهل الصين الذين لا يميلون الى تسليم مرافق حيوية الى أجانب .

في المجال العسكري كانت للمسلمين في الحكم المغولي يد طولى في تطوير المدفعية وكان الصينيون بعد اختراع البارود قد توصلوا في أسرة سونغ السابقة للمغول الى صناعة مدافع أولية قصيرة المدى. وفي ١٢٧٢ ، في عهد قوبلاي خان توصل عسكري مسلم يدعى اسماعيل الى صنع مدفع عملاق يستعمل فيه بارود أقل ويصيب أهداف بعيدة ، ولما أطلقه للمرة الأولى اهتزت الأرض بالدوي ونزلت القذيفة الى عمق سبع أقدام ، وعينه قوبلاي خان آمر كتيبة المدفعية بعد انجاز اختراعه وتجربته.

السيد الأجل :

السيد الأجل هو لقب العلويين في آسيا الوسطى ، وقد اشتهر به

في الصين عربي كان مع المغول عند احتلالهم لها ، وورد في المصادر الصينية باسم : سي ديان تشي تشو إن سي دين إي مر . أي ، السيد الأجل شمس الدين عمر . كان من نواب كبير وزراء المغول وانتدب لإدارة مقاطعة (يْونْ نان) جنوب الصين وهو على النقيض من كبير الوزراء أحمد . ترك مآثر في هذه المقاطعة لا تزال تذكر حتى اليوم بعد مرور سبعمئة سنة على ولايته لها . يقول العلامة جوزيف نيدهام أنه عندما زار يون نان لأول مرة عام ١٩٤٢ أثارته الأشغال المائية التي أقامها السيد الأجل في حوض كونمينغ (حاضرة المقاطعة) بخطوطها من الأشجار على امتداد الضفاف[١٦] . وكانت يون نان لما وصلها السيد الأجل خرابة لا تنبت غير صنف رديء من الحنطة يقتات عليها أهلها ، وتعيش نهب الفيضان والجفاف المتناوبين ، وتخلو من حقول الشلب والغلال الغذائية والاقتصادية كالقطن والتوت لدود القز ، وفي مدة ولايته القصيرة التي دامت ست سنوات فقط قام السيد الأجل بما يلي :

١ - نظم أهل المقاطعة لتعلم الحراثة والبذار .

٢ - شرع في بناء الخزانات والسدود للحماية من الفيضان والوقاية من الجفاف .

٣ - عبأ الجيش لاستصلاح الأراضي في تسع مطارح من المقاطعة ، ثم وزعها على ستة عشر ألف و ٢٧٧ عائلة لاستزراعها .

٤ - وفي جنوب غرب كونمنيغ كانت هناك مساحة قدرها خمسمئة لي مربع (٢٥٠ كيلومتر مربع) طمرتها مياه الفيضان بالطمي وتخربت قصبتها بعد أن تسلقت مياه الفيضان أسوار المدينة بينما تصحرت بقية المساحة فلم تعد صالحة لانبات شيء . فجهز السيد الأجل أكثر من ألفين شغيل من المدنيين لبناء سدود ومسنّيات (مراطم) . وقاموا بتحويل مجرى نهرين يمران من هناك لارواء مايزيد على عشرة آلاف لي مربع (خمسة آلاف كيلومتر مربع) . وصارت المساحة المطمورة جنائن تزرع الغلال الغذائية والاقتصادية على السواء .

٥ - طوّر صناعة النسيج ومنها النسيج الحريري الذي انتعش

ببساتين التوت الجديدة .
٦ - أصلح النقل البري والمائي .
٧ - وشملت اجراءاته بناء مدارس وطرق وجسور ومراكز بريد ...
وبذلك أصبحت مقاطعة يون نان التي تزيد مساحتها على بريطانيا مقاطعة مزدهرة ، وتحسنت معيشة أهلها الى مستويات متقدمة ، وقد أظهر السكان وفاءهم لواليهم ففي حين قتل مواطنوهم في الشمال الوزير أحمد خرج أهل يون نان ينوحون في الشوارع بعد اعلان نبأ وفاة السيد الأجل شمس الدين . وأحاطوا أسرته بالحب والرعاية فواصلوا العيش معهم في المقاطعة بعد وفاة عميدهم وزوال حكم المغول . وقد احتفظ أحفاد السيد الأجل بشجرة نسبهم إليه . ويبلغ عددهم اليوم زهاء سبعة عشر الف . وفي الجيل السابع منهم نبغ أحد أعظم بحارة الصين وهو الخصي تشنغ خه . واسمه الأصلي ماشان بو ووالده هو الحاج ما (ماحاجي). كان قد أسر صغيراً في احدى حروب أسرة سينغ وخصاه آسروه . ثم التحق بمعية تشينغ تزو ثالث اباطرة مينغ واشترك معه في معركة كانت له يد في انتصاره فيها . وتفتحت مواهبه برعاية الامبراطور المينغي عن بحار قدير فعينه الامبراطور أمير بحر ووضع تحت تصرفه اسطول تجاري ضخم . وقاد اسطوله في سبع رحلات وصل في احداها الى شرق افريقيا وانعطف في أخرى الى الحجاز فحج الى مكة والمدينة . ويعتبر الصينيون رحلاته أطول رحلات العالم القديم التي سبقت رحلة كولومبس . وكان متوقع له لو ارتكب نفس خطأ كولومبس ان يصل الى الامريكيتين . لكنه كان بحاراً ذكياً ويعتمد على خرائط صينية صرفة لم يخطئ في قراءتها وقياس الأبعاد على أساسها ! ويجدر بالذكر ان مواخره كانت أضخم من سفينة كولومبس لأن الاسبان حتى ذلك الوقت لم يكونوا قد توصلوا الى بناء سفن في حجم السفن الصينية ... وتبعاً لشجرة آل السيد الأجل التي عرضوها علي في بيجينغ عام ١٩٨٤ فإن البحار الخصي تشينغ خه هو الحفيد السادس والثلاثين لعلي بن أبي طالب .

كان يجب أن يواجه مسلمو يوان رد الفعل من أسرة مينغ التي انهت الاحتلال المغولي . وقد تعرضوا للاضطهاد كمتعاونين مع الاحتلال . وكان أسر البحار تشينغ خه من جملة هذا التطور الطبيعي في الأحداث . لكن أسرة مينغ لم تتطرف في هذا المنحى ، فإلى جانب روح التسامح الصيني مع الأجانب كانت هناك حاجة الى كفاءات هؤلاء المسلمين القادمين من مواطن حضارة راقية . وقد حافظت أسرة مينغ على المؤسسات الاسلامية التي أقامها المغول وأنشأت مؤسسات أخرى على غرارها . واستعاد المسلمون مكانتهم بعد أن اهتزت في بدايات الأسرة . ويذكر الدارس المسلم ماتشيان مايلي : (١٧)

كانت للمسلمين مكانة سامية في يوان ومينغ . وبسبب ذلك خافت أسرة تشينغ (المنشورية)من تآمرهم مع الصينيين لاعادة أسرة مينغ الصينية الأصل فاضطهدتهم وأوقعت بينهم وبين الصينيين حتى اضطروا الى الثورة خمس مرات في غضون مئة سنة من ١٧٥٨ – ١٨٧٣ أسفرت عن ابادتهم في مقاطعات شانشي وقانصو ويون نان .

وقد تبلور وضع المسلمين في الصين كأقلية قومية – دينية في نهايات القرن السادس عشر بعد أن بدأ رفد القادمين من العالم الاسلامي يتناقص مع انحسار السيادة الاسلامية في المحيط الهندي . وتقلص النشاط الحضاري في آسيا الوسطى. وأخذت اللغة العربية ورديفتها الفارسية التي كانت لا تزال منطوقة عند مسلمي الصين حتى ذلك الوقت تتراجع لحساب اللغة الصينية . وكانت البداية في هذه الجهة استعمال لغة صينية مكتوبة بحروف عربية سميت شياو إرجن ثم استكمل المسلمون تصينهم فصاروا يكتبون بالمقاطع الصينية . لكن دراسة اللغة العربية والفارسية استمرت في الأوساط الدينية ، بعد أن كانت تستعمل لشتى الأغراض وقد وقفت في جامع بيجينغ الأكبر على مخطوطات عربية وفارسية مكتوبة في الصين مابين القرن السادس عشر والتاسع عشر وتتناول موضوعات الفقه والحديث والتاريخ واللغة .

الهوامش :

(١) نيدهام 1196 عن كتاب هوهان .

(٢) نفسه 1197 - ١٩٦ .

(٣) نيدهام 1198 عن كتاب ليانغ شو .

(٤) في محاضرة لي بدمشق عن العلاقات الصينية العربية تطرقت الى هذه الرواية وابديت حيرتي في اساس الدعوى التي وردت فيها عن تشبه السوريين بالصينيين ، فنبهني الأديب ميخائيل عيد وكان ضمن الحاضرين : لا تنسى ان الذي نقل اليهم ذلك هو تاجر سوري وانه قدم هذه الصورة عن ابناء بلده الى اهل الصين لتمشية اموره التجارية !

(٥) ص ٢٢٠

عاشت المدنيّة البابلية ردحاً بعد فقدان سلطانها السياسي. وفي اوائل العصر الاسلامي كان لايزال هناك فلكيون كلدان ذكرتهم مصادر تاريخ الاسلامية ، ولو ان ظلهم انكسف مع صعود الثقافة السريانية. كما اشتهرت الخمرة البابلية وتغنى بها الشعراء العرب في الجاهلية والاسلام

.(٦) ١٠٣ - ١٠٤ ط القاهرة ١٩٤٨.

(٧) الكتاب باللغة الصينية . واطلعت على تلخيص له لصديقي يوسف ما جاو ، استاذ الكيمياء في جامعة بيجينغ للحديد والصلب، وهو من المعنيين ايضاً بتاريخ مسلمي الصين الذين تشغل اسرته مكانة مرموقة بينهم . والمؤرخ مايي يو من نفس الأسرة .

(٨) تاريخ الطبري . ط ابو الفضل ابراهيم . القاهرة . حوادث سنة ٩٦ هـ ج ٦ - ٥٠٠ - ٥٠٣ .

(٩) ص 705

(١٠) حوادث ١٤٥ هـ ج٧/٦١٤

(١١) ص 125

(١٢) ص 125

(١٣) علق الأستاذ اسرائيل ابشتاين على وصول اليهود إلى الصين في أسرة سونغ فقال: حيثما وجدت العرب كنت تجد اليهود. في كل مكان ذهب إليه العرب كان اليهود معهم!

(١٤) عمله بتكليف من الامبراطور تاي تزونغ واستقبله بعد إنجازه وانعم عليه بلقب (شريف) وعينه بمنصب (مدير فلكي)

(١٥) ص ٣١ من طبعة القاهرة

(١٦) ١/ ١٤١

(١٧) مصدر سابق ص ٤٨

ملخص عن العرب في سجلات أسرة تانغ :

تتوزع هذه السجلات على تصنيفين : جيو تانغ شو (كتاب تانغ العتيق) وشين تانغ شو (كتاب تانغ الجديد) . وقد طالعت ما يتعلق بالعرب في هذين المصنفين بمساعدة كل من الصديقة السيدة وانغ روي تجو وتلميذي ليو تشانغ تجينغ وفيما يلي أهم ماورد فيهما :

تاشي (العرب) اسسوا دولة مضى عليها حتى الآن ٣٤ سنة . وجوههم سمراء . لحاهم كثة. أنوفهم طويلة عالية يشبهون الهنود . لكن نسائهم بيض . خيولهم أحسن الخيول . وإبلهم أحسن الابل . شجعان ، أسلحتهم حادة . يعبدون تيان شن .

وتذكر الوفد الذي وصل الى أسرة تانغ زمن عثمان بن عفان، وانهم رفضوا السجود للامبراطور كما جرت العادة عند أهل الصين لكن الامبراطور أصر على عدم مقابلتهم الا اذا سجدوا له فاستمروا على الرفض فأفهمه أحد وزرائه أن هذا يتعارض مع رسوم العرب وانه ليس من اللائق ان نردهم خائبين لأنهم جاءوا الينا بعد أن سمعوا بأن أهل الصين يتمتعون بشمائل طيبة وقد وصلوا من مسافة بعيدة .. فتراجع الامبراطور واستقبلهم على شروطهم .

وفي خبر عن وفد آخر يحتمل أنه من أيام العباسيين حدث نفس الاشكال لكن الوفد العربي هو الذي تراجع هنا ووافق على السجود .ويؤشر ذلك التطور الذي طرأ على نظام الحكم الاسلامي حيث تأبطرت الدولة الاسلامية واتبع الخلفاء ، وبالخصوص العباسيين ، رسوم الأباطرة المعتادة إذ كان الداخل على الخليفة العباسي يقبل الأرض بين يديه وهو التعبير الذي يرد في النصوص الاسلامية عن السجود للخليفة.

وأشارت السجلات الى الحكم الأموي باسم موهان أي مروان . وذكرت وفد قتيبة الذي تحدث عنه الطبري الى الامبراطور شوان تزونغ . وبالطبع لم تذكر تفاصيل الصفقة بين قتيبة والامبراطور وانما ذكرت أنه جاء لتقديم الهدايا . ووردت في هذه الفقرة اشارة الى رئيس الوفد هبيرة بن المُشَمْرَج باسم مو خو مو وذكرت ماتمتع به من ذكاء وشجاعة وأنه اختير ملكاً (رئيساً) للوفد بسبب ذلك .

وذكرت السجلات من الأمويين : خو لو شامو لو وين بوشيلين . وأن أحدهم قتل أخاه المسمى إي جي . وتعذر علي رد الأسماء الى أصولها . وقد تكون الإشارة الى يزيد بن الوليد (الناقص) الذي ثار على ابن عمه (الوليد بن يزيد) وقتله . وورد ذكر سليمان بن عبد الملك بدون تحريف وأنه أرسل وفد الى الصين لتقديم هدايا . ومن الجدير بالذكر أن وفد قتيبة صادف أول خلافة سليمان فلعله المقصود بالإشارة .

وقالت السجلات أن الأمويين طغوا واضطهدوا الناس فثار عليهم العرب ذوو الملابس السوداء (خِي يي تاشي) أي : العباسيين ، الذين لقوا استجابة واسعة لثورتهم فاسقطوا موهان واستلم الخلافة أبولوبا والمقصود أبو العباس أول خلفاء العباسيين . ثم تلاه بعد وفاته أخوه أبو كونغو أي أبو جعفر . وأن أبو كونغو أرسل جيشاً الى الصين لمساعدة امبراطور أسرة تانغ على اخماد تمرد واستعادة العاصمتين الامبراطوريتين من المتمردين .

وبعد أبو كونغو تولى ابنه ميدي (المهدي) ثم تلاه ابنه كالون (هارن الرشيد) . وقد أرسل كالون وفداً من ثلاث رجال الى الصين بقوا في الصين وتسلموا مناصب . وكان ذلك حينما كانت توفان (التبت) تهاجم الأراضي الصينية والعربية .

ولا تذكر سجلات تانغ خليفة بعد هارون الرشيد . ومن الجدير بالذكر أن أسرة تانغ أخذت في الحقبة اللاحقة تتدهور وتتفكك . ومع أنها حكمت مئة سنة أخرى فقد كان وضعها شبيه بأوضاع الخلافة العباسية بعد المتوكل . وصادف سقوطها نهائياً في خلافة المقتدر .

شروح لبعض الإشكالات في النص :

القول أن نساء العرب بيض يرجح أنهم جلبوا معهم نساء من بلاد الشام أو ايران أو آسيا الوسطى .وكان الموفدون المسلمون يأخذون زوجاتهم معهم إذا كان السفر بعيداً حسب السنة التي شرعها عمر بن الخطاب بعد أن حرم المتعة .

تيان شن : يعني إله السماء . ونسبة شن الى تيان للتخصيص لأن شن تفيد الكائن الروحاني المفارق دون تعيين شخصيته أو مكانه . أي انه ليس من أسماء العلم . وقد تغير هذا الوصف لإله المسلمين في عصر لاحق فصار يسمى جن تجو اي كما ذكرت سابقاً : رئيس المسلمين . وكان الامبراطور كانغ شي (١٦٦١ - ١٧٢٢) من اسرة تشينغ الأخيرة قد لقب المسلمين تشن جن وتعني الطاهر النقي . وفيها اشارة الى عنايتهم بالنظافة حسب التعاليم الاسلامية . وكان غرضه التقرب منهم . وقد تحول اللقب الى مرادف قاموسي لكلمة مسلم . ومن تطبيقاته ترجمتهم حزب الله الى تشن تجودان - حرفياً : حزب رئيس المسلمين .

وفد الرشيد : إن النص على أنهم بقوا في الصين وتسلموا مناصب يشير الى أنهم اقاموا لهم مكتب دائم كسفراء لتنسيق التعاون العسكري بين العباسيين وأسرة تانغ ضد التبتيين . وصارت اقامتهم في تشانغ أن كما يبدو معروفة للعموم لأن السجلات ذكرت أسمائهم ، المحرفة طبعاً ، وهم : أوجي ، شاوبَيي ، هان تْسو . ومن المتعذر ردهم الى أسمائهم الأصلية مع هذا التحوير البعيد للغاية . ويمكن الإفتراض على أي حال أن تساوبيي هو الشيباني ، وهان تسو هو هاشم أو الهاشمي ؟ .

نصوص وشواهد

مشاهدات سائح عربي

نقل ابن النديم في الفهرست عن راهب بغدادي ساح في الصين بضعة سنوات والتقى به بعد عودته فقص عليه ما رآه وسمعه هنا . ومما نقله عنه :

- المسافر في بلاد الصين اذا سافر كتب نسبه وحليته ومبلغ سنه

وما معه ورقيقه وحاشيته الى أن يحصل على مقصده ومأمنه ، خوفاً من أن يحدث عليه في بلاد الصين حدث فيكون عيباً على الملك .

- اذا تزوج أجنبي صينية وأراد الخروج من البلاد منع من اخراجها معه .

- لا يولي الملك عاملاً او اميراً إلا وله اربعون سنة .والعدل بها أكثر وأظهر من سائر الأرض.

الفهرست ص ٥٠٦

* تصادف رحلة القس البغدادي أواسط حقبة الأسرات الخمسة .

الحلية : العلامات الفارقة في البدن

لايزال الصينيون يتشددون في الزواج من الأجانب .

الصين عند ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق .

- قال بعض الشرقيين أن الله أسكن ادم بناحية كيكدر (؟) من كورة الصين . وهي تعرف في زماننا بمدينة البغبور (ابن السماء) ويقولون أن الصين أطيب البلاد .

١ / ٢٥٣

- قال صالح بن احمد بن حنبل : أرسل رجل من الصين اشياء لجماعة من المحدثين (أهل الحديث) وارسل الى ابي قمطراً فلم يقبله .

٢ / ٤٢

* أحمد بن حنبل معاصر لأواخر أسرة تانغ . والقمطر (كسر القاف وفتح الميم وسكون الطاء) صندوق للملابس والكتب . ولا يعرف إن كانت الهدية هي القمطر نفسه أم قمطر ملابس ؟ وللصينيين تفنن في تجارة هذه الخزانات .

- العدل في الصين:

نصيحة الملوك للماوردي

أصيب ملك الصين بالصمم فبكى . فقال له اعوانه : مايبكيك ؟ قال : أخشى أن لا اسمع شكوى المظلومين . فاقترح عليه احدهم أن يعمم على كل من له مظلمة او شكوى ان يلبس رداء أحمر حتى يراه الملك

فينصفه .
* الحكاية ليست صحيحة تأرخياً إنما تصح تاريخياً لأن الكثير من أباطرة وملوك الصين تأثر بالوعي المشاعي والجماعي الذي بثه حكماء الصين وعاش في المجتمع الى جانب التقاليد الأخرى .
نصيحة الملوك مخطوط في مكتبة باريس الوطنية .

الصينيات في حديث نبوي ؟
في مجمع البحرين للطُريحي
عن النبي أنه قال : استوصوا بالصينيات خيراً .
* مادة صون من المرجع المذكور . وهو من كتب الشيعة .
والحديث لا يصح . لكنه يدل على وجود نساء صينيات في العالم الاسلامي إما كجواري أو كزوجات . والجواري فيهن قليلات لأن حالة الحرب لم تكن قائمة بين الصين والمسلمين . كما أن تجارة الرقيق لم تنشط مع الصين كما كانت مع أوربا . وثمت نص في محاضرات الراغب الأصفهاني عن ولد الصفراء يرتبط بهذا الوضع .
هم أنجب أولاداً والين اجساداً وأطيب افواهاً .
ص ٣٢٩ .

علوم الصين وصنعتها
محاضرات الراغب الأصفهاني
أهل الصين أصحاب الأعمال كالسبك والصياغة والإفراغ والاذابة والأصباغ العجيبة والخرط والنحت والتصاوير والخط والنسج، ورفق (دقة) الكف في كل ماتناولوه وكانوا يباشرون العمل ولا يعرفون العِلل لأنهم فَعَلَة .
ص١٥٢
كتابة الصين
محاضرات الراغب عن ابن الكلبي
.. كتابة الصين نقوش تُصَوَّر .

البط الصيني

الصنوبري يتغزل :

ويا بهجة نيسانٍ
ويا رقة تشرينِ
ويا بلبل يا طاووس
بل يا بطة الصينِ

* قرأت هذا الشعر لمستعرب صيني فلم يصدق روايتي وقال هو من نظمك .

والوز الصيني

اسماعيل بن عمار الأسدي (معاصر للمنصور) وقد سكر مع جماعة من أصحابه :

نُسقى شراباً لعمرانٍ يعتقه
يُمسي الأصحاء فيه كالمجانينِ
إذا شهدنا صلاةً بعدها فَرطَت
قمنا اليها بلا عقلٍ ولا دينِ
نمشي اليها بطاءً لا حَراك بنا
مشي الأوز التي تأتي من الصينِ
نمشي وأرجلنا عوجٌ مطارحها
كأن أرجلنا يُقلعن من طينِ

حديد صيني

ابن عساكر

كان لأبي نواس خاتمان : خاتم فضة من عقيق مربع مكتوب عليه :

تعاظمني ذنبي فلما عدلته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما

والآخر حديد صيني مكتوب عليه : لا إله إلا الله مخلصاً .

٤ / ٢٨٢

وفي الرسالة القشيرية :

بلغ عمر بن عبد العزيز ان ابناً له اشترى فصاً بالف درهم فكتب اليه يأمره أن يبيع الخاتم ويشبع به الف بطن ويتخذ خاتماً من درهمين ويجعل فصه حديداً صينياً ويكتب عليه : رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ص٧٠.

– اللون الأصفر الصيني

كُشاجِم في الشمام

وزائرٍ زار وقد تعطرا

اسرّ شُهداً واذاع عنبرا

ملتحفاً للصين ثوباً أصفرا

* كُشاجم من القرن الرابع الهجري .

واللون الأصفر هو الغالب على ملابس اباطرة الصين وستائرهم ومناديلهم .

– الصين في تاج العروس مادة صين :

– معاملاتهم بالكواغد المطبوعة .

– الصين موضع بالكوفة وبالإسكندرية (اسكندرية العراق) وموضعاتهبكَسْكَر (جنوب العراق) . والصينية بلد تحت واسط . وتعرف بصينية الحوانيت منها قاضيها وخطيبها ابو علي الحسن بن أحمد بن ماهان الصيني نسبة اليها .

والدجاج الصيني نسبة الى الصين .

دَفر : شجر صيني وشحْري . باب الراء فصل الدال .

شِحري نسبة الى الشحَر في عُمان .

– زُرُنْباد : عروق تجلب من الصين تشبه السعد لكنه أعظم وأقل عطرية وله خواص مذكورة في كتب الطب .

مادة زرد .

– ابراهيم بن اسحق الصيني روى عن يعقوب القمي وحميد بن محمد الشيباني الصيني .

وكان أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصاري الأندلسي البلانسي يكتب لنفسه الصيني لأنه سافر من الغرب الى أقصى الشرق الى أقصى الصين .

الفن الصيني

كشاجم يصف مسرجة (سراج) صينية :

صينيةُ الصين حين أبدعها
مصور الحسن بالتصاوير

رحلة ابن هبار

هبّار بن الأسود رجل من قريش كان من المتشددين ضد النبي محمد قبل فتح مكة وطارد ابنته زينب لما أرادت الالتحاق بوالدها في يثرب وسبب لها الإجهاض . وكان النبي يوصي سراياه بقتل هبار أينما وجدوه . ثم عفا عنه عند فتح مكة أما ابن هبار فهو رجل من نسله كان من تجار البصرة أيام ثورة الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣م) وهرب منها لما دخلها الزنج بقيادة علي بن محمد . وركب سفينة ذاهبة الى الهند ومنها الى الصين . ثم توجه براً الى العاصمة تشانغ أن وطلب مقابلة الإمبراطور يي تزونغ، أسرة تانغ ، وبيّن في طلبه أنه من أقرباء نبي المسلمين . فاستمهله الإمبراطور للتحقق من صحة دعواه ،وكتب الى حاكم كوانتشو (كانتون) ليستفسر عن ذلك من الجالية العربية هناك وجاءه الرد من الحاكم أن ابن هباررجل من قريش عشيرة النبي محمد فاستقبله الإمبراطور . وقص ابن هبار عليه قصته وكيف أنه اضطر الى الفرار من مدينته بعد أن داهمها الثوار لينجو بنفسه وأهله . وكانت الثورة قد انتهت فطلب من الامبراطور مساعدته للعودة. فجهزه بما يلزم لسفره وعاد الى البصرة . ولاشك أن من أسباب عطف الامبراطور على التاجر البصري هو تحسسه ضد ثورة كهذه .

يرد ذكر ابن هبار عند الصينياتيين الغربيين باسم ابن وهب . وهو تحريف ناتج عن صعوبة قراءة الاسم الأجنبي . وقد اقتبسه بعض

الكتاب العرب الذين اعتمدوا على هذه المراجع دون الرجوع الى المصادر العربية ، وخبر ابن هبار في المسعودي (١٤٢/١ - ط١ القاهرة ، محي الدين عبد الحميد ١٩٤٨ .

لم ترد تفاصيل عن رحلة ابن هبار وما شاهده في الصين سوى مازعمه من أن الامبراطور عرض عليه صور الأنبياء : نوح ، موسى ، عيسى ، محمد ،مع مجموعة من حكماء الصين والهند. وكان ذلك عام٨٧٢ م . ولاسبيل الى تعيين من صاغ هذه الرواية هل هو ابن هبار نفسه أم الناس الذين اعتادروا على تزييد مايرويه لهم السياح وهم بدورهم ، السياح ، تعودوا على التزييد والنفج .

- الصين كما رآهاابن بطوطة

اقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم الأرض .ويخترقه النهر المعروف بأب حياة ، معنى ذلك ماء الحياة ويسمى أيضاً نهر السَبِّر (السرو) كاسم النهر الذي في الهند ومنبعه من جبال بقرب خان بالق تسمى كوه بوزنه معناه جبل القرود . ويمر في وسط الصين مسيرة ستة اشهرالى أن ينتهي الى صين الصين.(١) وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر الا ان هذا اكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة . وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصري بل يَفْضُله . والأعناب والاجاص . وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الإجاص الذي بالصين .وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان . وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ماهو مثله وأحسن منه . والقمح بها كثير جداً ولم أر قمحاً أطيب منه . وكذلك العدس والحمص .

ذكرالفخار الصيني

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان ، وهو من تراب جبال هنالك تقد (تتوقد) : منه النار كالفحم . وسنذكر ذلك ، ويضيفون اليه حجارة من عندهم. ويوقدون النار عليها

ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً ثم يخمرونه . فالجيد ما خُمّر منه شهراً كاملاً ، ولا يزاد على ذلك، والدون ماخمر عشرة أيام . وهو هنالك بقيمة الفخار في بلادنا أو أرخص ثمناً . ويحمل الى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار(٢) .

ذكر دجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً ، أضخم من الإوز عندنا ،وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا . وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها . ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناها في برمتين .ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتتف ريشه فيبقى بصنفة حمراء . وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كُولم فظننته نعامة ، وعجبت منه . فقال لي صاحبه : إن ببلاد الصين ماهو أعظم منه فلما وصلت الى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك (٣).

ذكر بعض من أحوال أهل الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود(٤). وملك الصين تتري من ذرية تنكيزخان. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم، ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون (٥). وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم (٦). وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة

وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرجل الثالثة . والحرير عندهم كثير جداً لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤونة . ولذلك كثر . وهو لباس الفقراء والمساكين بها . ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب

الكثيرة من الحرير(٧) . وعادتهم أن يسبك التاجر مايكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه ومادونه . ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل في اصبعه خاتماً . ومن كانت له عشرة جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سموه السُتي وهو بمعنى الكارمي بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بَرْكاله (٨) .

ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون :

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . وجميع مايتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان . وتسمى الخمس والعشرون قطعة بالشت وهو بمعنى الدينار عندنا . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا فيأخذ عوضها جُدُداً . ولا يعطي على ذلك آجرة ولا سواها، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان : وقد وُكّل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء وإذا مضى انسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد .(٩)

ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم :

وجميع أهل الصين والخُطا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا، ولونه لون الطفل تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم . وهو أشد حرارة من نار الفحم . وإذا صار رماداً عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية .ولايزالون يفعلون به كذلك الى أن يتلاشى . ومن هذا التراب أواني الفخار الصيني ويضيفون اليه حجارة سواه كما ذكرناه .(١٠)

ذكر ماخُصوا به من إحكام الصناعات :

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم اتقاناً لها. وذلك مشهور من أحوالهم وقد وصفه الناس في تصانيفهم فاطنبوا فيه .

وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق . ولقد دخلت الى مدينة السلطان (العاصمة) فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زي العراقيين فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد الصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه . وذُكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا الى قصره ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لا نشعر بذلك . وتلك عادةلهم في تصوير كل من يمر بهم . وتنتهي حالهم في ذلك الى أن الغريب اذا فعل مايوجب فراره عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبُحث عنه . فحيثما وجد شبه تلك الصورة أُخذ .

ذكر عادتهم في تقييد مافي المراكب :

وعادة أهل الصين إذا أرادجنك من جنوكهم (١١) السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية . وحينئذ يباح لهم السفر . فإذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضاً وقابلوا ماكتبوه بأشخاص الناس فإن فقدوا أحداً ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به . فإما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه ، وإلا أُخذ فيه . فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً لجميع مافيه من السلع قليلها وكثيرها . ثم ينزل من فيه (من الركاب) ويجلس حُفاظ الديوان لشاهدة ماعندهم فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع مافيه مالاً للمخزن (خزانة الدولة) وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين . اللهم إلا أنه كان بالهند مايقرب منه وهو أن من عُثر على سلعة له قد غاب مغرَّمها أُغرم أحد عشر مغْرماً .

ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم(١٢) .

ذكر عادتهم في منع التجار عن الفساد :

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معيّن ، أو في الفندق . فإذا أحب النزول عند التاجر حُصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وانفق عليه منه بالمعروف. فإذا أراد السفر بُحث عن ماله ، فإن وجد شيء منه قد ضاع أُغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه . وإن أراد النزول في الفندق سُلّم ماله لصاحب الفندق وضمنه . وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه . فإن أراد التسرّي اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق وأنفق عليهما . والجواري رخيصات الأثمان لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيباً عندهم . غير أنهم لا يُجبرونهم على السفر مع مشتريهم، ولا يُمنعون أيضاً منه ان اختاروه وكذلك إن أراد التزوج تزوج . وإما انفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له اليه ويقولون : لا نريد أن يُسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا ، فإنها أرض فساد وحسن فائق .(١٣)

ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق :

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين فإن الانسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها . وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال. فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم الى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل انسان باسمه وكتب به تفصيلاً وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا اليه . وان لم يفعله طلبه بهم . وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق . وفي هذه الفنادق جميع مايحتاج اليه المسافر من الأزواد وخصوصاً الدجاج والإوز . وأما الغنم

فهي قليلة عندهم .(١٤)

ولنعد الى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون . وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند . ولكنه اسم وضع عليها (١٥) . وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها : ثياب الكمخا والأطلس ، وتعرف بالنسبة اليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخان بالقية . ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها رأيت به نحو مئة جنك كبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو خَوْر كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها . كمثل ماهي بلدة سَجَلْماسة ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم . والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . وفي يوم وصولي اليها رأيت بها الأمير الذي توجّه الى الهند رسولاً بالهدية ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك فسلّم علي وعرّف صاحب الديوان بي فأنزلني في منزل حسن . وجاء الي قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلي وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الاسلام شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة حافظ للقرآن مكثر للتلاوة .

وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الاسلام . وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنياً كواحد منهم ، وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي اسحق الكاذروني .(١٤)

ولما عرف صاحب الديوان أخباري كتب إلى القان (الخان) وهو ملكهم الأعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند . فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني الى بلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونها صين كُلان لأشاهد تلك البلاد وهي في عِمالته بخلال مايعود جواب القان . فأجاب الى ذلك وبعث معي من أصحابه من يوصلني ، وركبت في النهر

في مركب يشبه أجفان بلاد الغُزوية (١٧) إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياماً وجميعهم في وسط المركب ،والركاب في المقدم والمؤخر . ويظللون على المركب بثياب تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به . وهو أرق من القنب . وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوماً . وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشتري بها ما نحتاج اليه ونصلي الظهر . ثم ننزل بالعشي الى أخرى . وهكذا الى أن وصلنا مدينة صين كلان (كانتون) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضاً . وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين . وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقاً . ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها تحمل الى سائر بلاد الصين والى الهند واليمن. وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها .وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات (العاهات) ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة. وكذلك فيما بين الأبواب كلها. وفي داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الأغذية وفيها الأطباء والخدام . وذُكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة . وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا مال لهم . وعمّر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وما اليها من القرى والبساتين وقفاً عليها . وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة وهم يعبدونها (١٨) .

وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاضٍ وشيخ . ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمورُ المسلمين كلها راجعة اليه وقاضٍ يقضي بينهم .

وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوي الأموال الطائلة . وأقمت عنده أربعة عشر يوماً وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي . وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون

اليها بالعُشارين الحسان والمغنين .

(١) آب حياة ، فسره ناشر طبعة اليونسكو بترجمتها الفرنسية بأنه النهر الأصغر وقد خلط ابن بطوطة في الحقيقة بين نهرين . فمنبع النهر الأصغر هي جبال في الشمال الغربي في موضع يدعى الآن كازكولم وتحرف كما يبدو عند ابن بطوطة أو نساخ رحلته الى كوه بوزنة. أما مصبه ففي بحر بوهاي الى الشرق .

وأما النهر الذي يصب في صين الصين فهو نهر اللؤلؤ .

(٢) الفخار يقصد به الخزف . وقد وصف ابن بطوطة صناعته بدقة.

(٣) بالغ ابن بطوطة في حجم الديك والدجاج الصيني ، فهو أكبر قليلاً من حجم دجاجنا . وأما البيض فلا يختلف عن بيضنا .

(٤) عادة حرق الموتى غير شائعة في الصين ، وإن كان بعض الصينيين يفعلونها دون أن تكون لهم قاعدة عامة كما هي عند الهندوس . وقد دعا اليها ماوتسي تونغ في العصر الحاضر الا انها لم تتعمم .

(٥) هذه الملاحظة تؤكد ماذكره تقويم الأحداث الصيني عن فشل خطة ماركو بولو واعادة الاعتبار للمسلمين في أسرة يوان المغولية .

(٦) بعض أهل الجنوب يأكلون لحوم الكلاب كما ذكر ابن بطوطة . كما تسود عادة أكل الأفاعي وأدمغة القرود. والأخيرة حرمها ماوتسي تونغ .

(٧) لا يزال القماش القطني يقصر انتاجه عن حاجة الصينيين ولذلك يباع بالقسائم .

(٨) بركالة من المغولية.

(٩) دراهم الكاغد : النقود الورقية . وقد ظهرت بعد اختراع الطباعة. البالشت من المغولية .

(١٠) لايزال الصينيون يستعملون للوقود قوالب الفحم الاسطوانية المثقبة .

(١١) الجنك ، من الفارسية ، اسم المواخر الصينية التي تقابل لقرقور الاسلامي .

(١٢) هذا من ظلم حكام المغول ، وابن بطوطة يتحدث عن بلد يحكمه أحفاد جنكيز خان. المغارم : الضرائب غير الشرعية .والشرعي عند المسلمين هو عشور التجارة وهي عشرة بالمئة لغير المسلمين وخمسة بالمئة للمسلمين ولا يزاد عليها .

(١٣) عادة بيع الأولاد في الصين جارية حتى اليوم . ولم أجد لها تحريم في القوانين الصينية القديمة .وانما حرمها ماوتسي تونغ . ويبدو أنها عادت بعده.

الحسن الفائق مشهود اليوم كما قرره ابن بطوطة .

ملاحظته عن تحفظ الادارة الصينية فيما يخص سمعة الصين في بلاد المسلمين يمكن فهمها في ضوء المستوى الحضاري للمسلمين آنذاك وماكانوا يتمتعون به من احترام خاص في عيون الصينيين .

(١٤) هذا يدحض مايقوله المؤرخون المعاصرون في الصين عن فساد الادارة المغولية واضطراب حبل الأمن في البلاد على عهدها .

قلة الغنم مشهودة اليوم . وتخصص غالباً لاستهلاك المسلمين .

(١٥) انظر الباب الأول – اللغة

(١٦) الكازروني نسبة الى كازرون ، من مدن ايران ، والحديث هنا عن الداروبش.

(١٧) الأجفان : صنف من المراكب . مفرده جفنة، استعارة من الصحون الضخمة المستطيلة التي يقدم فيها الطعام للضيوف . وهي في القرآن في الحديث عن صناعة الجن للنبي سليمان :

وجفان كالجوابي وقدور راسيات.

الغزوية : نسبة الى الغز ، بضم الغين ، قوم من آسيا الوسطى .

(١٨) لعل المقصود بالكنيسة معبد بوذي أو تاوي ، مع الأخذ في التفسير ان الكنائس أنشئت في أسرة ايوان المغولية اذ كان الجيش المغولي الذي احتل الصين يضم أعداد ضخمة من الروس والأرمن

والجورجيين .

ما وصفه ابن بطوطة من خدمات (الكنيسة) هو أحد تطبيقات مايسميه فلاسفة الصين القلبية الانسانية ، مما لا نجد له نظير في الكنيسة الأوروبية القروسطية .

استذهان مقارن :

– قال كونفوشيوس : اذا كانت مواهب الانسان أكبر من ثقافته كان جلفاً . واذا كانت ثقافته أكبر من مواهبه كان مكابراً . واذا تساوت ثقافته مع مواهبه فهو الانسان الأكمل .

التناسب بين الموهبة والثقافة يقابله عند المسلمين التناسب بين العقل والعلم . فهناك من عقله أكبر من علمه . ومن علمه أكبر من عقله . ومن عقله يساوي علمه . ويعبر بالعقل عندهم عن حالتين : الاستعداد الفطري ، بمعنى الموهبة ، وعن المصطلح الجاهلي حلم بكسر الحاء، ويفيد العقل الأخلاقي أي جملة قواعد السلوك المرشدة للانسان . ومن يتصف به فهو الحليم . ويختلط معنى الحلم بمعنى التسامح وهو السلوك الديمقراطي في العلاقات الفردية ، لكنه يأخذ أيضاً معنى العاقل الفَطن . ومن هنا قول العامة : الحكيم تكفيه الاشارة . ومن الغرارات التي ذكرت لهذه التناسبات قولهم : الجاحظ علمه أكثر من عقله . وعلي بن عبيدة الريحاني عقله أكثر من علمه، وأبو زيد البلخي علمه بقدر علمه وهو الغاية عندهم وفي غرار الحاحظ إشعار لعدم تكافؤ سلوكه الشخصي أو المعرفي مع مستوى ثقافته العالي . وعند الريحاني يتفوق الاتزان والقدرة على المحاكمة على رصيده من المعرفة .

– قال التاوي مان كوتي :

الصفيق يصبح غنياً . اللبق يصبح موظفاً كبيراً .

وقال أبو الشمقمق :

ولست مكتسباً رزقاً بفلسفة

ولا بعلم ولكن بالمخاريق

ويحي البريكي :

الدنيا لا تُنال إلا بالحرام

وجعفر الصادق :

ماجمعت عشرون ألف درهم من حلال .

- قال مان كوتي :

اللصوص الصغار يسجنون. لكن اللصوص الكبار يصبحون سادة قطاعيين .

وقال عمرو بن عبيد ، من شيوخ المعتزلة وقد رأى سارقاً تقطع يده

سارق السر يقطعه سارق العلانية .

- قال مان كوتي :

... وعلى أبواب سادة الاقطاع سترى علماءك المحقين .

وقال عبد الله بن المبارك ، من أحبار القرن الثاني لمن اشتغل في لقضاء :

يا جاعل العلم له بازياً

يصطاد أموال السلاطين

وتتفق الحكمة الصينية مع الحكمة الاسلامية في اشتراط مقاطعة لسلطة لاستكمال الحكيمية .

- قال منشيوس :

الفسوق هين اذا كانت المظاهر مستورة

وفي الحديث النبوي ، وقد أخرجته مصادر الحديث المعتمدة :

من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر .

والمعيار في القولين أن الفسوق ، وهو من الجرائم الشخصية ، يس بحد ذاته مصدر للضرر وانما يأتي الضرر من المجاهرة به مما يؤدي الى تعميمه وجعله طبيعياً في عيون الناس مع ما ينشأ عنه من لانحلال الاجتماعي على النحو المشاهد في الحضارة الغربية المعاصرة

-. في التوهج العظيم :

يجب أخذ الأخلاق في جملتها وتقييم سلوك الفرد لا بتناول اللمم والهفوات .

القرآن :

الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم .

وفي الحديث :

لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم .

أخرجه مسلم

- في التوهج العظيم :

الترف يهيج الذهن ويقلقل الارادة ويعكر النفس ويلهب العواطف .

- قارن مع عداء القرآن للمترفين بوصفهم مصدر الفساد والكفر :

وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً .

- لاوتسه :

إذا ملأ الذهب واليشب القاعة فمن يقدر على حمايتها .

يسوع : لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون ... لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً ...

متى ٦ / ١٩ ، وما بعده .

محمد : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم .

٣٤/ التوبة .

-التاويون :

الجسد كون صغير . صورة مصغرة للعالم .

الفلاسفة المسلمون :

وتحسب انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر
- التوهج العظيم :
«كانت هناك بداية
كانت هناك بداية تسبق هذه البداية
كانت هناك بداية اسبقية حتى قبل بداية هذه الأسبقية .»
محمد الباقر :
«كان قبل ادم هذا ألف ألف آدم .»
مقصود القولين عدم تناهي الوجود من أوله أي أزليته .
- لاوتسه :
الانسان الاعتدائي لا يموت موتة طبيعية.
قول المسلمين :
بشر القاتل بالقتل .
- الفيلسوف التاوي لوشيه :
ان تدري إنك لا تدري ذلك منتهى الحكمة .
العلماء المسلمون : كلمة لا ادري نصف العلم .
- قال التاوي تشيه شيه ينتقد النائحين على لاوتسه عند وفاته :
عندما جاء السيد فلأنه امتلك المناسبة لان يولد . وعندما رحل فلانه اتبع مجرى الطبيعة .
الكندي في رسالة دفع الأحزان :
الموت هو تمام طباعنا .
- من نظرية التكوين التاوية :
في البدء كانت الأرض والسماء غير مقسمتين والفصول الأربعة لم تنفصل بعد . وهذا هو مدار نظرية التكوين السومرية . وقد ترددت في القران : أو لم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما ؟
٣٠ / انبياء

- تشوانغ تسه :
بالتثقيف الأخلاقي والذهني يعود الكائن الجزئي الى التطابق مع القوة الكونية الفعالة والاتحاد مع المبدأ الأول .

فكرة مركزية في فلسفةالاشراق والتصوف وفلسفة الرازي الأخلاقية ، وعند الشيرازي ان الانسان هو آخر كائن في مسلسل الطبيعة، ثم تبدأ روحه بالترقي بعد أن استكمل جسده ترقيه من الحيوانية الى البشرية حتى تندمج في العالم الكلي .

والهدف المشترك لهذه النظريات معادلة الحسي بالروحاني في شخصية الفرد من أجل استكمال تحرره في مواجهة سلطة الدولة، والدين والمال ... ولا تعلق لهذه الفكرة بالدين لانها تستبعد النعيم الأخروي ، وهي تختص أساساً بالمثقف دون عامة الناس وتندرج في منحى المثقفية المتقوم بالمسؤولية والالتزام الملازمتين لترقي الوعي الذهني الذي يحصل بالفلسفة دون غيرها من المعارف .

- تزامنات صينو - عربية :

-أسرة تجوو تزامنت مع السلالة العشرين الى السلالة السادسة والعشرين في مصر الفرعونية ، ومع الدولتين الاشورية والكلدانية في بلاد الرافدين ، والدولة السبأية في اليمن .

- حقبة الربيع والخريف وأسرة تشين تزامنت مع الحكم الاخمني في ايران والعراق والسلوقي في سوريا والعراق وأوائل البطلمي في مصر .

- أسرة الهان تزامنت مع امبراطورية قرت حدش (قرطاجة) في شمال أفريقيا.

- ولد المسيح في منتصف أسرة الهان

- الممالك الثلاثة والدويلات المجزأة تتزامن مع فراغ سياسي

وحضاري عم المنطقة العربية قبل ظهور الاسلام.

- ولد النبي محمد في حقبة الاسرات الشمالية والجنوبية : السنة الخامسة من حكم الامبراطور هوو تجوو / أسرة تشي الشمالية . والسنة التاسعة من حكم الامبراطور وو دي من تجوو الشمالية .

- بعد مرور سبع سنوات على بدء الدعوة المحمدية في مكة تأسست أسرة تانغ ، أعظم الأسرات في تاريخ الصين .

- في الحقبة الممتدة مابين ظهور النبي محمد في مكة وهجرته الى المدينة كان الفيلسوف فوبي ينشر على نطاق واسع مذهبه المناوئ للأديان .

- مابين ميلاد النبي وخلافة الوليد بن عبد الملك كانت البوذية تنتشر في عموم الصين وتؤسس لها مواقع في كوريا واليابان .

- مع بداية الدولة المروانية الى أواخر خلافة عبد الملك بن مروان كانت تحكم الصين الامبراطورة وو تزي تيان ، من أسرة تانغ ، وهي من الحالات الاستثنائية في تاريخ الصين السياسي . دام حكمها نصف قرن .

- توفي النبي محمد في السنة السادسة من حكم الامبراطور تاي تزونغ / تانغ .

-مابين خلافة الوليد بن عبد الملك والسنة الثانية من حكم المنصور كان حكم الامبراطور شوان تزونغ ، الذي يعتبر عهده العصر الذهبي لتانغ . وهو الذي عقد الصفقة التاريخية مع قتيبة بن مسلم .

- في عهد جرير والفرزدق والأخطل كان الشاعران وانغ يو ولوو بين وانغ ، وقد وسعا أغراض الشعر وأدخلا عليه بحور جديدة .

- في خلافة المهدي العباسي وصلت المانوية الى الصين وبنت لها معابد في العاصمة الامبراطورية حين كان المهدي يعلن الحرب على المانويين في امبراطوريته .

- بشار بن برد يعاصر لي باي ودوفو أعظم شعراء الصين .

- الجاحظ يعاصر هان يوي أعظم كتاب الصين .

– في أواسط أسرة تانغ تنامت سلطة الخصيان ووصل سبع أباطرة الى السلطة على يدهم . وبعدها بقليل كان المماليك الأتراك يتحكمون في الخلفاء العباسيين .

– في أوائل القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) تجزأت الامبراطورية الصينية بعد سقوط اسرة تانغ . وفي وقت مقارب تجزأت الامبراطورية الاسلامية في المشرق والمغرب .

– سقطت الخلافة العباسية على يد المغول ، الذين اسقطوا في نفس الوقت أسرة سونغ الجنوبية في الصين .

– المؤرخ دو يو (٧٤٣ – ٨١٣) ألف الموسوعة في الشئون الاقتصادية والمالية والادارة والجيش والقضاء لشتى الاسرات الصينية . انتهى منها عام ٨٠١ . يقابل هكذا مؤلف كتاب صبح الأعشى للقلقشندي (٨٢١ هـ ١٤١٨م) بعده بستة قرون . ويؤشر تأخره عنه سبق الحضارة الصينية في الزمان ،وكلا المؤلفين اشتغل في الادارة واستفاد من ذلك لجمع المعطيات اللازمة لموسوعته .

– في غضون القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) ظهر عظماء الخطاطين الصينيين بصدارة يان تجَن تشينغ الذي صار أسلوبه مدرسة تقليدية في الخط الصيني . وبعده بقرن ظهر أبو الخط العربي أحمد بن علي الملقب ابن مقلة .

– عام ١٦١٠ م صدر الكتاب الطبي الكبير في تاريخ الطب الصيني بعنوان مقالة في الأسباب والعلامات في ٦٠ لفيفة كتبه تشاو يوان فانغ في أسرة سوي . وبعده بأكثر من قرنين ظهر كتاب الحاوي للرازي في ثلاثين مجلد .

– سقطت غرناطة في السنة الرابعة عشرة من حكم الامبراطور شياو تزونغ من أسرة مينغ .

فهرس عام

- الباب الثاني :

طبيعيات وماليها - الفرع الثاني

الأرقام تشير إلى ارقام الفرع / النص

تنافيات التاو

الكلمات الصادقة ليست جميلة

الكلمات الجميلة ليست صادقة

الأخيار يتجادلون

والذين يتجادلون ليسوا أخيار

الذين يعرفون ليسوا متعلمين

والمتعلمون لا يعرفون

الحكيم لا يحاول اكتناز الأشياء قط

وكلما زاد من اكتنازه للغير زاد ما يملك

وكلما أكثر من عطائه للغير عظمت وفرته

تاو السماء مسننة لكنها لا تؤذي

تاو الحكيم هي العمل دون كد .



دار المدى للثقافة والنشر